2020
5.1.2020

## مارك توين

# مغامرات
# توم سوير

ترجمة: جهاد الشبيني

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

# مارك توين

# مغامرات توم سوير

رواية

ترجمة

جهاد الشبيني

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

# مغامرات توم سوير

الكاتب: مارك توين
عنوان الكتاب: مغامرات توم سوير
ترجمة: جهاد الشبيني

تصميم الغلاف: الشاعر محمد النبهان
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-09-0
الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2018
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
publishing@takweenkw.com
takweenkw
www.takweenkw.com
@takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا
تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+
بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي
تلفون: 07810001005 / 07830070045
daralrafidain@yahoo.com
Dar alrafidain
info@daralrafidain.com
Dar.alrafidain
www.daralrafidain.com
@Dar alrafidain

إلى

زوجتي

هذا الكتاب

مُهدًى بمودة

# مقدمة

أغلب المغامرات الواردة في هذا الكتاب حدثت بالفعل، وكانت واحدة أو اثنتان منهما تجربتين شخصيتين، أما البقية فكانت مغامرات لزملاء في الدراسة. شخصية هاك فِن مستوحاة من الحياة، وكذلك شخصية توم سوير، ومع ذلك فهي ليست مستوحاة من شخصية واحدة، وإنما هي خليط من ملامح شخصية لثلاثة فتيان كنت أعرفهم، وعليه فإن شخصيته تنتمي إلى النظام المعماري المختلط.

جميع الخرافات الغريبة التي تم التطرق إليها كانت ذائعة بين الأطفال والمسترقين، بالغرب، في الفترة الزمنية التي تقع فيها أحداث هذه القصة، أي منذ ثلاثين أو أربعين عامًا مضت.

ورغم أن كتابي يستهدف تسلية الفتيان والفتيات، بشكل أساسي، فإنني آمل ألَّا يُعرض عنه الرجال والنساء بسبب ذلك، إذ إن جزءًا من خطتي كان محاولة تذكير البالغين بما كانوا عليه يومًا، وبماذا شعروا وكيف كانوا يفكرون ويتحدثون، وبأي مواقف

عجيبة كانوا يورطون أنفسهم في بعض الأحيان، بطريقة تبعث على السرور.

**المؤلف**

**هارتفورد / ١٨٧٦**

# ١

«توم!».

لا يرد.

«توم!».

لا يرد.

«أين اختفى هذا الصبي؟ أنت يا توم!».

أزاحت السيدة العجوز نظارتها إلى طرف أنفها ونظرت من فوق العدسات إلى أرجاء الغرفة، ثم رفعتها ونظرت أسفلها، إذ قلَّما كانت تستخدم نظارتها للبحث عن صبي صغير مثل توم. كانت نظارتها موضع فخرها، فكانت تضعها في المناسبات، كنوع من المظاهر وليس للغرض الذي صُنعت من أجله النظارات، بل كان من الممكن أن تستبدل نظاراتها بعيني موقد. بدت حائرة للحظة، ثم صاحت بصوت يكاد يخترق الجدران، لكن بلا حدة:

«حسنًا، إذا أمسكت بك سـ».

وقبل أن تُنهِ جملتها، انحنت وأخذت تضرب بالمقشة أسفل السرير، بينما تلتقط أنفاسها بين كل ضربة وأخرى، إلَّا أن ضرباتها تلك لم تنل سوى من القطة التي أيقظتها الضربات.

«لم أرَ مثل هذا الصبي قط!».

تقدمت نحو الباب، الذي كان مفتوحًا، ووقفت عند عتبته تنظر خارجًا إلى ثمار الطماطم ونبات الداتورا، الذين امتلئت بهم الحديقة، إلَّا أنها لم تجد أثرًا لتوم، فرفعت صوتها، ليُسمَع عن بعد، صائحة:

«أنت يا توم!».

ما لبثت أن انتبهت إلى صوت آت من وراءها، فالتفتت، وفي لحظة أمسكت بتلابيب توم من طرف سترته.

«هأنت ذا، كان حريًا بي أن أخمن أنك في تلك الخزانة، ماذا كنت تفعل داخلها؟».

«لا شيء».

«لا شيء! انظر إلى يديك، وانظر إلى فمك. ما هذا؟».

«لا أدري يا خالتي».

«حسنًا. أنا أدري؛ إنها مربى. أخبرتك أربعين مرة أنك إن لمست المربى فسأسلخ جلدك. أعطني هذه الخيزرانة».

لاحت الخيزرانة في الهواء، منذرة بقدوم الخطر.

«يا إلهي! انظري خلفك يا خالتي!».

أمسكت السيدة العجوز تنورتها والتفتت وراءها في فزع، فهرب الفتى في لحظة مختفيًا وراء السور الضخم.

وقفت خالته بولي في دهشة للحظة، ثم ضحكت برقة.

«يا له من فتًى! ألن أتعلم أبدًا؟! ألم يكن حريًّا بي ألا أنخدع بعد كل تلك الحيل التي يمارسها؟! ليس أسوأ من عجوز أحمق. بعد أن شاب، ذهب إلى الكُتَّاب، مثلما يقولون. ومع ذلك، فلا زلت أرعاه. لكن، يا إلهي، إنه لا يكرر الخدعة نفسها مرتين، فكيف للمرء، بعد يومين، أن يتوقع ما يخطط له؟! يبدو كما لو أنه يعرف الحدود التي يقف عندها قبل أن يثير غضبي، وكيف يهدئني أو يضحكني. في كل مرة، يتكرر الأمر نفسه ولا أتمكن من أن أمسه بضربة واحدة. إنني لا أقوم بواجبي تجاه هذا الصبي، يعلم الله أن هذه هي الحقيقة. مثلما يقول الكتاب المقدس: العصا لمن عصى. أعرف أنني أرتكب خطأً في حق كلينا. إن لديه ميلًا للخطيئة، ولكن، يا إلهي، إنه ابن شقيقتي المتوفاة، المسكين. لا يطاوعني قلبي أن أجلده، ضميري يؤلمني في كل مرة أدعه يفلت بفعلته، ويكاد ينفطر قلبي العجوز في كل مرة أضربه فيها. مثلما جاء في سِفر أيوب: *الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعبًا*، وإنني لأظن ذلك أيضًا. سيتغيب عن المدرسة هذا المساء، وسيتعين علي إجباره أن يعمل غدًا، كعقاب له. على الأغلب سيكون من الصعب أن أجعله يعمل أيام السبت، بينما يستمتع الصبية الآخرون بالإجازة، ومع ذلك فهو يكره العمل أكثر من أي شيء آخر، ويجب أن أقوم بواجبي تجاهه، وإلَّا فسأصبح أنا المُفسدة لهذا الصبي».

وبالفعل، تغيب توم عن المدرسة وقضى وقتًا جميلًا جدًّا، وعاد إلى المنزل في الموعد المفترض أن يساعد فيه جيم، وهو صبي أسود صغير، في نشر الخشب اللازم لليوم التالي وتقطيع الحطب إلى نصفين، قبل العشاء. على الأقل، فقد وصل في الموعد الذي يتيح له متسعًا كافيًا من الوقت ليحكي مغامراته لجيم، الذي قام بثلاثة أرباع العمل المفترض الانتهاء منه. كان شقيق توم الأصغر (أو بالأحرى أخوه غير الشقيق)، الذي يُدعى سيد (سيدني)، قد انتهى مما أُسند إليه من مهام (التقاط الرقاقات الخشبية). كان سيد فتًى هادئًا، ليس له مغامرات أو أساليب ملتوية.

بينما كان توم يتناول عشاءه، ويسرق مكعبات السكر كلما سنحت له الفرصة، ظلت خالته تطرح عليه أسئلة يملؤها المكر والخبث، إذ أرادت أن توقعه في الحديث وتعرف ما يخبئ من مصائب. لقد كانت خالته، مثل غيرها من ذوي القلوب الطيبة، تعتقد أنها تتمتع بدبلوماسية تنطوي على غموض وخبث، وكانت تنظر إلى خدعها المكشوفة باعتبارها عبقرية في الدهاء. سألته: «لقد كان الجو حارًّا في المدرسة، أليس كذلك يا توم؟».

«بالفعل سيدتي».

«كان شديد الحرارة، أليس كذلك؟».

«نعم يا سيدتي».

«ألم تكن تريد الذهاب للسباحة يا توم؟».

سرى الخوف في أوصال توم، فقد استشعر شكًّا أقلقه. حاول

أن يقرأ وجه خالته بولي ليفهم ما يدور بخلدها، لكن دون جدوى. فأجابها:

«لا يا سيدتي، ليس بدرجة كبيرة».

مدت السيدة العجوز يدها لتلمس سترة توم، وقالت:

«ومع ذلك، جسمك ليس ساخنًا إلى هذا الحد».

شعرت بالزهو لاكتشافها أن سترته كانت جافة دون أن ينجح أحد في اكتشاف ما كانت تخطط له، ومع ذلك فقد أدرك توم ما كانت ترمي إليه ومكر بها ليتجنب العواقب.

«لقد غسل بعضنا رأسه. انظري، لا يزال شعري مبتلًا، أليس كذلك؟».

انزعجت الخالة بولي أن غفلت عن ذلك الدليل الدامغ، وبذلك ذهبت حيلتها أدراج الرياح. إلَّا أن فكرة جديدة سرعان ما خطرت ببالها، فأعقبت:

«توم! لم تكن في حاجة إلى خلع ياقة قميصك التي حكتها لك من قبل حتى تغسل رأسك، هل خلعتها؟ فك أزرار سترتك!».

اختفى التوتر من وجه توم وفتح سترته. كانت ياقة قميصه مثبتة بإحكام.

«حسنًا، سأسايرك. إنني على يقين من أنك تغيبت عن المدرسة وسبحت، ولكنني سأسامحك يا توم. أؤمن بأن المظاهر خادعة، وأنك أفضل مما يبدو عليك».

كان جزء منها يشعر بالحزن لأن حيلتها ذهبت هباءً، بينما كان الجزء الآخر سعيدًا بأن توم قد انصاع للأوامر ولو لمرة واحدة.

قال سيدني:

«إن لم أكن مخطئًا فقد حكتِ ياقته بخيط أبيض، والخيط المحاك به ياقته الآن أسود».

«لقد حكته فعلًا بالأبيض! توم!».

إلَّا أنَّ توم كان قد اختفى، إذ خرج من الباب قائلًا:

«سأردها لك يا سِدي».

عندما وصل إلى مكان آمن، أمسك بإبرتين كبيرتين مثبتتين في طية سترته قد لُف خيطان حوليهما، أبيض حول الإبرة الأولى، وأسود حول الثانية، وقال:

«لم تكن لتلاحظ لولا سيد، لقد اختلط عليَّ الأمر، فهي تحيكه بالأبيض أحيانًا وبالأسود أحيانًا أخرى. يا إلهي، أتمنى لو أنها تستقر على أحد اللونين، لا أستطيع مسايرتها. لن أكون أنا توم إن لم أضرب سيد عقابًا له على هذه الفعلة».

إنه لم يكن الفتى المثالي في القرية، لقد كان يعرف الفتى المثالي جيدًا، وكان يكرهه.

خلال دقيقتين أو أقل، كان قد نسي كل شيء عن مشاكله، ليس لأن مشاكله كانت أيسر من أن يحمل همها، ولكن لأن أمرًا جديدًا قد أثار اهتمامه وأنساه همومه في تلك اللحظة، مثلما تُنسى مصائب

الرجال في غمرة التطلعات الجديدة. كان ذلك الاهتمام الجديد هو التصفير، الذي كان قد تعلمه أخيرًا على يد أحد السود. كان يحاول جاهدًا أن يمارس هذه الهواية الجديدة دون أن يزعجه أحد. كانت النغمة التي يحاول أن يتدرب عليها أشبه بتغريدة لأحد الطيور، وحتى يتمكن من إجادة هذه النغمة، كان عليه أن يلامس أعلى فمه بلسانه، وألا يفصلهما سوى لفترات وجيزة في منتصف النغمة. ربما يتذكر القراء قيامهم بذلك في طفولتهم. بعد مثابرة وتركيز، تمكن الفتى من إجادة النغمة سريعًا، وطاف في الشوارع وفمه يمتلئ بالنغمات وقلبه مفعم بالامتنان. كان أشبه برائد فضاء اكتشف كوكبًا جديدًا تملؤه سعادة صافية عميقة وقوية، إلَّا أن الصبي بالطبع هو من كان يشعر بهذا، وليس رائد الفضاء.

كانت ليالي الصيف طويلة، ولم يكن الوقت قد أظلم بعد. كان توم قد توقف عن الصفير حينما رأى فتى ضخم البنية كان قد وفد حديثًا إلى بلدته، وقد كان أي غريب، أيًا كان عمره أو جنسه، مثارًا للفضول في قرية سانت بطرسبرج الصغيرة البسيطة. كان الفتى أنيقًا، رغم أن ذلك اليوم كان في منتصف الأسبوع، وقد كان ذلك مدهشًا، إذ كانت القبعة التي يرتديها أنيقة، وكانت سترته المتقاربة أزرارها جديدة وشديدة الأناقة، وكذلك كان بنطالها، وكان يرتدي زوجًا من الأحذية، مع أن اليوم كان الجمعة، حتى أنه كان يرتدي رباط عنق؛ تحديدًا شريطًا لامعًا. أثارت رائحة المدينة التي كانت تفوح من الصبي حفيظة توم، وقد أخذ شعوره برثاثة ملابسه يتزايد أكثر فأكثر كلما نظر إلى الملابس الأنيقة التي يرتديها ذلك الفتى

العجيب. لم ينطق أيهما بكلمة، إلّا أنه كلما كان يتحرك أحدهما، كان الآخر يتحرك بمحاذاته، هكذا في دائرة. ظلا هكذا في مواجهة أحدهما الآخر بينما يحدقان إلى أحدهما الآخر طوال الوقت، حتى قال توم أخيرًا:

«يمكنني أن أسحقك!».

«أرني ماذا أنت فاعل».

«يمكنني أن أفعل ذلك».

«لا، لا يمكنك».

«بلى، يمكنني».

«لا، لا يمكنك».

«يمكنني».

«لا».

«بلى».

«لا».

صمت كلاهما لحظة، واكتنف كليهما إحساس بعدم الأريحية، ثم بادر توم:

«ما اسمك؟».

«على الأرجح، إن هذا الأمر لا يخصك».

«حسنًا، سأجعله يخصني».

«وما الذي يمنعك؟».

«سأفعل، إذا أكثرت من الكلام».

«ها أنا ذا أُكثر، ماذا أنت فاعل؟».

«ألا تعتقد أنك تعتد بنفسك كثيرًا؟ يمكنني أن أسحقك بيد واحدة، بينما الأخرى مربوطة وراء ظهري، إن أردتُ ذلك».

«وما الذي يمنعك ما دمت تقول إن الأمر بوسعك!».

«سأفعلها إذا عبثت معي».

«لقد حاول كثيرون من قبلك».

«متحاذق! تظن نفسك ذكيًّا، أليس كذلك؟ ما هذه القبعة!».

«إن لم تكن تعجبك، فلتشرب من البحر. أتحداك أن تسقطها، وأي شخص يتجرأ على ذلك سيلقى ما لا يرضى».

«أنت كاذب».

«وأنت أيضًا كاذب».

«أنت مدعٍ، ولا تستطيع العراك».

«فلتغرب عن وجهي!».

«اسمع، إذا تماديت في وقاحتك هذه، سألتقط حجرًا وأضرب رأسك».

«طبعًا، ستفعل ذلك!».

«نعم، سأفعل».

«حسنًا، ما الذي يمنعك إذًا؟ لماذا تظل تقول إنك ستفعل وستفعل؟ لم لا تفعل الأمر وتنتهي منه؟ لأنك خائف».

«أنا لست خائفًا».

«بلى».

«لا».

«بلى».

صمت كلاهما من جديد، وظلا يتبادلان النظرات ويحوم أحدهما حول الآخر، حتى تلامست أكتافهما، فقال توم:

«ارحل من هنا!».

«ولم لا ترحل أنت؟».

«لن أرحل».

«إذًا، لن أرحل أنا أيضًا».

وهكذا، وقفا وقد جعل كلاهما قدميه في وضع استعداد للقتال، وأخذا يتدافعان بعنف وقوة، بينما يتبادلان نظرات يملؤها الكره. إلَّا أن أيًا منهما لم يحرز تقدمًا على الآخر. وبعد أن أضناهما التعب حتى احترَّا واحمَّر وجهاهما، ارتخى كل منهما متخذًا حذره، وقال توم:

«إنك جبان صغير. سأخبر أخي الأكبر عنك، وسيطحنك بإصبعه الصغير، وسأجعله يفعلها».

«ما شأني وأخوك الأكبر؟ لي أخٌ أكبر من أخيك، بل وبإمكانه أن يلقي به من فوق ذلك السور أيضًا». (كلا الأخوان كانا من وحي الخيال).

«إنك تكذب».

«قولك إنها كذبة لا يجعلها كذبة».

رسم توم خطًا على التراب بإصبع قدمه الأكبر، وقال:

«أتحداك أن تتجاوز هذا الخط، وإلَّا فسأسحقك حتى لن تقوى على النهوض من مكانك. أي شخص سيجرؤ على تجاوز هذا الخط سيلعق التراب».

تجاوز الفتى الجديد الخط في الحال، وقال:

«الآن وقد قلت إنك ستفعل ذلك، لنرى ماذا أنت فاعل».

«لا تستفزني، الأفضل لك أن تكون حذرًا».

«لقد قلت إنك ستفعل ذلك، ما الذي يمنعك؟».

«سأفعلها مقابل سنتين».

أخرج الفتى الجديد عملتين نحاسيتين من جيبه ومد بهما يده إلى توم في استهزاء، فأسقطهما توم أرضًا. وفي لحظة، كان الفتيان يتدحرجان ويتشقلبان على الأرض، وقد أمسك أحدهما بتلابيب الآخر مثل القطط، وخلال دقيقة كانا قد مزَّق كل منهما شعر الآخر وملابسه، تضاربا وخدش أحدهما أنف الآخر، وكسا التراب وفخر المعركة جسديهما. وسط غموض سيطر على المشهد، ظهر توم من وراء ضباب المعركة جالسًا وقد أحكم قبضته على الفتى من الجانبين، مُنزلًا به ضربًا مبرحًا بقبضتيه.

قال توم: «هل اكتفينا!».

كان الفتى يجاهد من أجل أن يحرر نفسه، وكان يبكي من الغضب.

استمر الضرب، وهو يقول: «هل اكتفينا!».

أخيرًا، قال الغريب بصوت مختنق «يكفي!»، فتركه توم قائلًا:

«سيعطيك هذا درسًا أن تعرف مع من تعبث في المرة القادمة».

أخذ الفتى الجديد ينفض الغبار عن ملابسه، وهو يبكي ويشتم، بينما ينظر خلفه بين لحظة وأخرى وهو يهز رأسه متوعدًا توم بما سيلقاه منه في «المرة القادمة التي يراه فيها»، إلَّا أن تهديداته لم تلقَ سوى الاستهزاء من توم، الذي انطلق في اختيال وفرح. وما إن أدار ظهره، حتى رفع الفتى الوافد حديثًا حجرًا وألقاه، فأصاب توم بين كتفيه وأطلق ساقيه للريح هاربًا مثل ظبي وحشي. طارد توم هذا الخائن حتى وصل إلى منزله، فعرف أين يسكن. وهكذا، ظل مرابطًا عند البوابة، متحديًا عدوه أن يخرج، إلَّا أن العدو أبى الخروج وظل يصنع أشكالًا بوجهه من وراء النافذة. في النهاية، جاءت والدة العدو وأخذت تنعت توم بأنه فتًى سيئ، فاسد، بذيء وأمرته أن يبتعد. وعليه، فقد ابتعد، متوعدًا بأنه سيستكين حتى يتمكن من هذا الفتى.

وصل المنزل متأخرًا جدًّا تلك الليلة، وعندما تسلل عبر النافذة بحذر، وجد أن خالته قد نصبت له فخًا، وما إن رأت الحالة التي كانت عليها ملابسه حتى أصرت على قرارها بأن تحول يوم السبت الذي كان من المفترض أن يكون يوم إجازته إلى أعمال شاقة.

# ٢

أقبل صباح السبت ومعه أجواء الصيف المشرقة، المنعشة، المفعمة بالحياة. كان في كل قلب أغنية، فإذا كان القلب شابًا، ترددت الأغاني على الشفاه. أبشرت الوجوه ونبضت بالحيوية الخُطى. تفتحت أزهار أشجار الخروب، وملأ رحيقها الهواء. وفيما وراء القرية، كست الخضرة تلال كارديف، التي بدت بعيدة بما يكفي لأن تبدو مثل الجنة؛ حالمة، ساكنة، وجاذبة.

توجه توم ناحية الرصيف، ممسكًا بدلو يملؤه طلاء أبيض وبفرشاة طويل مقبضها، نظر إلى السور، فخبت داخله كل سعادة واستقر مكانها في روحه حزن عميق. كان السور عريضًا، ٣٠ ياردة بارتفاع ٩ أقدام. بدت له الحياة فارغة، وبدا البقاء على قيد الحياة حملًا. متنهدًا، غمس الفرشاة ومررها فوق اللوح الخشبي العلوي، ثم كرر العملية، وأعادها ثانية، نظر إلى تلك الأجزاء الصغيرة التي قام بطلائها ثم إلى الجزء الأكبر غير المطلي من السور، ثم جلس فوق أحد أحواض الشجر، مثبط الهمة. خرج جيم من الباب مسرعًا، حاملًا دلوًا من القصدير، وهو يغني «بنات بافالو». طالما كان إحضار

الماء من طلمبة القرية عملًا كريهًا في نظر توم قبل هذه اللحظة، أما الآن فلم يبدُ له عملًا مزعجًا بنفس القدر، فقد تذكر وجود رِفقة عند الطلمبة، إذ كان هناك دائمًا فتيات وفتيان سود وخلاسيين وبيض يستريحون، يتبادلون الألعاب، يتشاجرون، يتعاركون ويعبثون، في انتظار دورهم. وتذكر أنه على الرغم من أن الطلمبة كانت على بعد ١٥٠ ياردة، فإن جيم لم يكن يعود بدلو الماء قبل ساعة، وحتى مع ذلك فقد كانوا عادة ما يرسلون شخصًا وراءه. قال توم:

«ما رأيك أن تطلي جزءًا من السور وأن أذهب أنا لإحضار الماء».

هزَّ جيم رأسه، وقال:

«لا أستطيع يا سيد توم، لقد شدَّدت السيدة أن أذهب لإحضار الماء، وألا أتوقف أو أعبث مع أي شخص، لقد حذرتني من أن السيد توم سيطلب إليَّ طلاء الحائط، وأمرتني أن أمضي في طريقي وأن أهتم بشؤوني».

«لا تقلق مما تقوله أبدًا يا جيم، إنها دائمًا تردد أشياء من هذا القبيل، أعطني الدلو، ولن أغيب سوى دقيقة واحدة فقط. لن تدري بالأمر أبدًا».

«لا أستطيع يا سيد توم. ستقطم السيدة رقبتي، ستفعل ذلك حقًّا».

«السيدة! إنها لا تضرب أحدًا أبدًا، أقصى ما تفعله أن تنقر على الرأس بالكشتبان، وهذا ليس بضرب. إنها تؤنب كثيرًا، لكن الكلام لا يؤذي، على أية حال. سأعطيك شيئًا رائعًا يا جيم، سأعطيك بلية بيضاء!».

بدأ ثبات جيم يتزعزع.

«بلية بيضاء، يا جيم! ومن تلك البلي الرخامية التي تستخدم في الضرب».

«يا إلهي! إنه حقًّا شيء رائع! لكنني خائف جدًّا من السيدة».

«ليس هذا فقط، إذا فعلت ذلك، فسأريك إصبعي المدمول».

كان جيم بشرًا، وكانت تلك الإغراءات أكبر منه، فوضع الدلو، وأخذ البلية البيضاء، وانحنى فوق الإصبع باهتمام شديد بينما يفك توم الضمادة. وفي لحظة، كان الفتى الأسود يركض إلى الشارع ممسكًا بالدلو وهو يتأرجح وراءه، وكان توم يطلي السور بحماس، وكانت الخالة بولي عائدة من الحقل تحمل خفًّا في يدها ولمعة الانتصار في عينيها.

إلَّا أن حماس توم سرعان ما فتر، وما لبث أن بدأ يفكر في الاستجمام الذي كان يخطط له لذلك اليوم، فتضاعفت أحزانه. لن يمر وقت طويل حتى يتدفق الفتيان الأحرار من كل حدب وصوب، لينهالوا عليه بالسخرية بسبب اضطراره إلى العمل، وقد أحرقته هذه الفكرة مثل لسع النار. أخرج ثروته التي جناها من الدنيا وأخذ يتفحصها: أجزاء من ألعاب، وبلي، ومهملات؛ ما يكفي لمقايضة عمل آخر مع غيره، لكن ليس بما يكفي لأن يشتري نصف ساعة من الحرية الصافية. وهكذا، أعاد ثروته الضئيلة إلى جيبه، وتخلَّى عن فكرة محاولة شراء الفتيان. وفي لحظة اليأس السوداء تلك، هبط إليه وحي! وحي لا يمكن وصفه بأقل من رائع ومبهر.

أمسك فرشاته، واستأنف عمله بهدوء. تراءى بِن روجرز على

مقربة، أكثر من يخشى سخريته من الفتيان. كانت طريقته في المشي قفزًا أكثر منها سيرًا دليلًا كافيًا أن قلبه سعيد مستبشر. كان يأكل تفاحة، ويطلق صيحة طويلة، على فترات منتظمة، تعقبها نغمة عميقة، دينج دونج دونج دينج دونج دونج، فقد كان يقلد صوت باخرة. عندما اقترب من توم، أبطأ من سرعته. تابع المسير وسط الطريق، ومال ناحية اليمين ثم استدار ببطء وصعوبة، فقد كان يقلد باخرة «ميزوري الكبير»، وكان يرى أن الباخرة تقترب من منطقة في الماء عمقها تسعة أقدام. لقد كان الفتى هو الباخرة والقبطان والمحرك في آن واحد. لذلك، كان عليه أن يتخيل نفسه وقد وقف بمفرده فوق ظهر سفينته، يصدر الأوامر وينفذها:

«أوقفها، يا سيدي! تينج- اه- لينج -لينج!»، فكادت الباخرة أن تتوقف، بينما يتقدم الفتى ببطء ناحية الرصيف.

«السفينة إلى الوراء! تينج- اه- لينج -لينج!»، قالها وهو يشد ذراعيه إلى جانبيه.

«مؤخرة السفينة إلى الميمنة! تينج- آه- لينج -لينج! شو! ش- شو -شو! شو!»، وبدأ يرسم بيده اليمنى دوائر كبيرة تكفي لتمثيل استدارة ٤٠ قدمًا.

«إلى اليسار! تينج- آه- لينج- لينج! تشو- تش- تشو- تشو!»، وبدأ يرسم دوائر بيده اليسرى.

«أوقف الاستدارة إلى اليمين! تينج - آه- لينج -لينج! أوقف الاستدارة إلى اليسار! تقدم ناحية اليمين! أوقفها! أدرْ وجه السفينة ببطء! تينج- آه -لينج -لينج! تشو -وو -وو! بنشاط أكبر!».

استدر حول هذا الخليج! قف إلى جانب هذا المرسى، دعها الآن! أوقفت المحركات، يا سيدي! تينج- آه- لينج- لينج! شت! شت! (يحاول تقليد صوت محابس القياس).

استأنف توم طلاء السور، ولم يلقِ بالًا إلى الباخرة. حدَّق بِن لحظة، ثم قال: «أنت واقع في مأزق، أليس كذلك!».

لم يرد توم، ودقق النظر إلى لمسته الأخيرة بعين فنان، ومسح بفرشاته مسحة خفيفة وعاين النتيجة مرة أخرى. تقدم بِن نحوه. سال لعاب توم لدى رؤيته التفاحة، إلَّا أنه ظل منغمسًا في عمله. قال بِن:

«هل أنت مجبر على العمل؟».

التفت إليه توم فجأة، وقال:

«أهذا أنت يا بِن! لم ألحظ وجودك».

«أنا ذاهب إلى السباحة. ألا تتمنى لو أن باستطاعتك الذهاب أيضًا؟ لكن بالطبع عليك أن تعمل، أليس كذلك؟».

تأمل توم الفتى قليلًا، ثم قال:

«ما هذا الذي تسميه عملًا؟».

«أليس هذا عملًا؟».

استأنف توم الطلاء، وأجابه دون اهتمام:

«حسنًا، ربما يكون عملًا، وربما لا يكون عملًا. كل ما أعرفه، أنه يليق بتوم سوير».

«لا تقل إنك تحب هذا العمل».

ظل يحرك الفرشاة.

«أحبه؟ حسنًا، لا أرى السبب الذي يجعلني لا أحبه. هل تأتيني فرصة لطلاء سور كل يوم؟».

كانت هذه الجملة كافية لأن تغير مسار الأحداث. توقف بِن عن التهام تفاحته، بينما ظل توم يمسح بفرشاته باستمتاع إلى الأمام وإلى الخلف. تراجع خطوة إلى الوراء ليرى نتيجة عمله، ثم أضاف لمسة هنا وهناك، تفحص النتيجة مجددًا، بينما يراقب بِن كل حركة باهتمام متزايد، ثم قال:

«ما رأيك لو تركتني أساعد في الطلاء قليلًا يا توم؟».

فكر توم في الأمر، وكاد أن يوافق، إلَّا أنه عدل عن رأيه:

«لا، لا، لا أعتقد أن هذا ممكن يا بِن. كما ترى، فقد كانت الخالة بولي محددة جدًّا بشأن هذا السور، إذ إنه كما تعلم يطل على الشارع، ما كنت لأمانع لو كان السور الخلفي وما كانت لتمانع هي. إنها حقًّا كانت محددة جدًّا بشأن هذا السور، إذ يجب طلاؤه بحرص شديد، ولا أعتقد أن فتًى في الألف، أو ربما في الألفين، يمكن أن يطليه بالطريقة المُفترض أن يُطلى بها».

«لا، أحقًّا ذلك؟ بالله عليك يا توم، دعني أحاول فقط. جزء صغير فقط، كنت لأدعك تحاول لو كنت محلك يا توم».

«كان بودي حقًّا يا بن، لكن المشكلة في الخالة بولي، لقد أراد جيم أن يقوم بطلائه، لكنها لم تسمح له، وكذلك أراد سيد، ولم

تدعه أيضًا. ألا ترى أنني ملزم بالقيام بالأمر؟ إذا كان لك أن تتحمل مسؤولية هذا السور وكل ما يحدث له...».

«لا تقلق، سأكون حريصًا مثلك تمامًا. الآن دعني أحاول، وسأعطيك قلب تفاحتي».

«حسنًا، خذ.. لا يا بِن، أنا خائف..».

«سأعطيك التفاحة كلها!».

ترك له توم الفرشاة بعلامات اعتراض على وجهه وبفرحة تملأ قلبه. وبينما عكفت الباخرة المرحومة «ميزوري الكبير» على العمل تحت أشعة الشمس وهي تتصبب عرقًا، أوى الفنان المتقاعد إلى الظل وقد تدلت قدماه من فوق برميل قريب، وجلس يمضغ تفاحته وهو يخطط كيف يوقع بالمزيد من الأبرياء. لقد كان الفتيان مادة خصبة، كانوا يأتونه واحدًا تلو الآخر للسخرية، فما يلبثوا أن يبقوا ليقوموا هم بعملية الطلاء. لم يكد بِن ينُهك، حتى كان توم قد قايض بيللي فيشر على طائرة ورقية بحالة جيدة، مقابل أن يسمح له بالطلاء بعد بِن. عندما انتهى، كان جوني ميلر قد دفع مقابل دوره فأرًا ميتًا وخيطًا يمكن استخدامه في أرجحة الفأر. واستمر الوضع هكذا ساعة بعد أخرى. بحلول العصر، كان توم يتنعم في العز، بعد أن أضناه الفقر صباحًا. فإلى جانب ما سبق ذكره سلفًا، أصبح لدى توم ١٢ بلية، وقطعة من قيثار يهودي، وشقفة زرقاء من الزجاج الذي تصنع منه القناني باستطاعته النظر من خلالها، ومدفع لعبة، ومفتاح لا يصلح لفتح أي شيء، وقطعة طباشير، وسدادة

دورق زجاجي، وجندي مصنوع من القصدير، وزوج شراغف، و٦ مفرقعات نارية، وهرة بعين واحدة فقط، ومقبض باب مصنوع من النحاس، وطوق رقبة كلب -دون كلب-، ومقبض سكين، و٤ شرائح من قشر البرتقال، ومزلاج نافذة قديم محطم.

قضى توم وقتًا لطيفًا طيبًا في كسل، بصحبة كثيرين، وقد طُلي السور ٣ مرات بالدهان الأبيض! ولولا أن نفد الدهان الأبيض، لكان توم قد تسبب في إفلاس كل فتيان القرية.

قال توم لنفسه إن العالم ليس مكانًا محبطًا رغم كل شيء، فقد اكتشف قانونًا عظيمًا من قوانين الطبيعة الإنسانية، دون أن يعرف مسماه، وهو أنه من أجل أن تجعل رجلًا أو صبيًّا يشتهي شيئًا، ليس عليك سوى أن تُصعب الحصول عليه. إذا كان توم فيلسوفًا حكيمًا وعظيمًا، مثل مؤلف هذا الكتاب، لأدرك أن العمل هو كل ما يُلزم المرء بالقيام به، وأن اللهو هو كل ما لا إلزام على المرء للقيام به، وكان هذا ليساعده أن يفهم لمِ َيُعد تصنيع الزهور الصناعية أو تدوير المطحنة عملًا، بينما لعب البولنج أو تسلق الجبل الأبيض مجرد تسلية. في إنجلترا، تجد أثرياء يقودون عربات تجرها أربعة أحصنة، لعشرين أو ثلاثين ميلًا يوميًّا في الصيف، لأن الامتياز يكلفهم ثروة طائلة، ولو عُرض عليهم أجر مقابل تأدية ذلك، لتحول الأمر إلى عمل ولاستقالوا حينئذ.

مكث الفتى قليلًا، يتأمل التغير المحوري الذي طرأ على حياته، ثم ذهب إلى المقر الرئيسي ليقدم تقريره.

# ٣

توجه توم إلى الخالة بولي، التي كانت تجلس جوار نافذة مفتوحة في جناح خلفي يبعث على السرور ويتألف من غرفة نوم وغرفة لتناول الإفطار وثالثة لتناول العشاء ومكتبة. كان رأس الخالة بولي قد أخذ يتثاقل فوق ما تقوم بحياكته، من أثر نسيم الصيف المنعش، والهدوء المريح للأعصاب، وشذا الزهور، وطنين النحل الباعث على النوم، إذ لم يكن بصحبتها سوى القطة التي كانت قد نامت في حجرها، وقد ظلت نظارتها فوق رأسها الأشيب ثابتة بأمان. كانت تظن أن توم -قطعًا- قد ذهب تاركًا ما وراءه من عمل منذ وقت طويل، وقد تعجبت لرؤيته يضع نفسه تحت سلطتها هكذا مجددًا بكل بسالة، وهو يقول: «أيمكنني أن أذهب لألعب الآن يا خالتي؟».

«ماذا؟ بهذه السرعة؟ كم من العمل أنجزت؟».

«أنهيته كله يا خالتي».

«لا تكذب عليَّ يا توم، أنا لا أحب الكذب».

«أنا لا أكذب يا خالتي؛ لقد انتهيت منه».

لم تثق الخالة بولي بكلام توم، فخرجت لترى بعينها. كان ليرضيها أن تجد عشرين في المئة من السور مطليًّا، ولكنها عندما وجدت أن السور قد طُلي بأكمله، وليس مرة واحدة، بل مرتين وثلاثًا، وبإتقان، فضلًا عن طلاء جزء من الأرض، دُهشت حتى كادت تعجز عن النطق. ثم قالت:

«حسنًا، لَمْ..! عندما تضع أمرًا في رأسك، فإنك تنفذه يا توم. لا يمكنني إنكار ذلك». وفي محاولة لتدارك ما صدر عنها من ثناء بحقه، استطردت: «يتعين عليَّ القول إنك نادرًا ما تصمم على القيام بشيء. حسنًا، اذهب والعب، لكن هلَّا تفضلت وعدت مبكرًا. هذا وإلَّا سأسلخك».

ولشدة ما غمرها إنجازه العظيم، ذهبت فانتقت له تفاحة ممتازة من المطبخ وأعطتها له وهي تحدثه عن قيمة وعذوبة طعم المكافأة التي ينالها المرء عن استحقاق دون ارتكاب معصية. وبينما كانت تختتم حديثها باقتباس مبهج من الإنجيل، انتشل هو فطيرة محلاة.

انطلق توم إلى الخارج، ثم لمح في طريقه سِيد وهو يصعد السلم الخارجي المؤدي إلى غرف الطابق الثاني الخلفية، فانهال عليه بكتل من الطين اللزج، التي ما لبثت أن ملأت الهواء في طرفة عين، وسقطت فوق سِيد كعاصفة ثلجية. وقبل أن تتمكن الخالة بولي من استجماع شتات عقلها من هول المفاجأة، وتندفع لإنقاذه، كانت ست أو سبع كتل طينية قد أصابته، بينما قفز توم وراء السور واختفى. كان

بإمكانه أن يخرج عبر الباب، إلَّا أن الوقت كان يداهمه. خمدت النار التي كانت تشتعل داخل توم بعد أن سوى خلافه مع سِيد، الذي كان قد لفت انتباه خالته إلى مسألة الخيط الأسود، متسببًا في توريطه.

سار توم بمحاذاة المنزل حتى وصل إلى ممر ضيق موحل يقع في الجهة الخلفية من الحظيرة التي تحتفظ فيها الخالة بولي بالبقر، في مأمن من الحبس والعقاب. ومن ثم، انطلق تجاه الساحة العامة في القرية، حيث التقت سريتان «عسكريتان» من الصبية في معركة كان موعدها محددًا مسبقًا، وقد كان توم قائد أحد الجيشين، بينما كان جو هاربر (صديق مُقرب)، قائد الجيش الآخر. لم يحط القائدان العظيمان من قدريهما بأن يتعاركا شخصيًّا، لما يتمتعان به من مقام عالي الشأن وسط أتباعهما، وإنما جلسا معًا، في وجاهة، يديران العمليات الميدانية مصدرين أوامر يوصلها الياور. حقق جيش توم نصرًا عظيمًا، بعد معركة باسلة دامت طويلًا، حصروا الضحايا، وتبادلوا الأسرى، واتفق الطرفان على شروط المعركة القادمة وحددوا يوم المعركة المحتوم وفقًا للقواعد المعمول بها لدى الجيشين، وتقهقرت القوات، وعاد توم إلى منزله بمفرده.

بينما كان مارًّا بجوار المنزل الذي كان جيف ثاتشر يسكن فيه، لمح فتاة جديدة في الحديقة، حسناء صغيرة بعينين زرقاوتين وشعر أصفر قد انسدل في ضفيرتين طويلتين، ترتدي فستانًا صيفيًّا أبيض اللون وسروالًا داخليًّا طويلًا مطرزًا، فسقط البطل المتوج لتوه دون أن تُطلق رصاصة واحدة. مُحيت إيمي لورانس من قلبه، دون أن تُخلِّف وراءها ذكرى واحدة، كان يظن أنه يحبها بجنون، واعتبر

شغفه بها عشقًا، ويا للمفاجأة فقد كانت قصة حب لحظية ما أسرع أن تلاشت. نجحت محاولته التي امتدت لشهور في الفوز بها، حتى اعترفت له منذ أسبوع بمشاعرها، بعد عناء، فأصبح الفتى الأسعد والأكثر فخرًا في العالم على مدار هذه الأيام السبعة القصار. والآن، وفي لحظة، تلاشت من قلبه كأنها غريبٌ عابرٌ انتهت زيارته.

ظل يختلس النظرات إلى تلك الملاك الجديدة التي فتنته حتى كشفت أمره، فتظاهر بعدم ملاحظته لوجودها وأخذ «يستعرض» بكافة الأشكال الصبيانية السخيفة الممكنة، حتى ينال إعجابها. ظل على سخافته الحمقاء هذه بعض الوقت. ثم، بعد فترة وجيزة، في منتصف تقديمه عرضًا بهلوانيًّا خطيرًا، لمح الفتاة بطرف عينه وهي تشق طريقها ناحية المنزل، فتقدم نحو السور مستندًا إليه في حزن، متمنيًّا أن تبقى مدة أطول. توقفت الفتاة فوق الدرج لحظة، ثم تقدمت نحو الباب، وبينما تطأ قدماها المدخل، أطلق توم تنهيدة طويلة. إلَّا أن وجهه سرعان ما أشرق، إذ ألقت إليه الفتاة بزهرة بنفسج من فوق السور، قبل أن تختفي بلحظة.

ركض الفتى وتوقف على بعد قدم أو اثنين من الزهرة، وظلَّلَ عينيه بيده وأخذ ينظر إلى الأرض وكأنه وجد شيئًا مثيرًا للاهتمام في تلك الناحية. التقط قشة ووضعها فوق أنفه وأمال رأسه إلى الوراء حتى لا تقع القشة. ظل يتحرك من جانب إلى آخر، باذلًا كل جهده ألَّا تقع القشة، مقتربًا أكثر فأكثر من زهرة البنفسج، حتى وقف عليها بقدمه الحافية وأمسكها بأصابع قدمه المطواعة لِدقيقة، وأخذ يقفز بعيدًا بكنزه هذا حتى اختفى وراء الناصية وأخفى الزهرة

داخل سترته، بجانب قلبه، أو ربما معدته، فلم يكن ضليعًا في علم الأحياء ولم يكن ليمانع أن توضع في أي المكانين على أية حال.

عاد توم مجددًا، ومكث عند السور حتى حل الظلام، مؤديًّا «استعراضاته» مثلما فعل في المرة الأولى، إلَّا أن الفتاة لم تتبدَ مرة أخرى، فحاول توم طمأنة نفسه قليلًا بأمل أنها ربما كانت تراقبه من وراء نافذة. عاد كَرهًا إلى المنزل مشيًا، وقد ملأت الرؤى رأسه المسكين.

كان مِزاج توم معتدلًا طوال العَشاء، حتى أن خالته تساءلت: «ماذا دهى هذا الصبي؟». أَنَّبْته كثيرًا على ما فعله بسِيد، ولم يبدُ عليه أقل انزعاج. ثم حاول أن يسرق السكر على مرأى من خالته، فضربته على يده، فقال:

«إنكِ لا تضربين سِيد عندما يأخذه، يا خالتي».

«حسنًا، سِيد لا يضايق أحدًا مثلما تفعل أنت، ولولا أنني أراقبك فستظل تسرق من هذا السكر».

دخلت خالته إلى المطبخ، فمد سِيد يده إلى السُّكرية، مستمتعًا بما لديه من حصانة ومتباهيًا بما حققه من نصر شقَّ على توم تحمله، إلَّا أن أصابعه انزلقت وأسقط السُّكرية فتحطمت، فغمرت النشوة توم حتى أبقته صامتًا. قال لنفسه إنه لن ينطق بكلمة. حتى عندما تعود خالته، سيبقى هادئًا تمامًا حتى تسأل عن الفاعل، وحينها سيخبرها. لن يكون هناك شيء في العالم أجمل من ذلك. كانت السعادة تملؤه، وبصعوبة تمالك نفسه عندما عادت السيدة العجوز وقد تطاير شرر

الغضب من فوق نظارتها عندما رأت ما حدث، ثم قال لنفسه: «والآن، تعصف العاصفة!». في لحظة، كان توم مُلقًى على الأرض! وبينما ترفع خالته كفها الثقيلة لتضربه مجددًا، صاح:

«انتظري، لماذا تضربينني؟ سِيد هو من كسره!».

توقفت الخالة بولي وقد أصابتها الحيرة، بينما استعطفها توم. عندما تمكنت من الحديث مجددًا، لم تقل سوى:

«أف! حسنًا، لا أظن أنك تلقيت هذه الضربة ظلمًا، لقد أسأت التصرف بما فيه الكفاية أثناء غيابي».

شعرت بتأنيب الضمير، وودت أن تقول قولًا طيبًا ينطوي على محبة، إلَّا أنها رأت أن ذلك سيتم تأويله بأنه اعتراف بخطئها، وقد كان ذلك أمرًا مرفوضًا، وعليه فقد ظلت صامتة وتابعت ما كانت تقوم به بقلب مضطرب. زوى توم إلى ركن في عبوس، غارقًا في حزنه. لقد كان يعلم أن قلب خالته يعتصر من أجله، وقد كان إدراكه لذلك مدعاة إلى السرور. لم يكن ليُبدي أي انطباع أو يُظهر اهتمامًا بأي شيء. كان يشعر بنظراتها الضارعة الممتلئة بالدموع، من حين إلى آخر، إلَّا أنه رفض الاستسلام لها. تصور نفسه مستلقيًا في انتظار الموت، وقد أصابه المرض وانحنت فوقه خالته تتوسله أن يريحها بكلمة صفح واحدة، فيدير هو وجهه إلى الحائط ويموت دون أن يقول هذه الكلمة. كيف سيكون شعورها حينئذ؟ وتصور نفسه وقد أتوا به من النهر، ميتًا، وقد ابتل شعره المجعد وسكنت روحه المتألمة. كيف ستلقي بنفسها فوقه، وكيف ستنهمر دموعها

كالمطر، بينما تدعو شفتاها الله أن يعيده إليها وهي تتعهد أنها لن تعنفه ثانية، أبدًا أبدًا! لكنه يظل ملقًى على الأرض دون حراك وقد جفَّت عروقه وابيض وجهه، هذا الفتى الصغير البائس المتألم، الذي انتهت أحزانه. غرق توم في المشاعر التي حملتها المبالغة الدرامية لتلك الأحلام، حتى ترقرت عيناه بالدموع وكاد يختنق، فظل يبتلع ريقه إلى أن سقطت دموعه مع أول طرفة عين، وانحدرت من طرف أنفه. ولَّما كانت هذه المواساة ترفًا بالنسبة إليه، فلم يستطع تحمل أي حديث مفرح أو بهجة تزعجه، فقد كانت قدسية حزنه تمنعه من هذا النوع من التواصل، وهكذا عندما دخلت إليه ابنة خالته ماري متراقصة وقد امتلأت حيوية بفرحة رؤيتها المنزل مرة أخرى، بعد زيارة -بدت وكأنها دهر- امتدت أسبوعًا إلى المدينة، نهض وخرج حاملًا حزنه وكآبته من الباب، بعد أن جلبت هي معها البهجة والإشراق من الباب الآخر.

تجوَّل بعيدًا عن الأماكن المعتاد أن يتجول فيها الصبية، وبحث عن أماكن موحشة تتلاءم مع ما يشعر به، حتى وجد ملاذه في طوَّافة في النهر، فجلس على حافتها الخارجية، وتأمل الاتساع الموحش لتيار المياه، متمنيًا أن يغرق فورًا دون وعي ودون أن يمر بما يعقب ذلك الغرق من معاناة. فكر في زهرته، أخرجها، فوجدها قد تجعدت وذبلت، فازداد حزنًا ووحشة. تساءل إن كانت ستشفق عليه إذا علمت بحالته؟ هل ستبكي وتتمنى لو أن باستطاعتها أن تطوقه بذراعيها وتواسيه؟ أم أنها ستُعرِض عنه بجفاء مثل هذا العالم المحبط؟ جلبت عليه هذه الأفكار ألَمًا محببًا إلى قلبه، فظل يستعيدها

مرة بعد أخرى في رأسه، مبدلًا ترتيبها في سيناريوهات جديدة ومتعددة، حتى ابتذلها. ثم أخيرًا، نهض متنهدًا ومضى في الظلام.

بعد أن دقت الساعة منتصف التاسعة أو العاشرة، ذهب إلى الشارع المهجور، الذي تسكن فيه حبيبته المجهولة، توقف لحظة، لم يكن هناك أي صوت، كانت هناك شمعة تلقي بوهج خفيف على ستارة بإحدى نوافذ الطابق الثاني. هل كانت قداستها هناك؟ تسلق السور، شق طريقه متلصصًا بين النباتات، حتى وقف أسفل تلك النافذة، نظر إليها طويلًا بتأثر، ثم استلقى على ظهره تحت النافذة، وقد وضع يديه فوق صدره ممسكًا بزهرته الذابلة. هكذا سيموت، متلحفًا ببرد العالم، دون سقف يأويه، أو يد حنونة تمسح العرق الذي يتصبب من جبهته عند الموت، أو وجه محب ينحني فوقه بعطف عندما تأتيه سكرة الموت. وهكذا ستجده هي، عندما تنظر خارج النافذة لتستقبل الصباح المبهج و..! هل ستذرف دمعة لرؤيته على هذه الحالة، مسكينًا وقد فارق الحياة، هل ستتنهد لرؤيتها روحًا شابة مشرقة قد تحطمت بهذا الشكل المفجع قبل أوانها؟

فُتحت النافذة، ودنس صوت الخادمة الناشز الهدوء المقدس، وانسال فيضان من الماء فوق رفات الشهيد المستلقي!

انتفض البطل المعذب وانطلقت عنه شهقة، كان هناك صوت أزيز، يشبه ذلك الذي يصدر عن صاروخ، في الهواء، مختلطًا بصوت يتمتم بالشتائم، تبعه صوت يشبه اهتزاز زجاج وفتًى صغير يتسلق السور وينطلق في الظلام.

بعد فترة وجيزة، بدَّل توم ثيابه استعدادًا للنوم. وبينما يتأمل ملابسه المبللة على ضوء مصباح زيتي، استيقظ سِيد، الذي لو كانت لديه أية نية ولو صغيرة أن يقول أي تعليق، فقد عدل عنها مؤثرًا السلامة، فلم تكن عينا توم تبشر بخير.

دخل توم في فراشه، دون أن يؤدي صلاته، ودوَّنَ سِيد في رأسه هذا التفريط.

# ٤

أشرقت الشمس على عالم هادئ، ونشرت أشعتها وكأنها تُبارِك القرية الآمنة. مع تناولهم الإفطار، أدت الخالة بولي طقسها العائلي، بدأته بالصلاة والدعاء، وطعمته باقتباسات من الإنجيل، لتضفي عليه روحًا من الأصالة، واختتمته بآيات كئيبة من الوصايا الموسوية.

شمر توم عن ساعديه، إن جاز التعبير، وذهب إلى درس الدين. كان سِيد قد حفظ الآيات المفروضة عليه قبلها بأيام، أما توم فقد بذل كل جهده ليحفظ خمس آيات، واختار جزءًا من عظة الجبل لأنه لم يجد آيات أقصر منها. بعد نصف ساعة، كان لدى توم تصور ضبابي عام عن درسه، ليس أكثر من ذلك، إذ كان عقله يسبح في بحر التفكير الإنساني كله، وكانت يداه منشغلتين بألعاب قد شتتت انتباهه. أمسكت ماري بكتابه لتستمع إليه وهو يتلو ما حفظ من آيات، فحاول أن يتلمس طريقه وسط الضباب:

«طوبى للـ للـ».

«للمساكين».

«نعم، للمساكين، طوبي للمساكين.. أمم.. أمممم».

«بالروح..».

«بالروح، طوبي للمساكين بالروح، لأنهم.. لأنهم..».

«لأن لهم..».

«لأن لهم. طوبى للمساكين بالروح، لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى، لأنهم.. لأنهم..».

«يت..».

«لأنهم يت.. آآآ».

«يتع..».

«لأنهم يتع..، لا أعرف!».

«يتعزون!».

«يتعزون! لأنهم يتعزون، لأنهم يتعزون... آآآ، طوبى للودعاء، لأنهم، لأنهم يرثون، آآآآ، يرثون ماذا؟ لماذا لا تخبرينني يا ماري؟ لماذا تقسين عليَّ؟».

«يا توم، يا ذا الرأس الغليظ، أنا لا أحاول مضايقتك، لا يمكنني أن أضايقك، ولكن يجب أن تذهب وتحفظها مجددًا. لا تيأس، يا توم، ستتمكن من حفظها، وسأعطيك شيئًا جميلًا جدًّا إذا أتممت حفظها. هلم الآن، ولتكن فتى مطيعًا».

«حسنًا، أخبريني ماذا ستعطيني يا ماري، أخبريني».

«لا تقلق يا توم، طالما قلت إنه شيء جميل، فسيكون جميلاً».

«حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فسأحاول مجددًا يا ماري».

وبالفعل، تحت الضغط المضاعف الذي حمله الفضول والفوز المرتقب، تمكن من حفظ الآيات بحماس منقطع النظير.

أعطته ماري مطواة جديدة ماركة بارلو قيمتها ١٢ سنتًا ونصف، واختلج قلبه بسعادة سرت في أوصاله حتى النخاع. صحيح أن السكين لن يصلح لقطع أي شيء، لكنه كان قطعًا ماركة بارلو، وكان ذلك فخر لا يضاهيه فخر. إن الأسطورة المسيطرة على فتيان الغرب إن سلاحًا كهذا يزيف الجروح لغز عظيم، لا يعرف أحد من أين أتى، وربما سيظل هكذا إلى الأبد. تظاهر توم بأنه يُحدِث خدوشًا بالخزانة، مستخدمًا المطواة، وكان يرتب لأن يفعل الشيء نفسه بالمكتب، إلَّا إنه نُودي ليرتدي ملابسه استعدادًا للذهاب إلى مدرسة يوم الأحد.

أعطته ماري وعاءً من القصدير وقطعة صابون، فخرج من الباب ووضع الوعاء فوق مصطبة صغيرة هناك، وغمس الصابون في الماء وتركه، ثم شمَّر عن ساعديه، وسكب الماء بلطف على الأرض، ثم دخل المطبخ وبدأ يمسح وجهه جيدًا بالمنشفة التي كانت وراء الباب، فجذبت ماري المنشفة وقالت:

«ألا تخجل من نفسك يا توم. لا يجب أن تكون متعبًا هكذا. الماء لن يؤذيك».

فاضطرب توم، ومُلِيء الوعاء من جديد، ولكن هذه المرة وقف توم وسط الوعاء قليلًا، مستجمعًا شجاعته، ثم أخذ نفسًا عميقًا

وشرع في الاغتسال. عندما دخل المطبخ هذه المرة، مغلقًا عينيه، متلمسًا المنشفة بيديه، كانت رغوة الصابون والمياه تتساقطان من وجهه كدليل مشرِّف على اغتساله. إلَّا أنه عندما نزع المنشفة عنه لم يكن راضيًا عن النتيجة، إذ لم ينجح سوى في تنظيف ما فوق ذقنه وفكيه، فأصبح كأنه يرتدي قناعًا تحته رقعة سوداء من الطين المتحجر امتدت حتى رقبته،

وغطتها من الأمام ومن الخلف. فأمسكت ماري بيده، وبعد أن فرغت من تنظيفه كان شعره المغسول بعناية قد مُشط وضُبطت خصلاته المتجعدة بأناقة فأصبحت جميعًا على شاكلة واحدة. (عندما أصبح بمفرده، بسط خصلات شعره المجعدة، بمجهود وعناء، وجعل شعره لِصق رأسه، إذ كان يعتبر الشعر المجعد خاصًّا بالإناث فقط، وكان شعره المجعد يُمِرُّ عليه حياته). ثم أخرجت ماري بذلة، من بين ملابسه التي لم يرتدها على مدار عامين سوى أيام الآحاد، كان يُطلق عليها ببساطة «ملابس أخرى»، ومن ذلك يمكننا أن نتخيل حجم خزانته. عدَّلت الفتاة من هندامه بعد أن ارتدى ملابسه، وزررت سترته الأنيقة حتى ذقنه، وثنت ياقة قميصه الكبيرة فوق كتفيه، ونفضت ملابسه، وتوجته بقبعته المرقطة المصنوعة من القش حتى بدا أنيقًا إلى أقصى درجة وغير مرتاح إلى أقصى درجة أيضًا، فقد كان يشعر بعدم ارتياح بقدر ما بدا عليه بالضبط، إذ كان يضيق ذرعًا بمسألة الملابس والنظافة التي فرضت عليه، وكان يأمل أن تنسى ماري أمر حذائه، إلَّا أن أمله قد خاب، فقد صقلت حذاءه بالورنيش، كما جرت العادة، ووضعته خارجًا، ففقد أعصابه

واعترض على إجباره دائمًا أن يفعل جميع الأشياء التي لا يريد القيام بها، إلَّا أن ماري أخبرته بطريقة مقنعة:

«من فضلك يا توم، كن فتًى مطيعًا».

فارتدى حذاءه مزمجرًا، وبعد فترة وجيزة تهيأت ماري، وانطلق الأطفال الثلاثة إلى مدرسة يوم الأحد، المكان الذي كرهه توم من صميم قلبه، وأغرم به سِيد وماري.

كانت ساعات الدراسة في المدرسة الدينية تمتد من التاسعة حتى العاشرة والنصف، يليها القداس. كان الأخيران يبقيان دائمًا لسماع العظة طوعًا، أما الأول فكان يبقى لأسباب أقوى. كانت مقاعد الكنيسة، عالية الظهر غير المبطنة، تكفي ثلاث مئة شخص، لم تكن الكنيسة أكثر من مبنًى صغير بسيط، يعلوه ما يشبه حوض شجر، مصنوع من ألواح من خشب الصنوبر، مخصص لبرج الكنيسة. عند الباب، تراجع توم خطوة إلى الوراء وبادر رفيق أيام الآحاد المتأنق:

«قل لي يا بيللي، هل معك تذكرة صفراء؟».

«نعم».

«ماذا تريد في المقابل؟».

«ماذا ستدفع؟».

«طوفي وخطاف صيد».

«دعني أراهم».

عرضهم أمامه، وقد كانوا كافيين لإرضائه، فأتمَّا عملية المقايضة،

ومن ثم قايض توم بليتين من اللون الأبيض مقابل ثلاث تذاكر حمراء، وبعض الطوفي الصغير وما هو على شاكلته مقابل تذكرتين زرقاوين. استوقف فتيان آخرين لدى قدومهم، واستمر في بيع تذاكر بمختلف الألوان لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة أخرى. دخل الكنيسة، وسط حشد من فتيان وفتيات تبدو عليهم النظافة ويصدر عنهم إزعاج، مضى نحو مقعده وبدأ في مشاجرة أول فتًى وقع تحت يده. تدخل المعلم، الذي كان كبر السن والوقار باديين عليه. فور أن أدار ظهره، جذب توم شعر أحد الفتيان الجالسين في المقعد المقابل، وتظاهر بالاستغراق في كتابه قبل أن يلتفت إليه الفتى، ودسَّ دبوسًا في فتًى آخر، فجعله يتأوه، فزجره معلمه مرة ثانية. كان زملاء توم جميعًا على شاكلة واحدة، متململين، كثيري الضجة ومزعجين. عندما حان الوقت لتلاوة الآيات، لم يكن أي منهم حافظًا لها عن ظهر قلب، وكانوا بحاجة إلى تلقينهم طوال فترة التلاوة. ظلوا متوترين طوال فترة التلاوة، إلَّا أن كل واحد تلقى مكافأته، التي كانت عبارة عن تذاكر زرقاء صغيرة كُتب عليها مقطع من الإنجيل، كانت كل تذكرة زرقاء تُمنح نظير كل آيتين تتم تلاوتها. وكانت كل عشر تذاكر زرقاء تعادل واحدة حمراء، ويمكن تبديلهم مقابلها، وكانت كل عشر تذاكر حمراء تعادل واحدة صفراء، ومقابل كل عشر تذاكر كان الناظر يعطي إنجيلًا صغيرًا جدًّا للطالب (كان يعادل أربعين سنتًا في تلك الأيام اليسيرة). مَن مِن القُراء لديه القدرة والاستعداد أن يحفظ ألفي آية، حتى مقابل إنجيل «دوري» الذي يحتوي على رسوم؟ ومع ذلك، تمكنت ماري من الحصول على إنجيلين بهذه الطريقة، كان

ثمرة عمل صبور امتد عامين، فيما فاز فتى من أصول ألمانية بأربعة أو خمسة أناجيل. لقد تمكن ذات مرة من تلاوة ٣ آلاف آية دون توقف، إلَّا أن الضغط العصبي الذي تعرض له كان كبيرًا، فصار من يومها كم به بله، كانت مصيبة ثقيلة الوطأة على المدرسة، إذ إن الناظر كان دائمًا ما يجعل هذا الفتى يخرج و«يفرد نفسه» أمام زملائه (كما عبَّر توم)، في المناسبات الكبيرة. لم يكن سوى الطلبة الأكبر سنًّا هم من تمكنوا من الحفاظ على تذاكرهم والمواظبة على عملهم الممل أطول فترة ممكنة حتى يحصلوا على الإنجيل، وعليه فقد كان الحصول على واحدة من هذه الجوائز أمرًا نادر الحدوث وجديرًا بالذكر، كان من ينجح في ذلك من الطلاب ينال من المكانة العظيمة والشهرة، في ذلك اليوم الذي تسلط عليهم الأضواء، ما يحرك قلب المعلم بطموح متجدد يمتد أسبوعين. بدا الأمر لو أن توم لم يطمح أبدًا إلى واحدة من تلك الجوائز، إلَّا أن قلبه دون شك قد تاق إلى المجد والشهرة أكثر من مرة.

عندما حان الوقت، وقف الناظر أمام المِنبر، وفي يده كتاب ترانيم مغلق قد وضع سبابته بين طياته، وأمرهم بالانتباه. عندما يلقي ناظر المدرسة الدينية خطبته الصغيرة المعتادة، فإن إمساكه بكتاب ترنيمات أمر حتمي مثله مثل النوتة الموسيقية في يد المغني الذي يقف على المسرح منفردًا في حفل، والسبب وراء ذلك مجهول، إذ إن أيًّا منهما لا يلجأ إليها أبدًا. كان الناظر رجلًا نحيفًا في الخامسة والثلاثين من عمره، بلحية وشعر قصيرين رمليِّ اللون، وكانت ياقة قميصه متخشبة؛ كادت حافتها العليا تصل إلى أذنيه، فيما تقوست أطرافها الحادة إلى

الأمام بمحاذاة جانبي فمه كما لو أنها سياج يجبره على النظر إلى الأمام وعلى الالتفاف بسائر جسده إذا كانت هناك حاجة إلى النظر جانبًا، استقرت ذقنه فوق رباط عنق كبير؛ طويل وعريض كورقة بنكنوت وله شراريب عند الحواف، وكانت مقدمة حذائه مقوسة إلى أعلى، فيما يشبه الزلاجات، لتساير الموضة. وقد أصبحت على هيئتها هذه بصبر الشباب وجهدهم الجهيد في الجلوس واضعين أصابع أقدامهم في مقابلة الحائط لساعات. بدت على السيد والترز سيماء الجدية؛ كان صادقًا وأمينًا، اعتصم بأشياء وأماكن مقدسة بحكم موقعه، وفصل هذه الأشياء عن الأمور المادية، إلى درجة أنه دون وعي بنفسه كان صوته يكتسب طابعًا مختلفًا في أيام الآحاد يختفي تمامًا في باقي أيام الأسبوع، وكان يبدأ حديثه بهذه الطريقة:

«الآن، يا أولاد، أريدكم أن تقفوا معتدلي القامة وبأفضل طلة قدر استطاعتكم، وأن تعيروني كامل انتباهكم لدقيقة أو اثنتين. بالضبط، هكذا. هكذا يكون الفتيان والفتيات. أرى فتاة صغيرة تتطلع خارج النافذة، أخشى أنها تظن أنني في مكان ما بالخارج، ربما فوق شجرة ألقي خطبتي على العصافير الصغيرة. (ضحك تهليل). أود أن أخبركم كم تسعدني رؤية هذا العدد من الوجوه الصغيرة، النظيفة، المشرقة، مجتمعة في مكان كهذا، يتعلمون فعل الخير ليكونوا صالحين»... وما إلى ذلك. ليس ضروريًا تدوين بقية الخطبة.

كان نموذجًا لا يتبدل، وعليه فقد ألفناه جميعًا.

شاب الثلث الأخير من الخطبة مشاجرات ومشاغبات مستمرة،

وسط مجموعة من الفتيان المشاغبين، وهمس وتململ امتد طولًا وعرضًا، زاحفًا تحت الصخور المنعزلة التي لا سبيل إلى اختراقها مثل سيد وماري. إلَّا أن جميع الأصوات هدأت فجأة، مع خفوت صوت السيد والترز، واستقبلوا ختام خطبته بدفقة من امتنان غير ملفوظ.

كان وفود الزائرين، وهو أمر نادر الحدوث بدرجة أو بأخرى، سببًا في قدر كبير من الهمس، إذ إن المحامي ثاتشر قد جاء وبصحبته حفنة من كبار السن الذين بلغوا من العمر أرذله، مع رجل نبيل في منتصف عمره، بشعر فضي فضية الحديد، يبدو عليه الرقي والهيبة، وسيدة يبدو عليها الوقار، لا ريب أنها زوجة الأخير، تتقدم طفلًا. ظل توم يتململ ويتحرك في مكانه ويتأفف، ومع ذلك فقد كان متيم الوجدان؛ لم تلتقِ عيناه بعيني إيمي لورانس، إذ لم يستطع تحمل نظرتها المملوءة بالحب، إلَّا أنه عندما رأى هذه الوافدة الجديدة، امتلأت روحه بالسعادة في لحظة. وفي اللحظة التالية، بدأ في «استعراضاته» بكل ما أوتي من قوة، فكبل الفتيان وجذب شعورهم وصنع أشكالًا بوجهه، باختصار كان يمارس كل أنواع الفنون التي بدا من المحتمل أن تأسر فتاة وتكسب رضاها.

لم يفتر من همته سوى ذكرى المهانة التي تعرض لها في حديقة هذه الملاك، إلَّا أن هذه الذكرى المحفورة على الرمال بدأت تنحسر سريعًا، تحت أمواج السعادة التي تلقي بنفسها فوقها الآن.

تم تخصيص المقاعد الأعلى مقامًا للزائرين، وقدمهم السيد والترز إلى المدرسة فور أن انتهى من خطبته، واتضح أن الرجل

متوسط العمر شخصية بارزة على نحو استثنائي، إذ تبين أنه قاضي المقاطعة، وقد كان أكثر الشخصيات التي التقاها هؤلاء الأطفال مهابة، حتى أنهم جميعًا تساءلوا من أي شيء قد خُلق، وأراد نصفهم أن يسمعوا صوته وهو يصيح، فيما أشفق النصف الآخر أن يحدث هذا، وقد كان من القسطنطينية، الواقعة على بعد اثني عشر ميلًا، ما يعني أنه قد سافر ورأى العالم وأن هاتين العينين قد نظرتا إلى قاعة المحكمة التابعة للمقاطعة التي كان يُقال أن سقفها من القصدير، وزاد الصمت والأعين المتطلعة من الهيبة التي فرضتها هذه الصور الذهنية. كان هذا القاضي العظيم هو ثاتشر، شقيق محاميهم. تقدم جيف ثاتشر فورًا، حتى يكون إلى جانب هذا الرجل العظيم ويحظى بغبطة المدرسة تجاهه. على الأرجح، فقد كان وقع الهمس أشبه بالموسيقا على قلبه:

«انظر إليه، يا جيم! إنه يصعد إلى هناك. انظر! سيصافحه، إنه يصافحه! يا إلهي، ألا تتمنى لو كنت جيف؟».

أخذ السيد والترز هو الآخر في «الاستعراض»، مستعينًا في ذلك بكافة أشكال الأنشطة والرسميات، مُلقيًا الأوامر ومُصدرًا الأحكام ومعطيًا التوجيهات هنا وهناك؛ إذ استطاع أن يجد له في كل مكان هدفًا. و«استعرض» أمين المكتبة بالركض هنا وهناك حاملًا كتبًا ملء ذراعيه، محدثًا جلبة باضطرابه وطريقته السريعة غير المفهومة في الحديث، مبالغًا في ذلك مبالغة من يتمتعون بتضخيم قدر المسؤوليات الضئيل الملقى على عاتقهم. و«استعرضت» المعلمات الشابات بانحنائهن في عذوبة فوق رؤوس الطلبة، الذين كانوا

يُلكمون قبل قليل، وبرفعهن أصابع جميلة محذرة للمشاغبين من صغار الفتيان، وبتربيتهن على المطيعين بحب. و«استعرض» المعلمون الشبان بالتأنيب الخفيف وممارسة السلطة وإبداء اهتمامهم الشديد بالانضباط، ووجد أغلب المعلمين، من الجانبين، ذريعة للتواجد في المكتبة بالطابق العلوي، إلى جانب المنبر، وأيًّا كان ما استقروا على فعله فقد كرروه مرتين وثلاثًا (والتركيز الشديد بادٍ على وجوههم). و«استعرضت» الفتيات الصغيرات بطرق متنوعة، و«استعرض» الفتيان الصغار بجهد بالغ حتى امتلأ الهواء بحشايا الورق وهمهمات المشاجرات. وفوق كل هذا، جلس الرجل العظيم وابتسم ابتسامة قضائية ملكية إلى كل من بالمكان، ودفَّأ نفسه في شمس جلال ذاته، فقد كان «يستعرض» هو الآخر.

لم يبقَ سوى أمر واحد حتى تكتمل نشوة السيد والترز، وقد كان هذا الأمر هو الفرصة لتسليم الجائزة، الإنجيل، والكشف عن المعجزة. لم يكن بحوزة الطلاب سوى عدد صغير من التذاكر الصغيرة، ولم يكن لدى أي منهم ما يكفي، وعليه ظل يدور حول الطلبة المتميزين متسائلًا. كان ليفعل أي شيء الآن في سبيل أن يستعيد هذا الفتى الألماني مرة أخرى بعقل سليم.

والآن في هذه اللحظة التي مات فيها الأمل، تقدم توم سوير ومعه تسع تذاكر صفراء، وتسع تذاكر حمراء، وعشر تذاكر زرقاء، وطالب بالحصول على إنجيل، وقد كان هذا بمثابة صاعقة تضرب من سماء صافية، إذ لم يكن يتوقع والترز أن يحدث هذا حتى بعد عشرة أعوام قادمة، إلَّا أنه لم تكن هناك طريقة للتحايل على المسألة،

فقد كانت الشيكات الموثقة موجودة، وكان الأمر في صالحهم لتبييض وجوههم.

وهكذا، صعد توم حتى يتسنى له أن يكون في حضرة القاضي والصفوة الآخرين، وتم إعلان الخبر العظيم؛ لقد كانت المفاجأة الأكثر إدهاشًا في العِقد، وقد كان الإحساس عميقًا جدًّا بأن هذه المفاجأة قد رفعت البطل الجديد إلى مرتبة القاضي نفسها، وأصبح داخل المدرسة أعجوبتان يتطلعون إليهما بدلًا من واحدة. ملأ الحسد الفتيان جميعًا، إلَّا أن الفاجعة الكبرى وقعت على أولئك الذين أدركوا متأخرًا جدًّا أنهم أنفسهم هم من ساهموا في منحه هذا التألق المكروه بإعطائه التذاكر مقابل الثروة التي قام بجمعها عندما منحهم امتياز دهان السور. لقد احتقر هؤلاء أنفسهم، لأنهم كانوا الطرف الساذج في عملية احتيال خبيثة نفذها ثعبان ماكر مندس وسط الحشائش.

تلقى توم الجائزة، وعبَّر الناظر عن سعادته، التي خلت من مشاعر حقيقية، بقدر ما تحتمله الظروف، إذ إن فطنة الرجل التعس نبهته إلى وجود أمر غامض في المسألة لم يكن مهيئًا خروجه إلى النور، ربما، ببساطة لأنه من المستحيل لهذا الفتى أن يكون قد حفظ ألفي حكمة من الإنجيل بمفرده؛ إن اثنتا عشرة حكمة كانت لتثقل كاهله، دون شك.

شعرت إيمي لورانس بالفخر والسعادة، وحاولت أن تجعل توم يرى ذلك على وجهها، إلَّا أنه لم ينظر إليها. تأملته، ثم اضطربت، واعتراها شك سرعان ما تلاشى ليعاودها مجددًا، راقبته، وكانت

نظرة واحدة خاطفة كافية لأن تخبرها بكل شيء. تحطم قلبها، شعرت بالغيرة والغضب، انهمرت الدموع وكرهت الجميع. وكرهت توم أكثر من الجميع (هكذا فكرت).

تم تعريف القاضي بتوم، الذي انعقد لسانه وأخرج أنفاسه بصعوبة وارتعش قلبه، وقد كان جزء من ذلك بسبب هيبته ولكن بشكل أساسي لأنه كان والدها. لكم ودَّ أن يجثو ويقدم إليه احتراماته، لو لم يكن أحد يراه. وضع القاضي يده فوق رأس توم وقال له إنه فتًى صغير ممتاز، وسأله عن اسمه. فتلعثم الفتى وانقطع نفسه ثم أخبره باسمه:

«توم».

«آه، لا، إنه ليس توم، إنه..».

«توماس».

«بالضبط. لقد خمنت أن للاسم بقية. حسن جدًّا. لكن، أعتقد أن لديك اسمًا آخر ستخبرني به، أليس كذلك؟».

قال والترز: «أخبر السيد باسمك الآخر، يا توماس، واحفظ الألقاب. لا يجب أن تنسى آداب الحديث».

«توماس سوير، يا سيدي».

«هذا هو المطلوب! إنه فتًى جيد. فتًى ممتاز. حسنًا، أيها السيد الصغير. إن ألفي آية كثير جدًّا، كثير جدًّا بحق، ولا يمكنك أن تندم على المشقة التي عانيتها لحفظهم، إذ إن قيمة المعرفة أكبر من أي شيء آخر في العالم، إنها هي التي تصنع العظماء والصالحين، سوف تصبح

أنت نفسك رجلًا عظيمًا وصالحًا يومًا ما يا توماس، وستتذكر هذا اليوم وتقول: إن كل هذا بفضل ما تميزت به مدرسة الأحد العزيزة في طفولتي، كل هذا بفضل أساتذتي الأعزاء الذين درسوا لي، كل هذا بفضل الناظر الطيب، الذي شجعني ورعاني ومنحني إنجيلًا جميلًا، إنجيلًا أنيقًا رائعًا، لأحتفظ وأحظى به لنفسي دائمًا، كل هذا بفضل التربية الصحيحة! هذا ما ستقوله يا توماس، ولن تأخذ أي مقابل مادي جزاء حفظك الألفي آية. والآن إن كنت لا تمانع، أخبرنا أنا والسيدة ببعضٍ مما تعلمت، أعلم أنك لن تمانع، إذ إننا نفخر بالفتيان الصغار المجتهدين. الآن، لا شك أنك تعلم أسماء الحواريين الاثني عشر جميعًا. هل أخبرتنا أسماء أول اثنين ذكرا منهم؟».

أخذ توم يجذب عروة سترته وقد بدا عليه الارتباك. احمر خجلًا، وطأطأ رأسه. وغاص قلب السيد والترز.

قال لنفسه، من المستحيل أن يجيب الفتى سؤالًا بهذه البساطة، لماذا سأله القاضي؟ ومع ذلك، فقد شعر بأنه مجبر على أن يتحدث ويقول:

«أجب السيد، يا توماس. لا تخف».

ظل توم صامتًا.

قالت السيدة: «أنا أعلم أنك ستخبرني. كان اسما أول حواريين».

«ديفيد وجالوت!».

لنسدل الستار على ما تبقَّى من المشهد، من باب الشفقة.

# ٥

بعد العاشرة بنصف ساعة تقريبًا، بدأ جرس الكنيسة الصغير المتصدع يُقرع وبدأ الناس في الاحتشاد من أجل عِظة الصباح. امتلأت أرجاء الكنيسة بتلاميذ مدرسة الأحد، الذين اتخذوا مجالسهم إلى جانب آبائهم حتى يبقوا تحت أعينهم. وصلت الخالة بولي، وجلس برفقتها توم وسِيد وماري، وقد جلس توم على مقعد إلى جانب الممر، حتى يكون بعيدًا قدر الإمكان عن النافذة المفتوحة، وما وراءها من مناظر صيفية مغوية. امتلأت المقاعد بالحشود؛ مدير مكتب البريد العجوز المعدم الذي تدهور وضعه، والعمدة وزوجته، فقد كان لمدينتهم أيضًا عمدة، من بين أشياء أخرى لم تكن ضرورية، وقاضي الصلح، والأرملة دوجلاس الحسناء الذكية البالغة من العمر أربعين عامًا الكريمة طيبة القلب ميسورة الحال التي كان قَصْرها الواقع عند التل هو القصر الوحيد في القرية والأفضل في حسن الضيافة والأكثر بهرجة عند إقامة الاحتفالات الذي يمكن لسانت بطرسبرج أن تتباهى بها، والبِكْباشِي رفيع الشأن محني الظهر والسيدة وارد، والمحامي ريفرسون أحد الأعيان

الوافدين من أقاصي البلاد، ثم حسناء القرية، متبوعة بسرب من الصبايا محطمات القلوب، المتأنقات في ملابس كتانية مزينة بأشرطة. وجميع الموظفين الكتابيين الشباب في القرية، الذين وقفوا في الرواق يعضون على شفاههم، في إعجاب لزج والابتسامة تملأ وجوههم، ولم يبرحوا مكانهم حتى مرت آخر فتاة، وكان آخر من وصل هو الفتى النموذجي ويلي مافيرسون الذي أبدى عناية فائقة بأمه كما لو كانت قطعة زجاج. كان دائمًا يأتي بوالدته إلى الكنيسة، وقد كان فخر جميع السيدات. كرهه جميع الفتيان لأنه كان صالحًا. وإلى جانب هذا، فقد كان دائمًا ما يُضرب به المثل. كان منديله الأبيض يتدلى خارج جيبه، كعادته أيام الآحاد. لم يكن لدى توم منديل، وكان ينظر إلى من لديه منديل من الفتيان باعتباره متغطرسًا.

الآن وقد اجتمع الحشد بأكمله، دق الجرس مرة أخرى، لتنبيه المتلكئين والمتباطئين، فَسادَ الكنيسةَ صمتٌ لم يكسره سوى ضحكات وهمسات الجوقة، القادمة من المسرح، فقد كانت الجوقة دائمة الضحك والهمس أثناء عملها. منذ أعوام عديدة مضت، تواجدت جوقة كنسية لم تكن وقحة، لكنني نسيت الآن أين كانت، وبالكاد أستطيع تذكر أي شيء عنها، لكنني أظن أنها كانت في بلد أجنبي.

قام القس بتوزيع الترنيمة، وقرأها باستمتاع وبأسلوب متميز كان يلقى إعجابًا كبيرًا في هذا الجزء من البلاد. بدأ بنبرته العادية، ثم أخذ صوته يرتفع بثبات حتى وصل عند نقطة خرج فيها صوته

مفخمًا عند الكلمة الأسمى ثم انخفض كما لو أنه سقط من فوق مِنط:

هل سأُحمل إلى السماء، فوق فراش من الزهور بينما يحارب آخرون من أجل الحصول على الغنيمة، ويبحرون في الدماء؟

كان معروفًا بأنه قارئ رائع. كانوا يدعونه دائمًا إلى المناسبات الاجتماعية الخاصة بالكنيسة لقراءة الشعر، وعندما كان ينتهي، كانت السيدات ترفع أيديها وتتركها تسقط بعجز في حجورها، تشخص أبصارها، وتهز رؤوسها، كناية عن أن «الكلمات لا يمكن أن تعبر عن هذا الجمال؛ جمال لا يتناسب مع هذه الأرض الفانية».

بعد غناء الترنيمة، تقدم السيد سبراج، القس، إلى لوحة إعلانات وقرأ ما عليها من إعلانات خاصة بالاجتماعات والمناسبات الاجتماعية وأشياء أخرى، حتى بدا وكأن هذه القائمة ستمتد حتى تنشقَّ السماء مؤذِنة بقدوم يوم القيامة. لقد كانت عادة غريبة لا يزال معمولًا بها في أمريكا، حتى في المدن، هنا بعيدًا في هذا العصر الذي تتوافر فيه الصحف. في الغالب، كلما قلَّت الأسباب وراء تقليد معتاد، ازدادت صعوبة التخلص منه.

قام القس بالدعاء، وقد كان دعاءً زكيًّا غامرًا، تعمَّق في التفاصيل: دعا للكنيسة، ولأطفال الكنيسة الصغار، للكنائس الأخرى في القرية، للقرية نفسها، للمقاطعة، للولاية، للعاملين في الولاية، للولايات المتحدة، لكنائس الولايات المتحدة، لمجلس النواب، للرئيس، للعاملين في الحكومة، للبحارة المساكين الذين

تطرحهم البحور العاصفة، لملايين المستضعفين المتألمين تحت أقدام الملكيات الأوروبية واستبداد الشرق، لأولئك الذين يتمتعون بالنور والبشارة، وليس لديهم أعين يرون بها أو آذان يسمعون بها، للكافرين في جزر البحار البعيدة، خاتمًا دعواه بأن يُستجاب له وأن تكون دعواه بذرة قد غُرست في الأرض الخصبة تثمر حصادًا طيبًا مقرًّا بالنعمة. آمين.

كانت الفساتين تحدث حفيفًا بينما يجلس الحشد. لم يستمتع الفتى، الذي يسرد هذا الكتاب تاريخه بالصلاة، وقد كان يصطبر عليها فقط، هذا إن كان حقًّا قد وصل إلى هذه المرحلة. كان ضجرًا طوال الصلاة وظل يراجع ما يُقال فيها دون وعي، ورغم أنه لم يكن يستمع، فإن الصلاة وطريقة القس في تأديتها كانت تجري على نفس النحو كل مرة، وعندما كان يُضاف إليها أمر جديد وإن كان ضئيلًا، كان يلتقطه بأذنه ويضجر به سائر جسده؛ اعتبر هذه الإضافات ظلمًا وتعذيبًا. وفي وسط الصلاة، وقفت ذبابة على ظهر المقعد المقابل له وعذبت روحه بتنظيف يديها معًا، وضم رأسها بذراعيها وتلميعها بقوة شديدة حتى بدت وكأنها على وشك الانفصال عن جسدها بينما ينكشف الخيط الرفيع الذي هو رقبتها أثناء ذلك، وحك جناحيها بقدميها الخلفيتين وبسطهما كأنهما ذيلا معطف، وقضاء حاجتها بكل هدوء كما لو أنها تعلم أنها آمنة تمامًا. وقد كانت بالفعل آمنة، إذ بقدر ما حكته يداه، لم يجرؤ توم أن يمسك بها، إذ اعتقد أن روحه ستعطب فورًا إذا قام بشيء كهذا في أثناء الصلاة. إلَّا أنه مع الجملة الختامية، بدأ كفاه يتقوسان ويتسللان إلى

الأمام، وفي اللحظة التي نُطقت فيها «آمين»، كانت الذبابة أسيرة حرب، إلَّا أن خالته كشفت فعلته وجعلته يطلق سراحها.

بدأ القس في خطابه برتابة عن مسألة جدلية مملة جدًّا جعلت الرؤوس تتثاقل واحدة تلو الأخرى، ومع ذلك فقد كانت هذه المسألة الجدلية مليئة بصور نار مستعرة وكبريت حتى بدا أن الحفنة المقدر مسبقًا أن تدخل الجنة لا تستحق عناء أن تنجو، لقلتها. أحصى توم عدد صفحات العظة؛ كان دائمًا ما يكون على علم بعدد صفحات العظة دون أن يعرف شيئًا آخر عن الخطبة. ومع ذلك، فقد انتبه جدًّا هذه المرة لفترة قصيرة، إذ رسم القس صورة عظيمة محركة للمشاعر عن التآخي في الأبدية حيث يسكن الذئب مع الخروف، ويرعاهما صبي صغير، إلَّا أن المشاعر والدرس والقيمة الأخلاقية من هذا المشهد العظيم ضاعت عند هذا الفتى الذي لم يكن يفكر سوى في ظهور الشخصية الرئيسية أمام هذه الأمم التي تتطلع إليه، وامتلأ وجهه إشراقًا بسبب هذا الخاطر، متمنيًا في نفسه لو استطاع أن يكون هذا الصبي، حال كان الأسد أليفًا.

ما لبث أن استؤنف الجدل الممل وغرق الفتى في معاناته مجددًا قبل أن يخطر إلى باله أحد الكنوز التي يمتلكها، فأخرج خنفساء سوداء كبيرة بفكين مرعبين كان يطلق عليها اسم «الخنفساء القارصة»، وكان يضعها في غطاء كبسولة بارود. فور أن أخرجها، عضت إصبعه. وقعت الخنفساء على ظهرها في الممر، ووضع الفتى إصبعه المتألم في فمه، بينما ظلت الخنفساء في مكانها تحاول تحريك

قدميها الضعيفتين، غير قادرة أن تعتدل على بطنها. أبقى توم عينيه عليها، في توقٍ، ولكنها كانت آمنة بعيدًا عن متناول يده. وجد آخرون ممن لم يكن لديهم اهتمام بالخطبة ملاذهم في الخنفساء، ولاحقوها هم أيضًا بأعينهم. ما لبث أن أتى كلب ضال من نوع بودل متسكعًا، متثاقلًا، ومتكاسلًا بفعل هواء الصيف والهدوء، وقد تعب من وضعه آملًا أن يتبدل الحال. ما أن لمح الخنفساء، حتى وقف ذيله واهتز بعد أن كان متدليًا. راقبها، دار حولها، تشممها من مسافة آمنة، دار حولها مجددًا، تشجع، تشممها عن قرب، ثم رفع شفته وحاول أن يمسك بها بحذر شديد، فأخطأها، حاول مجددًا، ومجددًا. بدأ يستمتع بهذه الهجمات، واستلقى على بطنه والخنفساء بين مخالبه. استمر في محاولاته حتى تعب في النهاية وفتر حماسه وشرد ذهنه. بدأ رأسه يتثاقل، ورويدًا رويدًا تدلت ذقنه ولامست العدو الذي انقض عليه.

أطلق الكلب البودل عواءً عاليًا، وأخذ رأسه يهتز بقوة حتى طارت الخنفساء على بعد ياردتين واستقرت في نهاية الممر مجددًا.

ابتهج الجلوس القريب المراقبون للوضع في كياسة، فاختبأت وجوه عديدة وراء مراوح اليد والمناديل، وكان توم في قمة سعادته. بدا الكلب غبيًّا، وربما شعر هو أيضًا بذلك، ومع هذا فقد شعر بالاستياء في قلبه وتملكته رغبة في الانتقام. ومن ثم، سار ناحية الخنفساء وبدأ يهاجمها مجددًا بحذر، وأخذ يدور حولها في دائرة ويقفز عليها من كل جانب، مثبتًا مخالبه الأمامية على بعد منها، ومنقضًّا عليها بأسنانه عن

قرب أكثر، ومحركًا رأسه حتى اصطفقت أذناه. ثم ما لبث أن أصابه التعب مجددًا بعد فترة، فحاول الالتهاء بذبابة فلم يجد فيها راحته، فتبع نملة مقربًا أنفه من الأرض، ثم ما لبث أن تعب من هذا أيضًا. تثاءب، وتنهد، ونسي أمر الخنفساء تمامًا وجلس فوقها. خرجت عن الكلب صيحة ألم حادة وانطلق راكضًا عبر الممر بينما هو مستمر في عوائه. اجتاز المنزل المواجه للمذبح، وانطلق راكضًا عبر الممر الآخر، مرَّ من أمام الأبواب، مستمرًا في عواءه، بينما يتزايد ألمه مع كل خطوة، حتى أصبح أشبه بمذنب برَّاق يغطيه الفرو ويسير في مداره بسرعة الضوء. أخيرًا، انحرف المتألم الهائج عن مساره، واندفع نحو حِجر سيده، الذي ألقى بالخنفساء خارج النافذة، وخفت صوت الألم واختفى في الأفق (بعيدًا).

في تلك اللحظة، كانت الكنيسة بأكملها قد احتقن وجهها بضحك مكتوم حتى كادت تختنق وتوقفت الخطبة. عندما استؤنفت الخطبة بعد ذلك كانت قد أصبحت سخيفة وغير مشجعة، وكان كل أمل في الإبهار قد انقطع، حتى أن أفظع المشاعر قد قوبلت بضحكات غير محمودة قد انفجرت بعد كتمانها من وراء ظهور المقاعد البعيدة، كما لو أن الكاهن المسكين قد قال شيئًا مضحكًا، وهكذا شعر الحشد بارتياح كبير عندما انتهت هذه المأساة وبارك القس الحضور.

عاد توم سوير إلى المنزل بسرور كبير، مفكرًا في أن بعض التغيير في الصلاة قد أرضاه نوعًا ما. لم يكن يفكر سوى في فكرة واحدة

شريرة، وهي أن كلبهم ينبغي أن يلعب مع خنفسائه، إلا أنه لم يجد في نفسه القدرة على تنفيذ ذلك.

# ٦

استقبل توم سوير يوم الاثنين وهو بائس، إذ كان دائمًا ما يستقبل يوم الاثنين هكذا، فقد كان بداية أسبوع آخر من المعاناة البطيئة في المدرسة. كان عادة ما يبدأ هذا اليوم متمنيًا لو أنه لم تكن هناك إجازة، فقد كانت الإجازة تجعل العودة إلى الأسر والقيود مرة أخرى أكثر بغضًا بكثير.

أخذ توم يفكر في أنه يتمنى لو أنه كان مريضًا فيصبح بإمكانه البقاء في المنزل بعيدًا عن المدرسة. كان هذا احتمالًا ممكنًا. تفقد جسده، فلم يجد به اعتلالًا. أعاد فحصه مجددًا، وفي هذه المرة خطر له أن بإمكانه أن يكتشف بوادر مغص، فبدأ يستحث الأعراض بأمل كبير، إلَّا أن الأعراض بدأت تنحسر حتى اختفت تمامًا. قلَّب الأمر أكثر، وفجأة اكتشف شيئًا؛ كانت إحدى أسنان فكه العلوي الأمامية ملخلخة، وقد كان هذا من حسن الطالع، كان على وشك أن يبدأ في التأوه، كبداية، إلّا أنه استدرك أنه إذا ذهب إلى خالته بهذا الادعاء، فسوف تخلعها وسيؤلمه هذا. وقرر أنه سيؤجل حيلة

السِّنة في الوقت الحالي ويبحث عن شيء آخر. لم يخطر على باله شيء لوهلة، ثم تذكر أنه استمع إلى الطبيب وهو يتحدث عن أمر جعل مريضًا طريح الفراش لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع مهددًا باحتمالية أن يفقد إصبعه. متحمسًا للفكرة، أخرج الفتى إصبعه المدمول من تحت الغطاء ورفعه ليتفحصه، إلَّا أنه لم يكن يعرف الأعراض المصاحبة. ومع ذلك، بدا أن الأمر يستحق التجربة، وعليه استسلم للتأوهات بكل وجدانه.

إلَّا أن سِيد كان نائمًا ولم يكن واعيًا بشيء.

تأوه توم بصوت أعلى، وتخيل أنه بدأ يشعر بألم في إصبع قدمه.

لم يطرف سِيد.

بدأ توم يلهث من التعب. استراح قليلًا ثم تحامل على نفسه وخرجت عنه سلسلة أخرى من التأوهات المثيرة للإعجاب.

استمر سِيد في الشخير.

سخط توم، وأخذ ينادي «سِيد، سِيد!» وهو يهزه. وقد نجحت هذه الحيلة، فبدأ توم يتأوه مجددًا. تثاءب سِيد، وتَمطَّى، ثم استلقى فوق مرفقه وهو يشخر، ثم بدأ يحدق إلى توم. استمر توم في التأوه. فقال سِيد:

«توم، توم!» (لا يرد) «توم، توم! ما الأمر، يا توم؟» ثم هزه وهو ينظر إلى وجهه بقلق.

تأوه توم:

«آه، لا تفعل ذلك يا سِيد. لا تهزني».

«لماذا، ما الأمر يا توم؟ يجب أن أنادي خالتي».

«لا، لا تقلق. سيكون كل شيء على ما يرام بعد قليل، ربما. لا تنادي أحدًا».

«لكن يجب أن أفعل ذلك! لا تتأوه هكذا يا توم، إنه مروع. كم بقيت على هذه الحالة؟».

«ساعات. آه! آه، لا تهزني هكذا يا سيد، ستقتلني».

«توم، لماذا لم توقظني باكرًا؟ أوه، يا توم، لا تتأوه! إني أتألم لسماع تأوهاتك. توم، ما الأمر؟».

«إني أسامحك على كل شيء يا سِيد. (آهة). كل شيء فعلته بحقي. عندما أموت..».

«أوه! إنك لا تُحتضَر يا توم، أليس كذلك؟ لا، توم، أوه، لا. ربما..».

«إني أسامح الجميع، يا سِيد. (آهة). أخبرهم بذلك يا سِيد. سِيد، أعطِ مزلاج النافذة وقطتي ذات العين الواحدة إلى الفتاة الجديدة التي وفدت إلى القرية وأخبرها..».

إلَّا أن سِيد كان قد جذب ملابسه وخرج. كان توم يتألم بحق، فقد كانت مخيلته تعمل على نحو رائع، وعليه فقد اكتسبت تأوهاته طابعًا حقيقيًا.

انطلق سِيد هابطًا الدرج، وهو يقول:

«أوه، خالتي بولي، تعالي! توم يُحتضر!».

«يُحتضر!».

«نعم، يا سيدتي. لا تبقي هكذا، تعالي بسرعة!».

«هراء! لا أصدق هذا الأمر!».

ورغم ذلك، فقد صعدت الدرج مسرعة، وسِيد وماري في عقبيها، وقد ابيض وجهها وارتعشت شفتاها. عندما وقفت إلى جانب الفراش، صاحت:

«توم، توم! ما خطبك؟».

«آه يا خالتي، أنا..».

«ما خطبك، ما خطبك يا فتى؟».

«آه يا خالتي، إصبع قدمي المتورم أصابته غرغرينة!».

سقطت السيدة العجوز على كرسي وضحكت قليلًا، ثم بكت قليلًا، ثم اختلط الضحك بالبكاء. ثم لملمت شتات نفسها وقالت:

«لقد أفزعتني يا توم. الآن توقف عن هذه الترهات وانهض من السرير».

توقفت التأوهات واختفى الألم من إصبع قدمه، فشعر الفتى بالحماقة، وقال:

«خالتي بولي، لقد بدا وكأن غرغرينة أصابته، وآلمني جدًّا حتى ألهاني عن سِنتي».

«سِنتك، حقًّا! ما خطب سنتك؟».

«إحداها ملخلخة، وتؤلمني جدًّا».

«حسنًا، حسنًا، لا تبدأ في التأوه مجددًا. افتح فمك. حسنًا، سنتك ملخلخة، لكنها لن تقتلك. ماري، ناوليني خيط حرير وقطعة جمر من المطبخ».

قال توم:

«أوه، من فضلك يا خالتي، لا تخلعيها. إنها لم تعد تؤلمني. فليصبني الشلل إن كانت تؤلمني. من فضلك يا خالتي. لا أريد أن أتغيب عن المدرسة».

«أوه، لا تريد ذلك حقًّا؟ ألهذا أحدثت كل هذه الجلبة، لأنك ظننت أنك بذلك ستتغيب عن المدرسة وتذهب للصيد؟ توم، توم، إني أحبك جدًّا، ولكن يبدو أنك تحاول بكل الطرق أن تكسر قلبي العجوز بهذه التصرفات المخزية». كانت الأدوات اللازمة لخلع السنة قد أصبحت جاهزة عندئذ، فربطت السيدة العجوز أحد طرفي الخيط الحريري في سنة توم وربطت الطرف الآخر في عمود السرير. ثم أمسكت بقطعة الجمر ودفعت بها تقريبًا في وجه الصبي. السنة الآن متدلية من الخيط على عمود السرير.

لكن لكل مصيبة عِوض؛ عندما ذهب توم إلى المدرسة بعد الإفطار، كان موضع حسد جميع الفتيان الذين التقاهم لأن الفراغ الذي تركته سنته في فكه العلوي مكنته من البصق بطريقة جديدة مثيرة للإعجاب. ونجح في أن يجتذب حوله مجموعة من الفتيان الذين استمتعوا بعرضه، بينما وجد أحد الصبيان، الذي كان إصبعه

قد قطع وكان حتى تلك اللحظة مركز الاهتمام والإجلال، نفسه فجأة دون أتباع، وتجرد من مجده. كان قلبه حزينًا، وقال دون وعي بازدراء أن بصاق توم سوير ليس أمرًا مبهرًا، إلَّا أن أحد الفتيان رد عليه: «قصر ذيل»، فمضى الأول بعيدًا وقد أصبح بطلًا منسيًّا.

بعد فترة وجيزة، التقى توم فتى القرية المنبوذ، هكلبري فِن، ابن سكير البلدة. كانت جميع أمهات البلدة تبغضن هكلبري وتخشينه إلى أقصى درجة، لأنه كان كسولًا ومتمردًا وبذيئًا وفاسدًا، ولأن جميع أطفالهم كانوا يعجبون به جدًّا ويُسرُّون بعالمه المحظور، وكانوا يتمنون أن يتجرءوا ويصبحوا مثله. كان توم مثل بقية الفتيان المهذبين، لذا كان يغبط هكلبري جدًّا على هذا الوضع المنبوذ. كانت لديه أوامر صارمة بألَّا يلعب معه، وعليه كان يلعب معه في كل مرة تسنح له الفرصة. كان هكلبري دائمًا مرتديًا ملابس قديمة بالية لرجال أكبر منه في العمر، وكانت الملابس دائمًا ما يكون عليها طبقة من التراب وتتدلى منها أسمال بالية. كانت قبعته ضخمة بالية يتدلى من حافتها هلال كبير، وكان معطفه، عندما كان يرتدي معطفًا، يصل إلى كعبي قدميه وكانت الأزرار الخلفية للمعطف تصل إلى أسفل ظهره. كان لديه حمالة بنطال، وكان حجر بنطاله يتدلى -فارغًا من أي شيء- إلى أسفل، بينما يتدلى ذيل البنطال المهدب في الوحل إن لم يكن مشمرًا إلى أعلى.

كان هكلبري يأتي ويذهب، بكامل حريته. كان ينام على أعتاب الأبواب عندما يكون الجو معتدلًا، وفي داخل البراميل الفارغة في الأيام الرطبة؛ لم يكن مضطرًّا إلى أن يذهب إلى المدرسة أو إلى

الكنيسة، أو أن يخاطب أحدًا بلقب سيدي أو أن يطيع أحدًا، كان بوسعه الذهاب للصيد أو السباحة متى وأينما يشاء، وكان بإمكانه أن يبقى قدر ما يشاء، لم يكن يمنعه أحد من العراك، وكان بوسعه أن يسهر قدر ما يشاء، كان دائمًا أول من يخلع نعليه في الربيع وآخر من يعاود ارتداء الجلد في الخريف، لم يكن مضطرًّا إلى أن يغتسل، أو إلى أن يرتدي ملابس نظيفة، وكان بإمكانه السب ببراعة. باختصار، كان هذا الفتى يتمتع بكل ما يجعل للحياة قيمة. هكذا كان يظن كافة فتيان سانت بطرسبرج المهذبين المقيدين مكتوفي الأيدي.

حيَّا توم المنبوذَ الحالم:

«كيف حالك، يا هكلبري!».

«أفضل منك».

«ماذا تحمل؟».

«قطًّا ميتًا».

«دعني أراه يا هاك. يا إلهي، إنه متخشب جدًّا. من أين حصلت عليه؟».

«اشتريته من أحد الفتيان».

«ماذا أعطيته في المقابل؟».

«أعطيته تذكرة زرقاء ومثانة كنت قد حصلت عليها من محل الجزارة».

«من أين حصلت على التذكرة الزرقاء؟».

«اشتريتها من بِن روجرز منذ أسبوعين مقابل طوق هولا-هوب».

«قل لي، بماذا سيفيدك قط ميت يا هاك؟».

«بماذا سيفيدني؟ سيفيدني في معالجة البثور».

«لا! أحقًّا هذا! أعرف علاجًا أفضل».

«أراهنك أنه ليس أفضل. ما هو ذلك العلاج؟».

«ماء جذوع الأشجار».

«ماء جذوع الأشجار! لا أقايضه ولو بقرش».

«فعلًا؟ هل جربته من قبل؟».

«لا، لم أجربه. لكن بوب تانر جربه».

«من قال لك هذا!».

«لقد أخبر جيف ثاتشر، وجيف أخبر جوني بيكر، وجوني أخبر جيم هوبيز، وجيم أخبر بِن روجرز، وبِن أخبر فتًى زنجيًّا، والزنجي أخبرني. فقط!».

«حسنًا، وإن يكن. جميعهم يكذبون، على الأقل الزنجي، أنا لا أعرفه، لكني لم أرَ زنجيًّا لا يكذب أبدًا. الآن أخبرني كيف فعلها بوب تانر يا هاك».

«وضع يده في جذع شجرة عفن حيث تجمعت مياه الأمطار».

«بالنهار؟».

«بالتأكيد».

«ووجهه في مواجهة الجذع؟».

«نعم. على الأقل هذا ما أظنه».

«هل قال شيئًا وهو يفعل ذلك؟».

«لا أعتقد أنه فعل ذلك. لا أعلم».

«آها! إن هذه الطريقة ما هي إلَّا محاولة حمقاء لمعالجة البثور بالماء المتجمع في جذوع الشجر! إنها لن تنجح بالتأكيد. يجب أن تذهب بمفردك تمامًا، إلى قلب الغابة، حيث تتجمع مياه الأمطار في جذوع الشجر، وعند حلول منتصف الليل تقف في مواجهة الجذع وتحشر يدك داخله وتقول:

«حبة الشعير، يا حبة الشعير، أكلٌ هنديٌّ قليل، ماء مطر غزير، ماء مطر غزير، ابتلعي هذه البثور، ثم تبتعد سريعًا، ١١ خطوة، وعيناك مغلقتان، ثم تدور ٣ مرات وتسير إلى منزلك دون أن تتحدث إلى أي شخص. لأنك إذا تحدثت ستنكسر التعويذة»».

«حسنًا، تبدو طريقة جيدة، لكنها ليست الطريقة التي اتبعها بوب تانر».

«قطعًا لم يتبع هذه الطريقة، لأنه الفتى الذي لديه أكبر قدر من البثور في البلدة، وإذا كان يعرف كيف يستخدم الماء المتجمع في جذوع الأشجار، فلن تكون لديه بثرة واحدة. لقد عالجت آلاف البذور التي كانت على يدي بهذه الطريقة يا هاك. إنني ألعب مع الضفادع كثيرًا إلى درجة تجعل عندي عددًا كبيرًا جدًّا من البثور. في بعض الأحيان أتخلص منها بحبة فول».

«نعم، الفول جيد. لقد استخدمته من قبل».

«حقًّا؟ كيف تستخدمه؟».

«تمسك بحبة الفول وتقسمها إلى نصفين، وتشق البثرة حتى يخرج منها دم، ثم تضع الدم على نصف حبة الفول وتأخذها وتحفر حفرة وتدفنها قرب منتصف الليل في مفترق طرق في الظلام، ثم تحرق بقية الحبة. وهكذا، ستظل القطعة التي عليها الدم تجذب القطعة الأخرى مُحاوِلةً استدراجها إليها، وبهذا تساعد الدم أن يجذب البثرة، وسرعان ما تختفي».

«نعم، بالضبط هكذا يا هاك، هذه هي الطريقة، ومع ذلك فإذا دفنتها وأنت تقول: فلتنزلي أيتها الفولة، ولتختفي أيتها البثرة، ولا تأتي مجددًا وتزعجيني، فيسكون أفضل. هذه هي الطريقة التي يتبعها جو هاربر، وهو الذي ذهب إلى أحياء الزنوج وإلى كل بقعة تقريبًا. لكن قُل لي كيف تعالج البثور باستخدام القطط الميتة؟».

«تأخذ قطتك وتذهب بها إلى المدافن قرب منتصف الليل، بعد دفن أحد الأشخاص الأشرار. عندما ينتصف الليل، سيأتي شيطان، وربما اثنان أو ثلاثة، لكنك لن تستطيع رؤيتهم، يمكنك فقط سماع صوت أشبه بالريح، أو ربما ستسمعهم يتحدثون، وعندما يأخذون هذا الشخص بعيدًا، تلقي بقطتك وراءهم وتقول: فليتبع الشيطان الجيفة، ولتتبع القطة الشيطان، ولتتبع البثور القطة، لقد سئمتك!، وسينتزع هذا البثرة».

«تبدو طريقة صحيحة. هل جربتها من قبل يا هاك؟».

«لا ولكن الأم العجوز هوبكنز أخبرتني».

«حسنًا. إذًا أعتقد أنها الطريقة الصحيحة، لأنهم يقولون إنها ساحرة».

«حقًّا مثلما تقول يا توم، أنا أعرف أنها ساحرة. لقد سحرت أبي. أبي نفسه يقول ذلك. شاهدها ذات يوم وهي تسحره، فالتقط صخرة، ولو لم تتفاداها لأصابها، وبالفعل خرج في تلك الليلة إلى حيث يسكر، وكسر ذراعه».

«يا إلهي، ياله من أمر مؤسف. كيف عرف أنها كانت تسحره؟».

«كان بإمكانه أن يكتشف ذلك بسهولة، إذ يقول أبي إنهم يسحرونك عندما يبقون أعينهم عليك بثبات، وبخاصة إذا كانوا يتمتمون بشيء، لأنهم عندما يتمتمون يقولون صلوات الله بالعكس».

«قل لي يا هاكي متى ستذهب لتجرب القط؟».

«الليلة. أعتقد أنهم سيأتون وراء العجوز هوس ويليامز الليلة».

«لكنهم دفنوه أمسِ، ألم يأخذوه ليلة السبت؟».

«ما هذا الذي تقوله! كيف يمكن لسحرهم أن يؤدي مفعوله قبل منتصف الليل؟ ثم إن اليوم هو الأحد، والشياطين لا تطوف كثيرًا أيام الآحاد، لا أعتقد ذلك».

«لم أفكر في ذلك من قبل. هكذا إذًا. أيمكنني أن أذهب معك؟».

«بالطبع، إذا لم تكن خائفًا».

«خائف! على الإطلاق. هل ستقلد صوت القطة عندما تناديني؟».

«نعم، ولترد عليَّ إذا سنحت لك فرصة. في المرة الأخيرة، جعلتني أقلد صوت القطة حتى خرج العجوز هايز وألقى عليَّ أحجارًا وهو يلعن القطط، فألقيت حجرًا مرَّ من نافذته، لكن لا تخبر أحدًا».

«لن أخبرَ أحدًا. لم أستطع تقليد صوت القطة تلك الليلة، لأن خالتي كانت تراقبني، لكنني سأرد عليك بمواء هذه المرة. قل لي، ما هذا؟».

«مجرد قُرادة».

«من أين حصلت عليها؟».

«من الغابة».

«ماذا تأخذ مقابلًا لها؟».

«لا أعرف، أنا لا أريد بيعها».

«حسنًا، إنها قرادة صغيرة عجوزة على أية حال».

«أوه، أي شخص يقلل من أي شيء لا يملكه. أنا راضٍ بها. إنها قرادة جيدة بما فيه الكفاية بالنسبة إليَّ».

«فلتصمت، يوجد قراد كثير. يمكنني أن أحصل على ألف منهم إن أردت».

«ولم لا تفعل ذلك؟ لأنك تعرف جيدًا أنك لا تستطيع. إن هذه قرادة يافعة جدًّا في رأيي. إنها الأولى التي أراها هذا العام».

«ماذا تقول يا هاك، سأعطيك سنتي مقابلًا لها».

«دعني أراها».

أخرج توم قطعة ورق صغيرة وفتحها بحرص. نظر إليها هكلبري باهتمام. كان الإغراء قويًّا جدًّا، فقال في النهاية:

«هل هي حقيقية؟».

رفع توم شفته فبرز الفراغ بين أسنانه.

فقال هكلبري: «حسنًا، اتفقنا».

وضع توم القرادة داخل غطاء كبسولة البارود، التي سبق وأن كانت سجنًا للخنفساء، وافترق الصَّبيانِ وقد غمر كليهما إحساس بأنهما أكثر ثراءً مما كانا من قبل.

عندما وصل توم إلى مبنى المدرسة الصغير المنعزل، مضى بخطًى واسعة بسرعة توحي بأنه شخص قد جاء بلهفة حقيقية. وضع قبعته فوق علاقة، وأسرع نحو مقعده بحماس. كان المدرس، المتربع على عرشه المتمثل في كرسيه ذي الذراعين والظهر المصنوع من ألواح الخشب المنفصلة بعضها عن بعض، قد غفا وسط الهدوء الذي بعثته همهمات المذاكرة المشجعة على النعاس، إلَّا أن دخول توم أيقظه.

«توماس سوير!».

عندما كان يُنادي توم باسمه كاملًا، كان يعرف أن هذا معناه وجود مشكلة.

«سيدي!».

«تعالَ إلى هنا! لماذا أتيت متأخرًا مجددًا كالعادة؟».

كان توم على وشك أن يخترع كذبة، لولا أنه لمح ضفيرتين طويلتين من الشعر الأصفر تتدليان وراء ظهر تعرف عليه بفضل الشحنات الكهربائية التي يبعثها الحب. لم تكن هناك أية مقاعد خالية في الجانب المخصص للفتيات في المدرسة سوى بجانبها، فقال فورًا:

«توقفت للتحدث إلى هكلبري فِن!».

أخذ المدرس يحدق إليه دون أن يعرف ماذا يفعل، وبدا كما لو أن قلبه قد توقف عن النبض. توقفت همهمات المذاكرة، وتساءل الطلبة لو أن هذا الفتى الطائش قد فقد صوابه. ثم قال المدرس:

«ماذا.. ماذا فعلت؟».

«توقفت للتحدث إلى هكلبري فِن».

لم يخطئ فيما سمعه.

«توماس سوير، هذا أكثر اعتراف صاعق سمعته في حياتي، لا يمكن لأي خيزرانة أن تكون كافية لمعاقبتك على هذه الفعلة. اخلع عنك سترتك».

أخذ الأستاذ يضربه حتى آلمه ذراعه وتضاءل مخزون الخيزرانات على نحو ملحوظ، ثم قال له آمرًا:

«والآن، اذهب واجلس مع الفتيات، وليكن هذا إنذارًا».

بدا وكأن موجة الضحك التي ملأت المكان قد تسببت في خجل للفتى، إلَّا أن السبب الأكبر وراء خجله كان رهبته الكبيرة

تجاه محبوبته المجهولة والسعادة المخيفة التي انطوت داخل حظه السعيد جدًّا. جلس الفتى عند طرف المقعد المصنوع من خشب الصنوبر، فابتعدت الفتاة عنه وهي تطوِّح برأسها. امتلأت الحجرة بالهمس والغمز واللكز، إلَّا أن توم ظل صامتًا وقد مد ذراعيه أمامه فوق المقعد وبدا كأنه يدرس في كتابه.

بعد قليل، انصرف انتباه الجميع عنه، وارتفعت أصوات الهمهمات المعتادة فوق صوت الهواء الثقيل مجددًا، وبدأ الفتى ينظر خلسة إلى الفتاة، التي انتبهت إليه وصنعت «بوزًا» بشفتيها وأعطته ظهرها دقيقة كاملة. عندما التفتت إليه مجددًا في حذر، وجدت حبة خوخ أمامها، فأزاحتها بعيدًا، فأعادها توم مجددًا برفق، فأزاحتها مجددًا ولكن بعدوانية أقل هذه المرة. أعادها توم مجددًا إلى مكانها بصبر، فتركتها دون أن تزيحها. كتب توم على لوحه: «من فضلك، خذيها؛ لديَّ المزيد». نظرت الفتاة إلى الكلمات، لكنها لم تُبدِ أي رد فعل. بدأ الفتى يرسم شيئًا على اللوح، بينما يخبِّئ بيده اليسرى ما يقوم به. رفضت الفتاة في البداية أن تعيره انتباهها، إلَّا أن الفضول البشري فرض نفسه دون أن تبديه. استمر الفتى في الرسم دون أن يبدو عليه أنه منتبه إلى فضولها. حاولت الفتاة أن تختلس النظر إلى ما كان يرسمه دون أن تطلب ذلك صراحة، إلَّا أن الفتى أبى أن يسلِّم بإدراكه محاولتَها. وفي النهاية، استسلمت الفتاة وهمست بتردد:

«دعني أرى ماذا ترسم».

كشف توم عن جزء من رسمه الكاريكاتوري السيئ لمنزل

بسقف مخروطي يخرج من مدخنته خيط لولبي من الدخان، سريعًا انصبَّ تركيز الفتاة على ما قام به الفتى ونسيت كل شيء آخر. عندما انتهى الفتى، نظرت الفتاة إلى الرسمة للحظة ثم همست:

«إنها لطيفة، فلترسم رجلًا».

رسم الفنان في الباحة الأمامية رجلًا يشبه الرافعة، كان بإمكان هذا الرجل الذي رسمه أن يدهس المنزل، إلَّا أن الفتاة لم تكن شديدة الانتقاد ورضيت بهذا المسخ، هامسة:

«إنه رجل جميل، الآن ارسمني إلى جانبهم».

رسم توم ساعة رملية، وبدرًا مكتملًا، وأضاف إليهما أطرافًا قشية، وجعل الأصابع الممتدة تتسلح بمروحة مذهلة، فقالت الفتاة:

«جميل جدًّا، يا ليت كان باستطاعتي أن أرسم».

همس توم: «إنه سهل، سأعلمك».

«حقًّا؟ متى؟».

«ظهرًا. هل تذهبين إلى المنزل لتناول الغداء؟».

«سأبقى إذا كنت ستعلمني».

«جيد، هذا رائع، ما اسمك؟».

«بيكي ثاتشر. وأنت، ما اسمك؟ أوه، أنا أعلم، إنه توماس سوير».

«هذا هو الاسم الذي ينادونني به عندما أكون في مشكلة، أما توم فهو اسمي عندما يحبونني. هل يمكن أن تناديني توم؟».

«نعم».

بدأ توم يُدوِّن شيئًا على اللوح، وهو يخبئ الكلمات عن الفتاة، إلَّا أنها لم تخجل هذا المرة وتوسلت إليه أن ترى ماذا يكتب، فقال توم:

«أوه، أنا لا أكتب شيئًا».

«بلى، تكتب».

«لا، لن تحبي رؤية ما أكتب».

«بلى، أود. حقًّا أود ذلك. من فضلك دعني أرى».

«ستفتنين».

«لا، لن أفتن، وعد، وعد، وعد لن أفتن».

«لن تخبري أحدًا على الإطلاق؟ إلى الأبد، مهما طال العمر؟».

«لا، لن أخبر أحدًا أبدًا. الآن، دعني أرى».

«صدقيني، لن تحبي رؤية ما أكتب!».

«طالما تتعامل معي بهذه الطريقة، فسأراها». وضعت يدها الصغيرة فوق يده وبدأت بينهما مشاجرة صغيرة، تظاهر توم بأنه يقاوم جديًّا، بينما يدع يده تنزلق رويدًا رويدًا حتى ظهرت تلك الكلمات التي كتبها: «أنا أحبك».

«أوه، انت شرير!»، ضربته على يده ضربة خفيفة، إلَّا أن وجهها ما لبث أن احمر وبدا عليها السرور.

حينئذ، شعر الفتى بقبضة مشؤومة وبطيئة تمسك بأذنه وتجذبه

إلى أعلى بتحكم. على هذه الحال، حُمل الفتى داخل المدرسة ووضع على كرسيه، وسط نار مشتعلة من الضحكات داخل المدرسة بأكملها. ظل المدرس واقفًا فوق رأسه بضعة دقائق بغيضة، حتى تحرك في النهاية نحو عرشه دون أن ينطق بكلمة. رغم أنه كان يشعر بوخز في أذنه، كان قلبه سعيدًا.

بعد أن هدأت المدرسة، حاول توم بجهد صادق أن يدرس، إلَّا أن اضطرابه كان كبيرًا جدًّا. في المقابل، اتخذ مجلسه في درس القراءة فلم يُؤدِ فيه جيدًا، ثم في درس الجغرافيا حيث حوَّل البحيرات إلى جبال، والجبال إلى أنهار، والأنهار إلى قارات، حتى عمَّت الفوضى، ثم أخطأ في سلسلة متتابعة من الكلمات البسيطة، في درس التهجئة، حتى أصبح في المركز الأخير من بين أقرانه حاصلًا على ميدالية القصدير التي ظل يرتديها لأشهر بتفاخر.

# ٧

كلما حاول توم أن يصب تركيزه على كتابه، ازداد تشتت أفكاره. استسلم إلى الأمر في النهاية متنهدًا ومتثائبًا. بدا له أن استراحة الظهيرة لن تأتي أبدًا، كان الهواء ثقيلًا جدًّا، ولم يكن هناك حركة لأي نفس. من بين الأيام الهادئة، كان اليوم هو الأكثر بعثًا على النعاس، كانت الهمهمات التي تخرج عن خمسة وعشرين طالبًا يستذكرون منومة ومسكنة للروح مثل تلك التعويذة الكامنة في طنين النحل.

في الخارج، وتحت ضوء الشمس المتوهج، بدت أطراف تلال كارديف الخضراء عبر غطاء مشع من الحرارة، وقد اصطبغت باللون الأرجواني، وحلق عاليًّا في الهواء سرب صغير من الطيور، بأجنحة متثاقلة، ولم يكن هناك أي كائن حي آخر باديًا للعيان سوى بعض البقر، وكانوا نائمين.

تشوق توم إلى أن يتحرر مما هو فيه أو أن يجد شيئًا مثيرًا للاهتمام يقوم به حتى يمر هذا الوقت الممل. وضع يده في جيبه، فما لبث أن تهللت أساريره بالامتنان، هذا الامتنان كان بمثابة صلوات شكر

لله، وإن لم يدرك ذلك. في خلسة، أخرج غطاء البارود، وأطلق سراح القرادة ووضعها فوق المكتب المسطح الطويل. على ما يبدو أن القرادة هي الأخرى قد تهللت أساريرها بامتنان لحظي بلغ حد الحمد، إلَّا أن هذا الامتنان كان سابقًا لأوانه، إذ إنها لم تكد تتحرك بهذا الامتنان الذي يلمؤها حتى غيَّر توم من مسار حركتها مستعينًا بدبوس، وجعلها تتخذ مسارًا جديدًا.

جلس صديق توم المقرب إلى جواره، وقد ضاق ذرعًا هو الآخر مثل توم، وقد أثارت هذه اللعبة اهتمامه من عميق وجدانه وملأته امتنانًا على الفور. كان هذا الصديق المقرب هو جو هاربر، وكانت صداقة هذين الصبيين المقربة تمتد طوال الأسبوع، ثم يصيران عدوين في أيام السبت.

أخرج جو دبوسًا من طية سترته وبدأ هو الآخر في تعذيب الأسير، وأخذت اللعبة تزداد تشويقًا رويدًا رويدًا، حتى قال توم إنهما يتداخلان فيما بينهما، وأن أيهما لم يكن يستفيد بحصته الكاملة من اللعب بالقرادة، ومن ثم وضع لوح جو فوق المكتب ورسم خطًا في المنتصف يمتد من أعلى اللوح إلى أسفله، وقال:

«إذا تواجدت القرادة في جانبك، يمكنك تحريكها وسأدعها وشأنها، لكن إذا تركتها تهرب بحيث تكون في جانبي، عليك أن تدعها وشأنها طالما استطعت أن أمنعها من الإفلات إلى الجانب الآخر».

«حسنًا، فلتبدأ أنت».

أفلتت القرادة من توم وعبرت خط الاستواء، أرهقها جو

لبعض الوقت حتى هربت وعادت إلى الجانب الآخر، استمر التنقل لفترة. بينما كان أحد الصبيين يعذب القرادة بشغف شديد، كان الآخر يراقب الوضع بنفس القدر من الشغف. انكفأ رأساهما معًا فوق اللوح وتلاشى لديهما كل اهتمام بأي شيء آخر. أخيرًا، بدا أن الحظ يتحالف مع جو. تنقلت القرادة بين هذا الاتجاه وذاك، مرارًا، وملأها الحماس والقلق بقدر ما ملأ الصبيين، كما لو أنها ستحقق النصر بقبضة يدها، إن جاز التعبير. كانت أصابع توم تنتفض حينما يحين دوره، وكان دبوس جو يوجه القرادة برشاقة ويبقيها بحوزته. لم يستطع توم، في نهاية الأمر، أن يتحمل الأمر أكثر من ذلك، إذ إن الإغراء كان قويًا جدًّا. وعليه، مد يده وبدأ يحركها بدبوسه، فغضب جو على الفور وقال:

«دعها وشأنها يا توم».

«أنا أريد أن أحمسها قليلًا فقط يا جو».

«لا، يا سيدي، هذا ليس عدلًا، دعها وشأنها وحسب».

«لن أحركها كثيرًا».

«أقول لك دعها وشأنها».

«لن أدعها!».

«ستدعها، إنها في الجانب المخصص لي من الخط».

«استمع إليَّ جيدًا يا جو هاربر، من صاحب هذه القرادة؟».

«لا يهمني من صاحبها، إنها في الجانب المخصص لي من الخط، ولن تلمسها».

«حتى لو كان الأمر كذلك سألمسها، إنها قرادتي وسأفعل ما أشاء بها، وليكن ما يكون!».

تلقى توم ضربة قوية على كتفه، وتلقى جو مثلها، وعلى مدار دقيقتين أخذ التراب يتناثر عن سترتيهما بينما استمتعت المدرسة بما يحدث. كان الصبيان مستغرقين جدًّا إلى درجة لم ينتبها معها إلى الصمت الذي خيم على المدرسة منذ فترة، إذ تسلل الناظر على أطراف أصابعه إلى داخل الغرفة ووقف فوقيهما. تمكن من مشاهدة قدر لا بأس به من عرضهما قبل أن يشارك هو الآخر بمجموعة متنوعة من الضربات.

عندما خلت المدرسة بحلول الظهيرة، ركض توم ناحية بيكي ثاتشر وهمس في أذنها:

«ضعي غطاء رأسك، وتظاهري بأنك عائدة إلى المنزل، وعندما تصلين إلى المنعطف، اهربي منهم واسلكي الزقاق وعودي، وسأذهب أنا من الطريق الآخر وأعود بنفس الطريقة».

وهكذا، انطلق أحدهما ضمن مجموعة من الطلبة، بينما انطلق الآخر في مجموعة أخرى. بعد فترة قصيرة، التقى الاثنان عند نهاية الزقاق، وعندما وصلا، كانت المدرسة ملكًا لهما. جلسا معًا، وأمامهما لوح. أعطى توم القلم الرصاص لبيكي وأمسك بيدها ليوجهها حتى رسم منزلًا مدهشًا آخر. عندما بدأ حماسهما تجاه الرسم يفتر، أخذا يتحدثان.

كان توم غارقًا في السعادة، حينما قال:

«هل تحبين الفئران؟».

«لا! إنني أبغضهم!».

«حسنًا، أنا أيضًا أكره الأحياء منهم. لكنني أقصد الفئران الميتة، أن تأرجحيهم هكذا حول رأسك بخيط».

«لا، لا أهتم بالفئران، ولكني أحب العلكة».

«أوه، يا ليت كان معي بعضًا منها الآن».

«أنا معي. سأدعك تمضغها قليلًا، لكن عليك أن تعيدها إليَّ مرة أخرى».

وافق توم على الأمر، وهكذا مضغا العلكة بالتبادل، وقد تدلت أرجلهما أمام التخت في رضا غامر.

سأل توم: «هل ذهبت إلى السيرك من قبل؟»

«نعم، وسيصطحبني أبي مجددًا، إذا أحسنت التصرف».

«لقد ذهبت إلى السيرك ثلاث أو أربع مرات، ذهبت مرات عديدة. الكنيسة لا شيء مقارنة بالسيرك. السيرك ممتلئ بالأحداث طوال الوقت. سأصبح مهرجًا في السيرك عندما أكبر».

«أوه، حقًّا! سيكون هذا لطيفًا. إنهم جميلون جدًّا وهم مصطبغون بالألوان كليًّا هكذا».

«نعم، بالضبط. ويجنون أموالًا طائلة، غالبًا دولارًا في اليوم، حسبما يقول بن روجرز. قولي لي يا بيكي، هل سبق أن خُطبتِ من قبل؟».

«ماذا؟».

«خُطبتِ استعدادًا للزواج».

«لا».

«هل تودين ذلك؟».

«أعتقد. لا أدري. كيف تكون الخطبة؟».

«كيف؟ لا تشبه شيئًا. تخبرين فقط الصبي أنه لن يكون هناك أحد آخر غيره، أبدًا أبدًا أبدًا، ثم تقبلينه وينتهي الأمر. أي شخص يمكنه القيام بذلك».

«أقبله؟ لماذا أقبله؟».

«لأنه، أنت تعلمين، من أجل، حسنًا، إنهم دائمًا يفعلون ذلك».

«الجميع؟».

«نعم، جميع من يحبون أحدهما الآخر. هل تتذكرين ما كتبتُ على اللوح؟».

«نع.. نعم».

«ماذا كتبت؟».

«لن أخبرك».

«هل أخبرك أنا؟».

«نع.. نعم.. لكن في وقت آخر».

«لا، الآن».

«لا، ليس الآن، غدًا».

«أوه، لا، الآن. من فضلك يا بيكي، سأهمسها لك، سأهمسها في تمهل».

ترددت بيكي، فاعتبر توم صمتها علامة رضا، وطوق خصرها بذراعه، وهمس إليها العبارة بنعومة شديدة، وقد قرب فمه من أذنها. ثم أضاف:

«الآن، قوليها لي همسًا، بنفس الطريقة».

قاومت لوهلة، ثم قالت:

«أدر وجهك بعيدًا، وسأقولها. لكن عليك ألا تخبر أحدًا أبدًا، اتفقنا يا توم؟ لن تخبر أحدًا، أليس كذلك؟».

«لا، لن أخبر أحدًا أبدًا أبدًا. هيا يا بيكي».

أدار وجهه بعيدًا، فانحنت مقتربة منه في خجل حتى حرَّك نفسُها خصلات شعره المتجعدة وهمست: «أنا.. أحب.. ك».

ثم انطلقت بعيدًا وركضت هنا وهناك بين المكاتب والتُخت، وتوم وراءها، وفي النهاية لازت بركن ومريولها الأبيض الصغير على وجهها. أمسك بها توم من عنقها وتوسل إليها:

«والآن يا بيكي، انتهى الأمر كله، كله باستثناء القبلة. لا تخافي منها، إنها لا شيء على الإطلاق. من فضلك يا بيكي». وأخذ يجذب مريولها ويديها.

رويدًا رويدًا استسلمت وأفلتت يديها، فخرج وجهها متوهجًا من أثر المقاومة وأذعنت. قبل توم الشفتين الحمراوتين وقال:

«والآن انتهى الأمر كله يا بيكي. ومن الآن فصاعدًا، مثلما تعلمين، لن تحبي شخصًا غيري أبدًا، ولن تتزوجي شخصًا غيري، أبدًا أبدًا ومطلقًا. اتفقنا؟».

«اتفقنا، لن أحب أحدًا غيرك أبدًا يا توم، ولن أتزوج من أحد غيرك أبدًا، وأنت لن تتزوج من أحد غيري أبدًا أيضًا».

«بالطبع. بالتأكيد. هذا جزء من الأمر. ودائمًا عند الذهاب إلى المدرسة أو عند العودة إلى المنزل، ستسيرين معي، طالما لم يكن أحد منتبهًا إلينا، وتختارينني وأختارك في الحفلات، لأن هذا هو العرف في الخِطبة».

«هذا لطيف جدًّا. لم أسمع عن هذا من قبل».

«أوه، إنه أمر مبهج جدًّا! أنا وإيمي لورانس..».

أخبرت عينا بيكي، اللتين اتسعتا، توم بخطأه، فتوقف عن الحديث مرتبكًا.

«أوه، توم! إذًا فأنا لست أول من تخطب!».

بدأت الطفلة في البكاء، فقال توم:

«أوه، لا تبكي يا بيكي، أنا لم أعد أفكر فيها».

«بلى، تفكر فيها يا توم.. أنت تعرف ذلك».

حاول توم أن يضع يده حول عنقها، إلّا أنها دفعته بعيدًا وولت وجهها ناحية الحائط، واستمرت في البكاء. حاول توم مجددًا، بكلمات مطمئنة، فأبعدته مجددًا. فآلمه كبرياؤه، ومضى بعيدًا وذهب

إلى الخارج. ظل واقفًا، مضطربًا ومشوشًا، لوهلة، ملقيًّا نظرة إلى الباب، من حين إلى آخر، آملًا أن تندم وتأتي بحثًا عنه، إلَّا أنها لم تفعل. ثم بدأ يشعر باستياء وخشي أنه قد اقترف خطأ. كان من العسير عليه أن يحسن من الوضع في تلك اللحظة، إلَّا أنه تغلب على نفسه ودخل. كانت لا تزال واقفة هناك في الركن، تبكي، ووجهها ناحية الحائط. غلبه قلبه، فذهب إليها ووقف هنيهة، دون أن يدري بالضبط كيف يبدأ، ثم قال بتردد:

«بيكي، أنا.. أنا لا أفكر في أحد غيرك».

لا ترد، تبكي وحسب.

متوسلًا: «بيكي.. بيكي، ألن تقولي شيئًا؟».

المزيد من البكاء.

أخرج توم أثمن مجوهراته؛ مقبض نحاس من رأس أُثْفِيّة، ومرره حولها حتى يتسنى لها رؤيته، وقال:

«من فضلك يا بيكي، ألن تأخذيه؟».

ضربت به الأرض، فانطلق توم خارج المدرسة سائرًا فوق التلال بعيدًا، ولم يعد إلى المدرسة مجددًا بعد انتهاء استراحة الغداء. ما لبثت أن بدأت بيكي في التشكك، فركضت ناحية الباب، فلم تره في أي مكان، فانطلقت ناحية ساحة اللعب، فلم تجده هناك، فنادت:

«توم! عد يا توم!».

أنصتت بانتباه، إلَّا أنها لم تتلق جوابًا. لم يكن معها رفيق سوى الصمت والوحدة. فجلست تبكي مجددًا وتلوم نفسها، وبحلول هذا الوقت بدأ الطلبة يتجمعون مجددًا، واضطرت إلى أن تخفي أحزانها وتهدئ قلبها الكسير وتتحمل عصرًا مؤلمًا موحشًا طويلًا، دون أن تبادل أحزانها مع أي ممن حولها من أغراب.

# ٨

ظل توم ينتقل من هنا إلى هناك بين الطرقات، حتى أصبح بعيدًا عن طريق عودة التلاميذ إلى المدرسة. أخذ يهرول بمزاج متقلب، وعبر ممرًا مائيًّا صغيرًا مرتين أو ثلاث مرات، بسبب خرافة ساذجة تقول إن عبور الماء يقف في سبيل السعي. بعد نصف ساعة كان قد اختفى وراء قصر دوجلاس المتواجد أعلى تلة كارديف، وأصبح مبنى المدرسة بالكاد مرئيًّا من على هذه المسافة عبر ما يفصلهما من واد. دلف إلى غابة كثيفة، وشق طريقه داخل الغابة عبر ممر غير مطروق، وجلس فوق بقعة تكسوها الطحالب أسفل شجرة بلوط قد تفرشت الأرض بجذورها. لم تكن هناك حتى نسمة هواء تتحرك، حتى أن حرارة الظهيرة الخاملة قد أخمدت تغريدات الطيور، استلقت الطبيعة في سبات لم تكسره سوى دقات نقار الخشب البعيدة المتقطعة، وقد بدا أنه يُذيب الصمت المطبق والشعور العميق بالوحدة. كان قلب الفتى غارقًا في الحزن، وكانت مشاعره متسقة مع ما يحيط به. جلس طويلًا وقد وضع مرفقيه فوق ركبتيه، وذقنه بين كفيه، متأملًا. بدا له أن الحياة

لم تكن سوى كدر، وشعر بغبطة كبيرة تجاه جيمي هودجز، الذي تحرر أخيرًا من الحياة، وفكر في أنه لا شك أمر شديد الطمأنينة أن يستلقي المرء ويغفو ويحلم إلى أبد الآبدين، بينما يسري همس الرياح عبر الأشجار ويداعب الحشائش والزهور فوق القبور، دون أن يحمل هم شيء أو أن يحزن بسبب شيء مطلقًا وإلى الأبد. لو أن سجله في مدرسة يوم الأحد كان نظيفًا، لصار على استعداد أن يرحل وينتهي الأمر برمته. ماذا اقترف بحق الفتاة الآن؟ لا شيء. كانت نيته خيرًا، وتمت معاملته ككلب، ككلب حقيقي. ستندم يومًا ما، ربما عندما يفوت الأوان. آه، لو كان فقط باستطاعته أن يموت مؤقتًا!

إلَّا أن قلب الصبية الغض لا يمكن أن يبقى مقيدًا على نفس الحالة لفترة طويلة من الزمن. انجرف توم مجددًا ودون وعي في هموم هذه الحياة. ماذا لو ترك كل شيء وراء ظهره الآن واختفى على نحو غامض؟ ماذا لو ذهب بعيدًا، بعيدًا جدًّا، إلى بلاد مجهولة وراء البحار، ولم يعد مجددًا إلى الأبد! كيف ستشعر حينها! راودته مجددًا في تلك اللحظة فكرة أن يصير مهرجًا، إلَّا أنها لم تملأه سوى بالنفور، إذ من المهانة أن يقحم اللعب والمزاح وجوارب النساء المرقطة أنفسهم على روح قد علت في ملكوت الرومانسية المهيب الغامض. لا، سيصبح جنديًّا، ويعود بعد سنوات طويلة، وقد ظهرت عليه آثار الحرب والمجد.

بل الأفضل من ذلك أن ينضم إلى الهنود ويصطاد الجاموس، ويشق طريقه عبر السلاسل الجبلية وسهول الغرب الأقصى

الشاسعة غير المطروقة، ثم يعود في مستقبل بعيد سيدًا عظيمًا، منفوش الريش، وقد أصبح شكله قبيحًا بعد أن دق وشمًا، ويدخل إلى مدرسة الأحد متبخترًا في صباح أحد أيام الصيف الباعثة على النعاس، مطلقًا صيحة حرب مروعة، ويحرق أعين جميع رفاقه بحسد لا يمكن تهدئته. لكن لا، لقد كان هناك ما هو أقوى من هذا. سيكون قرصانًا! هذا هو! الآن قد بدا له مستقبله واضحًا أمامه، ولامعًا في تألق لا يمكن تخيله. كيف سيملأ اسمه العالم، ويجعل الناس ترتجف! كيف سيعتلي البحار المتراقصة، في مجد، بسفينته «روح العاصفة» الطويلة المتهالكة ذات الهيكل الأسود، بينما يرفرف علمه المرعب فوق مقدمتها! وفي قمة شهرته، كيف سيظهر فجأة في القرية القديمة ويدخل الكنيسة، وقد اسمر لونه وبدا عليه أثر الطقس، مرتديًا سترته المخملية السوداء وحذائه ذي الرقبة ووشاحه القرمزي وحزامه المُحمَّل بالمسدسات التي يجاورها سيف البحارة المتصدئ بدماء الجريمة، وقبعته المتدلية التي يرفرف ريشها، ويرتفع علمه الأسود ذو العظمتين المتصالبتين، وهو يسمع بنشوة، يملؤها الغرور، همسات: «إنه توم سوير القرصان! المنتقم الأسود للبحر الإسباني!».

نعم، لقد حُسم الأمر وتحددت وظيفته؛ إنه على استعداد أن يهرب من المنزل وأن يشرع في القيام بهذا الأمر، إنه على استعداد أن يفعل هذا في الصباح التالي على الفور. ولذلك، فإن عليه أن يبدأ حالًا في الاستعداد. سيقوم بجمع ثرواته معًا. ذهب إلى حطبة متعفنة كانت على مقربة منه، وبدأ يحفر تحت أحد طرفيها بمطواته

البارلو، حتى عثر على قطعة خشب بدت مجوفة. وضع يده بداخلها مرددًا هذه التعويذة على نحو مثير للإعجاب:

«فليأت إلى هنا ما لم يأت! وليبقى كما هو ما هنا!».

أزال توم الأتربة كاشفًا عن لوح خشبي صغير مصنوع من الصنوبر، رفعه إلى أعلى فظهرت حصالة صغيرة شكلها جميل قد صُنعت قاعدتها وجوانبها من الألواح الخشبية الصغيرة. كان بداخلها بلية. كانت دهشة توم لا حدود لها! حك رأسه في حيرة، وقال:

«حسنًا، هذا يقضي على أي شيء!».

ألقى بالبلية بعيدًا في حنق، ووقف متأملًا، ذلك أن إحدى الخرافات التي كان يؤمن بها قد أثبتت عدم صحتها، إذ إنه وجميع رفاقه دائمًا ما كانوا يعتبرونها معصومة. وقد كانت تلك الخرافة تقول إنه إذا دفنت بلية وأنت تردد تعاويذ محددة ثم تركتها أسبوعين، ومن ثم فتحت المكان بنفس التعويذة التي رددها توم منذ قليل، فإنك ستجد أن جميع البلي الذي سبق أن فقدته من قبل قد قام بتجميع نفسه هناك، مهما بعدت الأماكن التي تفرق فيها. لكن الآن، وفي الواقع الفعلي، فقد أثبتت هذه الخرافة فشلها على نحو لا شك فيه. لقد تزعزع إيمان توم حتى الأعماق، إذ إنه قد سمع مرارًا عن نجاح هذا الأمر، ولم يسمع أنه فشل قط قبل. لم يخطر على باله أنه حاول القيام بهذا الأمر عدة مرات من قبل بنفسه، لكنه لم يجد أبدًا الأماكن التي خبأ فيها البلي بعد ذلك. حيره الأمر لوهلة، واستقر أخيرًا أن ثمة ساحرة قد تدخلت وأبطلت السحر. رأى أن باله سيطمئن بهذا

الاستنتاج، وعليه فقد بحث حوله حتى وجد بقعة رملية صغيرة بها تجويف صغير على شكل مخروطي. استلقى أرضًا ووضع فمه بالقرب من هذا التجويف ونادى:

«حشرة دودل، يا حشرة دودل، قولي لي ما أريد أن أعرفه! حشرة دودل، يا حشرة دودل، قولي لي ما أريد أن أعرفه!».

تحرك شيء تحت الرمال، وخرجت حشرة سوداء صغيرة ما لبثت أن تقهقرت في خوف.

«إنها لا تحكي شيئًا! إذًا فهذا عمل ساحرة، لقد كنت متيقنًا».

كان يدرك جيدًا أنه لا جدوى من محاولة الوقوف أمام الساحرات، وعليه فقد أعرض عن الأمر مثبط الهمة، ثم خطر له أنه ربما من الأفضل أن يستعيد البلية التي ألقى بها بعيدًا منذ قليل، وعليه ذهب وبحث عنها بصبر، إلَّا أنه لم يجدها. ومن ثم عاد إلى حصالته، ووقف في نفس المكان الذي كان يقف فيه عندما ألقى بالبلية بعيدًا، وأخرج بلية أخرى من جيبه وألقى بها في نفس الاتجاه، قائلًا:

«أيها الأخ، اذهب للبحث عن أخيك!».

راقب موضع سقوطها، وذهب هناك وأخذ يبحث عنها، لكن بدا أنها إما سقطت عند مسافة قصيرة أو أنها وقعت بعيدًا جدًّا، وعليه حاول مرتين أخريين، حتى تكللت المحاولة الأخيرة بالنجاح، إذ سقطت البليتان على بعد قدم من إحداهما الأخرى.

في تلك اللحظة، أتى من وسط ممرات الغابة الخضراء صوت

خافت صادر عن بوق مصنوع من القصدير مخصص للعب، فألقى توم بسترته وبنطاله وجعل من حمالة بنطاله حزامًا، وأزاح بعيدًا بعض الأجمة وراء الحطب المتعفن، كاشفًا عن قوس غليظ وسهم وسيف مصنوع من الخشب وبوق من القصدير. في ثوان، كان قد حمل جميع هذه الأشياء وانطلق بعيدًا، عاري الساقين، وقميصه يرفرف وراءه، ثم توقف تحت شجرة دردار كبيرة، ونفخ في بوقه، وأخذ يمشي على أطراف أصابعه ويتلفت بحذر في هذا الاتجاه وذاك، ثم قال بحذر إلى رفاق وهميين:

«يا رجالي العظماء، تمهلوا وابقوا مختبئين حتى أنفخ».

في تلك اللحظة، ظهر جو هاربر وقد تخفف من ملابسه وتسلح بعتاد كثير مثل توم. نادى توم:

«توقف! من يأتي هنا إلى غابة شيروود دون إذني؟».

«جاي جيسبورن لا يحتاج إلى إذن من أحد. من الذي.. الذي».

قال توم ملقنًا إياه: «.. الذي يتجرأ على التحدث بهذه الطريقة»، إذ إنهما كان يرددان نص الحكاية من الذاكرة.

«من الذي يتجرأ على التحدث بهذه الطريقة؟».

«أنا، في الواقع! أنا روبن هود، مثلما ستعرف بعد قليل أيها التعس».

«إذًا فأنت بالفعل ذلك المُطارد المشهور؟ سيكون من دواعي سروري أن أتنازع معك على ممرات الغابة المباركة. هلم!».

أمسكا بسيفيهما الخشبيين، وألقيا بأسلحتهما الأخرى في الأرض، ووقفا في موضع مبارزة، قدم بقدم، وبدءا معركة حذرة خطيرة، «ضربتان لأعلى وضربتان لأسفل». قال توم:

«إذا كنت مقتدرًا، فلنتبارز بحق!».

وعليه تبارزا بحق، لاهثين ومتعرقين من المجهود، ورويدًا رويدًا صاح توم:

«فلتسقط! فلتسقط! لماذا لا تسقط؟».

«لن أسقط! لماذا لا تسقط أنت؟ إنك الأسوأ في هذا».

«لماذا؟ لم أفعل شيئًا، لا يمكنني السقوط، هذا لم يرد في الحكاية. يقول الكتاب: «ثم بضربة بظهر يده أطاح بجاي جيسبورن». يجب أن تستدير وتدعني أضربك على ظهرك».

لم يكن هناك سبيل للتحايل على القوانين، وعليه استدار جو، وتلقى الضربة وسقط.

قال جو وهو ينهض: «الآن، عليك أن تدعني أقتلك. هذا عدل».

«لا يمكن، هذا لم يرد في الحكاية».

«حسنًا، إن هذا لؤم خسيس، هذا كل ما في الأمر».

«حسنًا يا جو، ما رأيك أن تصبح فراير تاك أو ماتش ابن الطحان، وتضربني بعصا التحطيب وإلَّا فسأكون مدير شرطة نوتنجهام وستكون أنت روبن هود وتقتلني».

بدا العرض مرضيًا، وعليه خاضا هذه المغامرات، ثم لعب توم دور روبن هود مجددًا، وتركت الراهبة الخائنة جرحه ينزف، دون عناية، حتى خارت قواه. وفي النهاية، جره جو بحزن، ممثلًا قبيلة كاملة من الخارجين عن القانون كانوا قد غرقوا في البكاء، وأعطاه قوسه في يديه الواهنة. قال توم: «أينما يسقط هذا السهم، فليدفن المسكين روبن هود تحت شجرة الغابة الخضراء»، ثم أطلق السهم وسقط على ظهره وكاد أن يموت لولا انه رقد على نبات القراص فقفز بحيوية لا تلائم جثة هامدة.

ارتدى الصبيان ملابسهما، وخبئا عتادهما، ومضيا آسفين لأنه لم يعد هناك خارجين عن القانون، متساءلين ما الذي يمكن للحضارة الحديثة أن تدعي أنها فعلته حتى تعوض خسارتهم، وقالا إنهما يفضلان لو أنهما بقيا خارجين عن القانون لمدة عام في غابة شيروود على أن يتوليا رئاسة الولايات المتحدة للأبد.

# ٩

عندما دقت الساعة منتصف التاسعة في تلك الليلة، ذهب توم وسيد ليناما كعادتيهما، تليا صلواتهما، وسرعان ما نام سيد، بينما ظل توم مستيقظًا، وانتظر متململًا في نفاد صبر، حتى ظن أن ضوء النهار أوشك على السطوع، إلَّا أنه سمع الساعة تدق العاشرة، وأصابه ذلك باليأس. كان بوسعه أن يرضخ لعصبيته ويتقلب ويركل بقدمه، إلَّا أنه خشي أن يوقظ سيد، ومن ثم استلقى في هدوء وأخذ يتأمل الظلام.

عمَّ السكون كل شيء على نحو كئيب، ورويدًا رويدًا وسط هذا السكون بدأت أصوات خافتة تنبعث، وتتضح بصعوبة؛ أمست حركات عقرب الساعة مسموعة، وبدأت أخشاب قديمة تطقطق على نحو غامض، وأحدثت السلالم صريرًا خافتًا، إذ من الواضح أن الأرواح كانت تحوم في كل اتجاه. صدر عن غرفة الخالة بولي غطيطٌ مكتومٌ وموزونٌ، وسُمع صوت مزعج لصرير صرصور لا يمكن لأي شخص مهما بلغت براعته أن يحدد مكانه، وتسبب النقر المخيف لسوسة خشب، كانت تقف على الحائط المستند إليه رأس سرير توم،

في أن جعلته يرتجف، إذ إنها كانت دلالة على أن أيام شخص ما كانت معدودة. ثم ارتفع من بعيد صوت نباح كلب وسط هواء الليل، رد عليه نباح أكثر خفوتًا آت من مسافة أبعد. كان توم يتعذب، ولكن في النهاية سره انقضاء الوقت وبداية السبات، إذ كان قد بدأ يغفو رغمًا عن نفسه، وعندما دقت الساعة الحادية عشرة، لم ينتبه إليها. ومن ثم، سُمع صوت مواء حزين امتزج بأحلام توم نصف المكتملة، وأقلق نومه صوت فتح إحدى النوافذ المجاورة، ثم استيقظ تمامًا عند صياح أحدهم وهو يقول: «انصرف! أيها الشيطان!» يليه صوت ارتطام زجاجة فارغة وراء مخزن خالته للحطب. بعد دقيقة واحدة، كان توم قد ارتدى ملابسه في دقيقة واحدة وخرج من النافذة وزحف بطول السقف، البالغ ذراعًا، على أطرافه الأربعة. قلد صوت القطة مرة أو مرتين، في حذر، وهو مستمر في زحفه، ثم قفز فوق سقف مخزن الحطب ومنه إلى الأرض. كان هكلبري فن هناك ومعه القطة الميتة. انطلق الصبيان واختفيا في الظلام، وبعد مرور نصف ساعة، كانا يشقان طريقهما وسط الحشائش الطويلة للمدافن.

كانت المدافن من الطراز الغربي القديم، وكانت تقع فوق تلة على بعد ميل ونصف من القرية. كان يطوقها سور عريض تملؤه تصدعات كثيرة، وكان يميل إلى الداخل في بعض المواضع، فيما ينبعج ما تبقى منه نحو الخارج، إلَّا أنه لم يكون مستويًا عند أية نقطة. نمت الحشائش والأعشاب الضارة نموًّا كبيرًا بطول المقبرة كلها، وقد اختفت جميع المقابر القديمة، ولم يعد هناك شاهد قبر واحد في المكان، فيما تعاقبت اللوحات التي استدارت حوافها العليا بعد أن

أكلها الدود، متمايلة في بحث عن دعم دون جدوى، وكانت عبارات «تخليدًا لذكرى» وغيرها، اللاتي كنَّ قد كتبن فوق اللوحات سابقًا لم تعد مقروءة على أغلب اللوحات، حتى مع وجود ضوء.

أحدثت نسمة هواء خفيفة حفيفًا وسط الأشجار، فخشي توم أن تكون هذه أرواح الموتى وأنها تشتكي من الإزعاج، تحدث الصبيان قليلًا بصوت خفيض، لا يرقى إلى صوت أنفاسهما، وثقلت روحاهما بفعل الوقت والمكان والصمت والمهابة التي حفت المكان، وجدا ملاذهما الجديد الذي كانا يبحثان عنه، واختبئا وراء ثلاث شجرات دردار ضخمة، كانت قد نمت معًا على بعد بضع أقدام من المدافن.

ومن ثم، انتظرا في صمت لفترة بدت لهما طويلة. لم يكسر سكون الموتى سوى صوت واحد لبومة تصيح من بعيد. أمست أفكار توم ثقيلة الوطأة، ولم يجد بدًا من فتح باب للحديث، فقال هامسًا:

«هاكي، هل تعتقد أن الموتى يرحبون بوجودنا هنا؟».

همس هكلبري:

«يا ليتني أعرف، إن الوضع مخيف بدرجة رهيبة، أليس كذلك؟».

«هذا صحيح».

مضت فترة صمت طويلة، والصبيان يديران الأمر في رأسيهما، ثم همس توم:

«قل لي يا هاكي، هل تعتقد أن هوس ويليامز يسمعنا ونحن نتحدث؟».

«بالطبع يسمعنا، على الأقل فإن روحه تسمعنا».

قال توم بعد فترة صمت:

«يا ليتني قلت السيد ويليامز، لكنني لم أقصد أي شيء سيء، الجميع ينادونه هوس».

«لا يمكن للمرء أن يكون محددًا بشأن الكيفية التي نتحدث بها عن هؤلاء الموتى يا توم».

كانت هذه الجملة مثبطة، فانقطع الحديث من جديد.

أمسك توم بذراع رفيقه وقال:

«صه!».

قال هكلبري، وقد تشبث أحدهما بالآخر وتزايدت ضربات قلبيهما: «ما الأمر يا توم؟».

«صه! ها هي مجددًا! ألم تسمعها؟».

«أنا..».

«ها هي! الآن يمكنك سماعها».

«يا إلهي، توم، إنهم قادمون! إنهم حتمًا قادمون. ماذا سنفعل؟».

«لا أعلم. هل تعتقد أنهم سيروننا؟».

«أوه، يا توم، إن بإمكانهم الرؤية في الظلام، مثل القطط. يا ليتني لم آت».

«أوه، لا تخف. لا أعتقد أنهم سيبالون بأمرنا، إننا مسالمان، وإذا بقينا هادئين تمامًا، فربما لن يلحظوا وجودنا على الإطلاق».

«سأحاول يا توم، لكن يا إلهي، جسمي كله يرتجف».

«انصت!».

أطرق الصبيان، وهما يتنفسان بصعوبة، فيما سُمعت أصوات مكتومة من الجانب الآخر من المقبرة.

همس توم: «انظر! انظر هناك! ما هذا؟».

«إنه طَلع الشياطين. أوه، يا توم، الوضع رهيب».

اقتربت أشكال ضبابية عبر الظلام، وتأرجح فانوس قديم الطراز قد صنع من القصدير وهو يلقي بأضواء صغيرة لا نهائية على الأرض. همس هكلبري وهو يرتجف:

«إنها حتمًا شياطين، إنهم ثلاثة شياطين! يا إلهي، إننا هالكون يا توم! هل يمكنك أن تدعو؟».

«سأحاول، لكن لا تخف، لن يأذوننا. الآن أنا أَضِعُني للنَوْم، أ...».

«صه!».

«ما الأمر يا هاك؟».

«إنهم بشر! أحدهم على أي حال. أحدهم له صوت العجوز ماف بوتر».

«لا، إنه ليس صوته، أم أنه هو؟».

«أؤكد لك أنني أعرف صوته. لا تتحرك أو تتزحزح. إنه ليس حاد النظر بالدرجة التي تجعله يلاحظ وجودنا. على الأرجح فإنه

سكران كالعادة، عديم النفع هذا، العجوز الملعون!».

«حسنًا، سأبقى هادئًا. لا يمكنني أن أتبين ملامحهم، ها هي تتضح وجوههم، أوه هاك، إنني أعرف صوت واحد آخر منهم، إنه إنجون جو».

«ذلك القاتل الخلاسي! يا ليتهم كانوا شياطين، ما الذي يدبرونه؟».

صمت الصبيان في تلك اللحظة، مع وصول الثلاثة الرجال إلى القبر ووقوفهم على بعد بضعة أقدام من مكان اختباء الصبيين.

قال الشخص الثالث: «ها هو»، وحمل صاحب الصوت الفانوس إلى أعلى كاشفًا عن وجه الدكتور روبنسون الشاب.

كان بوتر وإنجون يحملان ناقلة يدوية بها حبل وزوج من المجارف. أنزلا ما بها وشرعا في فتح القبر. وضع الطبيب الفانوس أعلى القبر وذهب ليجلس، موليًّا ظهره إلى أحد أشجار الدردار. كان قريبًا جدًّا من الصبيين حتى كادا يلمساه.

قال بصوت خفيض: «أسرعا يا رجال! من الممكن أن يسطع الضوء في أي لحظة».

تبرم الاثنان، ثم استئنفا الحفر. مرت فترة من الوقت دون أن يُسمع فيها صوت سوى الضوضاء الصادرة عن دق المجارف وهم يفرغونها مما بها من حصى وعفن؛ كان عملًا مملًا جدًّا. في النهاية، ارتطم الجاروف بالنعش، محدثًا صوتًا خافتًا لدى ارتطامه بالخشب، وفي غضون دقيقة أو دقيقتين كان الرجلان قد رفعاه فوق الأرض،

ثم نزعا الغطاء بمجاريفهم، وأخرجا الجثة وألقيا بها على الأرض في قسوة. بزغ القمر من وراء السحب وكشف عن وجهه الأصفر. كانت الناقلة جاهزة، فوضعوا الجثة بداخلها، وكسوها ببطانية، وثبتوها في مكانها بالحبل، ثم أخرج بوتر مطواة وقطع الطرف المتدلي من الحبل، وقال:

«قد أصبح هذا الشيء اللعين جاهزًا. حسنًا أيها الجراح، أعطني خمس عملات أخرى وإلَّا فستبقى الجثة هنا».

قال إنجون جو: «هذا هو الكلام!».

قال الطبيب: «ماذا يعني هذا؟ لقد طلبت أجرك مقدمًا، وقد دفعته لك».

قال إنجون جو، وهو يدنو من الطبيب، الذي نهض من مكانه: «هذا صحيح، بل لقد فعلت أكثر من ذلك؛ منذ خمس سنوات طردتني من مطبخ والدك في إحدى الليالي التي أتيت فيها أطلب طعامًا، اتهمتني بأنني لم أكن أنوي خيرًا، وعندما أقسمت أنني سأنتقم منك ولو بعد مئات السنين، زج بي والدك إلى السجن لأنني شريد. هل كنت تظن أنني سأنسى؟ إن دماء «إنجون» لا تجري في عروقي عبثًا. لقد أصبحت ملكي الآن، ويجب أن نحسم هذا الأمر كما تعلم!».

كان إنجون يهدد الطبيب موجهًا قبضة يده في وجهه، فضربه الطبيب على حين غرة وألقى بهذا الهجمي على الأرض، فيما أسقط بوتر سكينه وصاح:

«لا تضرب رفيقي!». في لحظة، كان قد اشتبك مع الطبيب، وأخذ الاثنان يتعاركان بكل ما أوتيا من قوة، فسحقا الحشائش ودقا الأرض بكعوبهم، ثم نهض إنجون جو سريعًا، وعيناه مشتعلتان بالغضب، وخطف سكين بوتر ثم زحف محدودبًا مثل القطة حولهما في دوائر، محاولًا العثور على منفذ. بحركة واحدة، تمكن الطبيب من تحرير نفسه، وأمسك بغطاء قبر ويليامز الثقيل، وضرب به بوتر فألقاه صريعًا. في تلك اللحظة، وجد الخلاسي الفرصة سانحة، فغرس السكين كله حتى المقبض في صدر الرجل الشاب، الذي ترنح وسقط بجزء من جسده فوق بوتر فكساه بدمائه. غطت السحب هذا المنظر المروع، ومضى الصبيان الخائفان مسرعين بعيدًا في الظلام.

عندما بزغ القمر مجددًا، في تلك اللحظة، كان إنجون جو يقف فوق الجثتين وهو يتأملهما. غمم الطبيب بكلام غير مفهوم، وخرجت عنه شهقة طويلة أو شهقتين، ثم سكن جسده، فتمتم الخلاسي:

«تمت تسوية هذا الحساب، عليك اللعنة».

سرق إنجون الجثة، ثم وضع السكين المشؤوم في يد بوتر اليمنى المنبسطة، وجلس فوق النعش المفتوح حتى مرت ثلاث، أو أربع أو خمس دقائق، ثم بدأ بوتر يتحرك ويتأوه. قبض بيده على السكين، ثم رفعها ونظر إليها، وتركها تسقط وهو يرتجف، ثم وقف وهو يزيح الجثة بعيدًا عنه. نظر إليها ثم نظر حوله بارتباك، والتقت عيناه بعيني جو.

قال: «يا إلهي، كيف حدث هذا يا جو؟».

قال جو دون أن يتحرك: «إنه فعل شنيع، لماذا فعلت ذلك؟».

«أنا! أنا لم أفعل شيئًا».

«اسمع! هذا الحديث لن ينطلي عليَّ».

ارتجف بوتر وشحب وجهه.

«لقد ظننت أنني أفقت من سكري، ما كان يجب أن أسكر الليلة، إن مفعول الخمر لا يزال في رأسي، إن مفعوله أقوى مما كان عليه عندما أتينا إلى هنا، أنا مشوش تمامًا، لا أستطيع سوى تذكر القليل مما حدث، قل لي بأمانة يا جو، فأنت صديق قديم، هل قتلته؟ جو، أقسم لك بحياتي وشرفي أنني لم أقصد، لم أقصد يا جو. احك لي كيف حدث الأمر يا جو. أوه، يا له من شيء مروع إنه شاب يافع جدًّا وواعد».

«اشتبكتما أنتما الاثنين، وضربك بغطاء القبر، فسقطت أرضًا ثم نهضت وأنت تترنح وتتعثر، وانتزعت السكين وطعنته بها، فأنزل بك ضربة أخرى مروعة، وهكذا سقطت هنا لا تحرك ساكنًا وكأنك وتد».

«أوه، لم أكن واعيًا وأنا أفعل ذلك، فلأمت الآن لو كنت واعيًا، أعتقد أن هذا كله حدث بسبب الويسكي وتأثيره، لم أستخدم سلاحًا في حياتي من قبل يا جو، لقد تشاجرت من قبل ولكنني لم أستخدم سلاحًا أبدًا، إن الجميع يشهد بذلك. جو، لا تش بي! عدني بأنك لن تشي بي يا جو، فهكذا يكون الصديق الجيد. لطالما

أحببتك يا جو، ووقفت إلى جانبك، ألا تتذكر؟ لن تشي بي، أليس كذلك يا جو؟».

وجثا المسكين على ركبتيه أمام القاتل متبلد المشاعر، مشبكًا يديه الضارعتين.

«لا، لقد كنت دائمًا عادلًا ومنصفًا معي يا ماف بوتر، ولن أطعنك في ظهرك، هذا أقل ما أقدمه لك».

«أوه، إنك ملك يا جو، سأدعو لك جزاءً على فعلتك هذه طالما حييت»، وأخذ بوتر في البكاء.

«هلم الآن، يكفي هذا، هذا ليس وقت النحيب، اذهب أنت من هذا الاتجاه وسأذهب أنا من هذا الاتجاه، تحرك الآن ولا تترك أثرًا وراءك».

انطلق بوتر مهرولًا، ثم ما لبث أن بدأ يركض، فيما تبعه الخلاسي بنظره.

تمتم:

«إذا كانت الضربة التي تلقاها والروم الذي شربه قد أحدثا أثرهما به، مثلما يبدو عليه، فلن يتذكر أمر السكين حتى يبتعد وسيخاف أن يعود إلى مثل هذا المكان بمفرده، قلب الفرخة هذا!».

بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، لم يكن يشهد على الرجل المقتول والجثة المغطاة والنعش المكشوف والقبر المفتوح سوى القمر، وعاد السكون من جديد.

# ١٠

أخذ الصبيان يركضان ويركضان تجاه القرية وقد أخرسهما الرعب، ويختلسان نظرات إلى الوراء، من فوق كتفيهما، من حين إلى آخر في قلق، إذ خشيا احتمالية أن يكونا ملاحقين. وبدت لهما كل عثرة يلقيانها في طريقهما رجلًا وعدوًّا يحبس أنفاسهما. وبينما كانا يركضان إلى جوار بعض الأكواخ النائية المجاورة للقرية، بدا وكأن نباح كلاب الحراسة الهائجة قد أعطى لأرجلهما أجنحة.

همس توم، وهو يلتقط أنفاسًا قصيرة: «لو استطعنا فقط أن نصل إلى المدبغة القديمة قبل أن ننهار! لا يمكنني التحمل أكثر من ذلك».

كان رد هكلبري الوحيد هو لهاثه الشديد. أبقى الصبيان عينيهما صوب الهدف الذي يحقق أملهما وعكفا على تحقيقه.

بعد مثابرة، تمكنا من تحقيق هدفهما، واندفعا بصدريهما في النهاية عبر باب مفتوح وسقطا تحت سقف مأواهما وقد انهكهما التعب وملأهما الامتنان، ورويدًا رويدًا أخذت ضربات قلبيهما تهدأ، وهمس توم:

«هكلبري، ما هي نتيجة ما حدث في رأيك؟».

«أعتقد أن الشنق سيكون مصيره، إذا مات الطبيب روبنسون».

«هل تعتقد ذلك؟».

«أنا متأكد من ذلك يا توم».

فكر توم قليلًا، ثم قال:

«من سيحكي ما حدث؟ نحن؟».

«ما هذا الذي تقوله؟ افترض أن شيئًا حدث ولم يُعدم إنجون جو؟ سيقتلنا عاجلًا أم آجلًا، هذا أمر مؤكد مثل حقيقة تواجدنا هنا».

«هذا ما كنت أفكر فيه يا هاك».

«إذا كان لأحد أن يشي، فليكن ماف بوتر. هذا إذا كان أحمقًا بما يكفي. إنه عادة ما يكون سكرانًا بما يكفي».

لم يقل توم شيئًا، وطفق يفكر، ثم همس:

«هاك، ماف بوتر لا يعلم ما حدث، كيف يمكنه أن يحكي؟».

«وما الذي يجعله لا يعلم؟».

«لأنه تلقى ضربة على رأسه قبل أن يفعل إنجون جو فعلته، هل تظن أنه رأى أيًا مما حدث؟ هل تعتقد أن يعلم أي شيء؟».

«يا إلهي، هذا صحيح يا توم!».

«وفوق هذا، إذا فكرنا قليلًا، ربما تكون الضربة قد أثرت في عقله!».

«لا، هذا غير محتمل يا توم؛ لقد كان تحت تأثير الكحول، كان هذا واضحًا، وفوق هذا، فهو دائمًا مخمور، عندما يكون أبي ثملًا تمامًا، يمكنك أن تضربه فوق رأسه، ولن يفيق، هو يقول ذلك بنفسه، وعليه فالأمر مماثل مع ماف بوتر بالتأكيد، لكن إذا كان الرجل واعيًا على نحو تام، فأعتقد أن الضربة ربما تؤثر فيه، لا أدرى».

بعد فترة أخرى من الصمت والتفكر، قال توم:

«هاكي، هل أنت متأكد أنك تستطيع إبقاء الأمر سرًا؟».

«يجب أن نبقي الأمر سرًا يا توم، أنت تعلم ذلك، إذا همسنا بكلمة عن هذا الأمر ولم يشنقوه، فسيقتلنا هذا الشيطان إنجون مثل قطتين، والآن استمع إليَّ جيدًا يا توم، دعنا نتعهد إلى أحدنا الآخر ونقسم أن نبقي الأمر سرًا، لأن هذا ما يجب علينا فعله».

«موافق، هذا أفضل حل، هل ستمسك بيدي فقط وتقسم أننا..».

«أوه لا، لن يفي هذا بالغرض. هذا يصلح فقط مع الأمور الشائعة التافهة، وبخاصة مع الفتيات، لأنهن ينقلبن ضدك في نهاية المطاف ويثرثرن عندما يغضبن. لكن مع أمر جلل كهذا، فيجب أن نستخدم الكتابة والدم».

تهلل كيان توم كله بهذه الفكرة، إذ كانت ماكرة وشريرة ومخيفة، وكان الوقت والظروف والمحيط ملائمين. التقط لوحًا نظيفًا من خشب الصنوبر كان ملقى تحت ضوء القمر، وأخرج من جيبه قطعة صغيرة من الحجر الأحمر واستعان بضوء القمر وهو ينقش هذه

السطور، بينما يضغط على لسانه بأسنانه وهو يحرك الحجر إلى أسفل، ويخفف من ضغطه وهو يحركها إلى أعلى.

«يقسم هاك فن وتوم سوير أن يُبقيا هذا الأمر سرًا، وليسقطا في مكانيهما ميتين إذا تكلما أو فتنا».

امتلأ هكلبري إعجابًا ببراعة توم في الكتابة وبإتقانه للغة، وجذب على الفور دبوسًا من طية سترته وكان على وشك أن يوخز نفسه، إلَّا أن توم بادره قائلًا:

«مهلًا! لا تفعل ذلك، الدبوس مصنوع من النحاس، ومن المحتمل أن يكون عليه غشاء أكسيدي ملون».

«ماذا يعني غشاء أكسيدي ملون؟».

«إنه سم، إذا ابتلعت بعضًا منه مرة واحدة فقط، فستعرف ما هو الغشاء الأكسيدي الملون».

وعليه، فك توم الخيط من حول إحدى إبرتيه، ووخز الاثنان عقلة إبهاميهما الكبيرة، وأخذا يضغطان حتى يخرج الدم. مع الوقت، وبعد العديد من الضغطات، تمكن توم من الإمضاء بتوقيع الحروف الأولى من اسمه، مستخدمًا عقلة إصبعه الأصغر كقلم، وعلم هكلبري كيف يكتب حرفي الهاء والفاء، وبهذا اكتمل القسم، ودفنا قطعة الخشب بالقرب من الحائط، وسط مراسم كئيبة تتخللها تعاويذ، وتم اعتبار الأصفاد التي قيدت لسانيهما مقفلة وأن المفتاح قد ألقي بعيدًا.

في تلك اللحظة، تسلل أحد الأشخاص سرًا عبر شق في الناحية الأخرى من المبنى المتهدم، إلَّا أنهما لم ينتبها إليه.

همس هكلبري: «توم، هل يمنعنا هذا من الحنث، إلى الأبد؟».

«بالطبع يمنعنا، ما يحدث لا يشكل فارقًا، يجب أن نبقي الأمر سرًا، وإلَّا سنسقط ميتين، ألا تدرك هذا؟».

«نعم، أعتقد أن هذا ما سيحدث».

ظلا يهمسان لبعض الوقت، حتى سمعا نباحًا طويلًا حزينًا آتيًا من على بعد عشر أقدام بالخارج، فتشبث أحدهما بالآخر على الفور من الخوف.

شهق هكلبري: «أينا يقصد بنباحه؟».

«لا أدري، استرق النظر عبر الشق، أسرع!».

«لا، فلتفعل أنت ذلك يا توم!».

«لا أستطيع، لا أستطيع القيام بذلك يا هاك!».

«من فضلك يا توم، إنه ينبح مجددًا!».

همس توم: «أوه يا إلهي، أنا أشعر بالامتنان! لقد تعرفت على صوته، إنه الكلب بال هاربيسون».

«أوه، هذا جيد، كدت أموت من الخوف يا توم، كدت أراهن على أي شيء أنه كلب ضال».

نبح الكلب ثانية، فوجل الصبيان من جديد.

همس هكلبري: «أوه، يا إلهي! هذا ليس بال هاربيسون! فلتسترق النظر يا توم!».

استجاب توم لطلبه وهو يرتعد من الخوف، واسترق النظر عبر الشق، ثم قال هامسًا بصوت لا يكاد يكون مسموعًا:

«أوه يا هاك، إنه كلب ضال!».

«أسرع يا توم أسرع! عن من يبحث؟».

«هاك، إنه قد جاء وراءنا نحن الاثنين، فنحنُ معًا».

«أوه توم، أعتقد أننا هالكان، ولا أعتقد أن هناك شكًا إلى أين سيؤول مصيري، لقد كنت سيئًا جدًّا».

«يا إلهي! كل هذا من وراء التغيب عن المدرسة والقيام بكل الأشياء التي نُهيت عنها. كان من الممكن أن أكون مطيعًا مثل سيد إذا كنت قد حاولت، لكن لا، لم أحاول بالطبع. لكن إذا نجوت هذه المرة، فأتعهد أنني سأنتبه في مدرسة يوم الأحد!»، وبدأ توم يغالب بدموعه.

«أنت سيء!» وبدأ هكلبري يتهدج هو الآخر، ثم قال: «اللعنة يا توم سوير، أنت برئ مقارنة بما أنا عليه، أوه، يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي، يا ليت كان لدي نصف فرصك في الحياة».

دُهش توم فجأة وهمس:

«انظر يا هاكي، انظر! لقد أعطانا ظهره!».

نظر هاكي، والفرحة تملأ قلبه.

«يا إلهي، هذا صحيح! هل فعل هذا من قبل؟».

«نعم، فعلها من قبل، لكنني كالأحمق لم أفكر في الأمر، أوه، إنه بولي، من ذا الذي يمكن أن يكون قد أتى وراءه؟».

توقف النباح، وأطرق توم.

ثم همس قائلًا: «صه! ما هذا؟».

«يبدو كما لو.. كما لو أنها خنازير تشخر. لا، إن أحدًا يغط في نومه يا توم».

«حقًّا! أين هو يا هاك؟».

«أعتقد أنه عند الطرف الآخر، أو على الأقل هذا ما يبدو، لقد اعتاد والدي أن ينام هناك مع الخنازير، في بعض الأحيان، لكن يا إلهي، إنه ينحي كل شيء جانبًا عندما يكون نائمًا، وفوق هذا، أعتقد أنه لن يعود إلى هذه البلدة أبدًا بعد الآن».

ملأت روح المغامرة حماس الصبيين من جديد.

«هاك، هل تأتي معي إذا قدت أنا المسير؟».

«لا أحبذ الفكرة كثيرًا يا توم، ماذا لو كان إنجون جو!».

شعر توم بالخوف، إلَّا أن حماسه كان قد تزايد في تلك اللحظة بدرجة قوية. استقر الصبيان على أن يحاولا واتفقا أنه إذا توقف الغطيط فسيطلقان ساقيهما للريح. وعليه، تقدم الاثنان على أطراف أصابعهما في خلسة، أحدهما وراء الآخر، وعندما أصبحا على بعد خمس خطوات من هذا الشخص النائم، دهس توم بقدمه عصا،

فانكسرت محدثة طقطقة حادة. تأوه الرجل، وتقلب قليلًا، فانسدل على وجهه ضوء القمر.

كان هذا الشخص هو ماف بوتر. توقف قلب الصبيين، وماتت آمالهما، عندما تحرك، إلَّا أن مخاوفهما تبددت في تلك اللحظة، وتسلل على أطراف أصابعهما إلى الخارج، عبر الألواح المتواجدة على عتبة الباب لمنع دخول الماء. توقف الاثنان عند مسافة قريبة ليتبادلا كلمات الوداع، فسمعا من جديد صوت النباح الحزين الطويل عبر هواء الليل! التفتا فوجدا الكلب الغريب يقف على بعد بضع أقدام من المكان الذي ينام فيه بوتر، وقد وقف أمامه موليًّا أنفه شطر السماء.

صاح الصبيان في نفس واحد: «يا إلهي، إنه هو!».

«توم، لقد سمعت أن كلبًا ضالًا ذهب بالقرب من منزل جوني ميلر، وأخذ ينبح قرب منتصف الليل، منذ أسبوعين، وأن طائر السُّبَد دخل ووقف فوق الدرابزين وأخذ يغرد في الليلة ذاتها، ولم يمت هناك أحد بعد».

«لقد علمت بالأمر، لكن لنفترض أن أحدًا لم يمت، ألم تسقط جرايسي ميلر في موقد المطبخ وتعرضت لحرق فظيع في يوم السبت الذي تلا تلك الواقعة؟».

«نعم، لكنها لم تمت، وفضلًا عن ذلك فإنها تتحسن أيضًا».

«حسنًا، فلننتظر ونرى، لكنها هالكة مثلها مثل ماف بوتر، هذا ما يقوله الزنوج، وهم الأكثر دراية بهذه الأمور يا هاك».

تفرق الاثنان، وقد انشغل باليهما. عندما تسلل توم عبر نافذة غرفة نومه، كان الليل قد انقضى تقريبًا. نزع ملابسه بحرص زائد عن الحد، وغرق في النوم مهنئًا نفسه بأن أحدًا لم ينتبه إلى هروبه. لم يكن يعلم أن سيد الذي كان يتنفس بهدوء، مستيقظ، وأنه قد ظل على هذه الحالة منذ ساعة.

عندما استيقظ توم، كان سيد قد ارتدى ملابسه ورحل. كان الضوء يعطي إحساسًا بأن الوقت قد تأخر، فهلع توم؛ لماذا لم يناد عليه كالعادة ويزعجه حتى يستيقظ؟ شعر بنذير سوء. خلال خمس دقائق، كان توم قد ارتدى ملابسه وهبط الدرج وهو يشعر بالتعب والنعاس. كانت العائلة لا تزال على الطاولة، رغم أنهم كانوا قد انتهوا من فطورهم. لم يسمع كلمة تأنيب، لكن كان هناك تحاشي لتبادل النظرات، وكان هناك صمت وإحساس بالمهابة جعل قلبه الذي يشعر بالذنب يقشعر. جلس توم وحاول أن يبدو بشوشًا، إلَّا أن الأمر كان صعبًا، إذ لم تخرج عنهم ابتسامة أو رد، وعليه غرق في الصمت وترك قلبه يغرق هو الآخر حتى الأعماق.

بعد الإفطار، أخذته خالته جانبًا. كاد يتهلل بأمل أنه سيُضرب بالسوط، إلَّا أن الأمر لم يسير على هذا النحو. بكت خالته وسألته كيف استطاع أن يتسلل ويفطر قلبها العجوز هكذا، وأخبرته أن يستمر في تدمير نفسه، ويرهقها حتى تموت، لأنه لم تعد هناك فائدة من محاولتها مجددًا. كان هذا أسوأ من ألف ضربة سوط. وقد شعر توم في تلك اللحظة بتعب في قلبه أكثر من ذلك الذي كان يشعر به

في جسده. بكى، والتمس الصفح، وكرر وعودًا بأنه سيصلح من نفسه، حتى أذن له بالانصراف وهو يشعر بأنه لم يحظ سوى بصفح غير مكتمل، وبأنه لم يؤسس سوى لثقة مزعزعة.

بعد أن انتهت خالته، انصرف تعيسًا لدرجة لم يتمكن معها من الشعور برغبة في الانتقام من سيد، وعليه كان هروب سيد عبر الباب الخلفي أمرًا غير ضروري. ذهب إلى المدرسة مغتمًا وحزينًا، وعوقب هو وجو هاربر على التغيب عن المدرسة في اليوم الفائت، بقلب شخص مهموم بمشاكل أشد وطأة؛ قد فتر لديه أي اهتمام بتوافه الأمور. ذهب ليجلس في مقعده، وأرخى مرفقيه فوق المقعد ووضع ذقنه بين يديه، وحدق ناحية الحائط بنظرة تنم عن معاناة قد وصلت إلى ذروتها، ولا يمكن أن تتزايد أكثر من ذلك. كان مرفقه مستقرًا فوق شيء صلب. بعد فترة طويلة، غيَّر جلسته ببطء وحزن، وأمسك بهذا الشيء الصلب متنهدًا. كان ملفوفًا في ورقة، ففتح هذه الورقة مطلقًا تنهيدة ضخمة متباطئة وطويلة. انكسر قلبه، لقد كان هذا مقبضه النحاسي الخاص بالأُثْفِيّة!

وكانت هذه القشة الأخيرة التي قسمت ظهر البعير.

# ١١

عندما اقترب الوقت من الظهيرة، كانت القرية بأكملها قد صعقها الخبر المروع. لم تكن هناك حاجة إلى التلجراف، الذي لم نكن نحلم به حينئذ، فقد انتقلت الحكاية من رجل إلى رجل، ومن جماعة إلى جماعة، ومن منزل إلى منزل، في وقت أقل من ذلك الذي يستغرقه التلجراف. وبالطبع، جعل ناظر المدرسة بقية اليوم إجازة، إذ إن البلدة كانت لتعتبر الأمر غريبًا لو أنه لم يفعل ذلك.

عُثِر على سكين ملطخ بالدماء بالقرب من القتيل، وتعرف عليها أحد الأشخاص، الذي أشار إلى أنها تخص ماف بوتر، وهكذا انتشرت القصة.

وقيل أيضًا إن أحد الأشخاص قد مر ببوتر، في وقت متأخر، ووجده يغتسل في ممر مائي حوالي الساعة الواحدة أو الثانية صباحًا، وأن بوتر ابتعد على الفور في تلك اللحظة. كانت ملابسات مريبة، خصوصًا الاغتسال الذي لم يكن من عادات بوتر. وقيل أيضًا إن البلدة قد تم تفتيشها بحثًا عن هذا القاتل (العامة لا يتأخرون عن

فحص الأدلة والوصول إلى حكم)، لكن لم يتم العثور عليه. تفرق الفرسان في كل الطرقات من كل اتجاه، وكان رئيس الشرطة واثقًا من أنه سيتم القبض عليه قبل حلول الليل.

توجهت البلدة بأكملها ناحية المدافن، وتلاشى حزن توم وانضم إلى الركب، ليس لأنه لا يفضل ألف مرة أن يذهب إلى أي مكان آخر، وإنما لأن شعورًا هائلًا بالانجذاب غير المبرر قد دفعه إلى الذهاب. وعندما وصل إلى ذلك المكان المهيب، تسلل بجسده الضئيل كالدودة من بين الحشود، ورأى المنظر الموحش. بدا له كما لو أن زمنًا قد مر منذ أن كان هنا آخر مرة. قرص أحدهم ذراعه، فالتفت والتقت عيناه بعيني هكلبري، فأبعدا عينيهما على الفور، وتساءلا إن كان أحد قد لاحظ أي شيء من نظرتهما المتبادلة، إلَّا أن الجميع كان يتحدث وقد انصب تركيزهم على المنظر المروع أمامهم.

«المسكين!» «المسكين الشاب!» «عسى أن يكون هذا عظة لسارقي القبور!» «سيتعرض ماف بوتر للشنق إذا أمسكوا به!»، هكذا تتابعت التعليقات، وقال القس: «إنها العدالة. يد الرب معنا».

في تلك اللحظة، وقعت عينا توم على الوجه المتبلد لإنجون جو، فارتجف من رأسه إلى أخمص قدميه. بدأ الحشد فجأة في التحرك والتدافع، وارتفعت الأصوات قائلة: «ها هو! ها هو! لقد أتى بنفسه!».

تساءل عشرون شخصًا: «من؟ من؟».

«ماف بوتر!».

«أهلًا، لقد توقف! انتبهوا، إنه يلتفت! لا تدعوه يفلت!».

قال البعض، ممن كانوا يعتلون فروع الأشجار، من فوق رأس توم، إنه لم يكن يحاول الهرب، وإنما بدا متشككًا ومتحيرًا فقط.

قال أحد المتفرجين: «وقاحة شيطان! أراد أن يأتي ويلقي نظرة على نتاج عمله في هدوء، لم يتوقع أن يكون أحد هنا».

في تلك اللحظة، تفرق الحشد وخرج رئيس الشرطة من وسطهم متباهيًا وهو يقود بوتر وقد أمسك بذراعه. كان وجه المسكين مجهدًا، وكشفت عيناه عن الخوف الذي كان يعيشه. عندما وقف أمام القتيل، ارتجف كما لو كان مصابًا بالشلل الرعاش، ووضع وجه بين يديه وأجهش بالبكاء.

بكى قائلًا: «لم أقتله يا جماعة، أقسم بشرفي أنني لم أقتله».

صاح أحدهم: «ومن اتهمك؟».

كانت هذه بمثابة الضربة القاضية. رفع بوتر رأسه ونظر حوله واليأس يملأ عينيه، على نحو يثير التعاطف، فرأى إنجون جو، وصاح قائلًا:

«أوه، إنجون جو، لقد تعهدت لي بأنك لن..».

دفع رئيس الشرطة بالسكين في وجهه، وسأله: «هل هذه سكينك؟».

كاد بوتر يهوى على الأرض، لولا أن أمسكوا به وأنزلوه برفق، ثم قال:

«انتابني شعور ما بأنني إن لم آت وآخذ...»، ارتجف ثم لوح بيده الواهنة، في حركة تدل على الانهزام، وقال: «أخبرهم يا جو، أخبرهم، لم يعد الأمر مجديًا».

وقف هكلبري وتوم، وهما يتابعان ما يحدث في ذهول. استمعا إلى ذلك الكاذب متحجر القلب، وهو يدلي بشهادته في ثقة، وانتظرا أن تنزل فوق رأسه صاعقة من السماء الصافية، وتعجبا عندما تأخرت. عندما انتهى من الإدلاء بشهادته، وهو لا يزال حيًّا سالمًا، تلاشت رغبتهم المتزعزعة في أن يحنثوا بقسمهم وينقذوا حياة المتهم المسكين الذي تعرض للخيانة، إذ بدا من الواضح أن هذا الآثم قد باع نفسه للشيطان وأن التدخل في شؤون شخص لديه مثل هذه القوة مهلكًا.

تأوه بوتر: «لم يكن الأمر بيدي، لم يكن الأمر بيدي، لقد أردت أن أهرب، لكن لم يتراءى لي الذهاب إلى أي مكان عدا هنا»، ثم عاود البكاء مجددًا.

أدلى إنجون جو بشهادته مجددًا، بنفس الهدوء، عندما استجوبوه بعد بضع دقائق. عندما رأى الصبيان أن الصاعقة قد احتُبست، ثبت لديهما أن جو قد باع نفسه للشيطان، وأصبح في نظريهما الشخص الأكثر شرًا وإثارة للاهتمام الذي وقعت عيناهما عليه، ولم يتمكنا من أن يرفعا عينيهما المذهولة من على وجهه.

وقررا في سرهما أن يراقباه كل ليلة، كلما سنحت الفرصة، على أمل أن يلمحا طرف سيده المرعب.

عاونهم إنجون جو في حمل جثة القتيل، ووضعه في عربة الموتى.

سرى همس وسط الحشد المرتجف بأن الجرح ينزف قليلًا! ظن الصبيان أن هذا الخبر السعيد سيوجه الشكوك في الاتجاه الصحيح، إلَّا أن أملهما خاب، بعد أن علق أكثر من واحد قائلًا:

«كان على بعد ثلاث أقدام من ماف بوتر، عندما فعل فعلته».

ظل هذا السر المخيف يؤرق توم ويؤلم ضميره، لمدة أسبوع بعد أن وقع الحادث. وفي أحد الصباحات أثناء الفطور، قال سيد:

«توم، إنك تتقلب وتتكلم كثيرًا أثناء نومك، لدرجة أنك تبقيني مستقيظًا نصف الوقت».

شحب وجه توم وغض طرفه.

قالت الخالة بولي في قلق: «إنها علامة سيئة، ما الذي يشغل بالك يا توم؟».

«لا شيء، لا شيء»، إلَّا أن يد الفتى ارتجفت وسكب قهوته.

قال سيد: «وتتحدث عن تلك الأمور، الليلة الماضية قلت «إنه دم، إنه دم!»، وكررتها كثيرًا، وقلت أيضًا «لا تضغط عليَّ هكذا، سأحكي!» تحكي ماذا؟ ما هذا الذي ستحكيه؟».

كان كل شيء يمر أمام عينيه، لكن لم يكن هناك سبيل أن يسرد ما حدث. لحسن حظه، انحسر القلق من على وجه الخالة بولي، وأنقذت توم دون وعي، قائلة:

«يا إلهي! إنه ذلك القاتل المخيف، أنا نفسي أحلم به كل ليلة تقريبًا. في بعض الأحيان، أحلم أنني من فعلت تلك الفعلة».

وقالت ماري إنها أيضًا تأثرت بنفس القدر، وبدا سيد مقتنعًا بالأمر، وانتهى استجواب توم بأسرع ما يمكن. ظل توم يشكو من ألم في أسنانه لمدة أسبوع، ويربط فكه كل ليلة. لم يكن يعلم أن سيد كان يراقبه كل ليلة، وأنه كثيرًا ما كان يزيل الضمادة، ويستند إلى ذراعه لفترة لا بأس بها من الوقت، ويستمع إلى ما يتمتم به، ثم يعيد الضمادة إلى مكانها مجددًا. تلاشى تشوش ذهن توم تدريجيًّا، وأصبحت حجة ألم الإنسان غير مقبولة ولم يعد يؤخذ بها. إن كان سيد قد تمكن من فهم أي من تمتمات توم غير المترابطة، فقد احتفظ بما فهمه لنفسه.

بدا لتوم أن زملاءه لن يتوقفوا عن لعبة إجراء التحقيقات في مقتل القطط، وعليه بقي كربه حيًّا بداخله.

لاحظ سيد أن توم لم يلعب أبدًا دور المحقق فى أسباب الوفاة في أي من هذه التحقيقات، على الرغم من أنه كان عادة ما يأخذ زمام المبادرة في كل ما هو جديد، ولاحظ أيضًا أن توم لم يلعب دور الشاهد أبدًا، وكان هذا غريبًا. ولم تغب أيضًا عن سيد حقيقة أن توم قد أبدى نفورًا واضحًا تجاه هذه التحقيقات، وأنه كان دائمًا ما يتجنبها طالما كان ذلك ممكنًا. تعجب سيد من الأمر، ولكنه لم يقل شيئًا. من ناحية ثانية، خف رواج هذه التحقيقات في نهاية الأمر، ولم تعد تعذب ضمير توم.

في تلك الأثناء، كان توم ينتهز الفرصة، ويذهب كل يوم أو يومين إلى نافذة السجن الصغيرة المغلقة بالقضبان، ويهرب

إلى «القاتل» كل ما استطاع أن يضع عليه يده من وسائل الراحة الصغيرة. كان السجن وكرًا حقيرًا مبني من الطوب الصغير، ويقع في مستنقع عند طرف القرية، لم يكن تحت أي حراسة، إذ ندر أن يكون بداخله أحد، وقد ساعدت هذه المعونات التي هربها توم إلى الداخل على أن يرتاح ضميره.

رغب الفلاحون بشدة في أن يكسوا إنجون جو بالقطران والريش ويضعونه فوق شريط السكة الحديد، عقابًا له على سرقة الجثث، إلَّا أن شخصيته المرعبة لم تجعل أحدًا على استعداد أن يبادر بالأمر، وعليه تخلوا عن الفكرة. حرص إنجون على أن يبدأ أقواله في كلا التحقيقين، اللذين أجريا معه، بالحديث عن العراك دون الاعتراف بسرقة القبر التي سبقت ذلك، وعليه كان من الحكمة ألَّا تُرفع القضية إلى المحاكم في الوقت الحاضر.

# ١٢

أحد الأسباب التي جعلت ذهن توم ينصرف عن همومه السرية كان أنه وجد شيئًا جديدًا هامًا يشغل نفسه به، وهو بيكي ثاتشر، التي كانت انقطعت عن المدرسة، وظل توم يقاوم كبرياءه عدة أيام، محاولًا «هجرها»، إلَّا أنه فشل، وما لبث أن أخذ يتسكع حول منزل والدها ليلًا، وهو يشعر بحزن شديد، إذ إنها كانت مريضة، ماذا لو كانت ستموت!

كان مشتت الذهن؛ لم تعد المعارك أو القرصنة تهمه، اختفى سحر الحياة ولم تبق سوى الوحشة، ووضع طوقه ومضربه، اللذين لم يعودا يجلبان إليه السعادة، جانبًا. شعرت خالته بالقلق، وبدأت تجرب معه جميع أنواع العلاج، لأنها كانت واحدة من هؤلاء الأشخاص المهووسين بالأدوية المسجلة وجميع الأساليب المبتكرة حديثًا للحفاظ على الصحة أو تحسينها، وقد كانت محنكة في تجربة هذه الأمور، وكانت عند ظهور شيء جديد في هذا المجال تتحمس لتجربته على الفور؛ ليس على نفسها لأنها لم تكن تمرض أبدًا، وإنما

على أي شخص آخر يكون من السهل تجربته عليه. كانت مشتركة في جميع الدوريات «الصحية» وجميع ترهات علم فراسة الدماغ، وكان الجهل المطبق الغارقة فيه هذه الدوريات بمثابة الهواء الذي تتنفسه، كل الـ«عفن» الذي تتناوله بخصوص تجديد الهواء، وكيفية النوم، وكيفية الاستيقاظ، وماذا تأكل، وماذا تشرب، وكم الرياضة التي تمارسها، وما هي الحالة النفسية التي على المرء أن يبقي نفسه فيها، وما هو نوع الملابس التي يجب عليه ارتدائها، كان جميعه مقدسًا في نظرها، ولم تلحظ أبدًا أن دوريات الصحة لهذا الشهر عادة ما تخالف كل ما كانوا يوصون به في الشهر الذي يسبقه. كانت ساذجة لها قلب طيب بشكل يفوق الخيال، وعليه فقد كانت صيدًا سهلًا. جمعت دورياتها المخادعة وأدويتها الباطلة، حتى أصبحت متسلحة بالموت، وامتطت جوادها الأشهب، وأنا أتكلم مجازيًّا هنا، و«الجحيم في عقبها»، ومع هذا فلم تشك أبدًا في أنها لم تكن تظهر بمظهر ملك الشفاء وبلسم جلعاد لجيرانها المتألمين.

كان العلاج بالماء أمرًا جديدًا في ذلك الوقت، وكانت حالة توم فرصة غير متوقعة لخالته، وعليه كانت تُخرجه كل صباح في ضوء النهار، وتجعله يقف في مخزن الحطب وتسكب فوقه الكثير من الماء البارد، ثم تدعكه بمنشفة كما لو أنها مبرد، ثم تحمله ملفوفًا في ملاءة مبتلة، وتضعه تحت الأغطية حتى يخرج منه العرق مطهرًا له، و«تخرج البقع الصفراء من مسامه» مثلما يقول توم.

ورغم كل ذلك، ازداد الفتى حزنًا وشحوبًا وغمًا، جربت خالته الاستحمام بالماء الساخن، وغمس الأرداف فقط في الماء، وغسل

سائر الجسد، وغمسه في الماء، إلَّا أن الفتى ظل كئيبًا كأنه عربة نقل موتى، فبدأت تضيف إلى العلاج بالماء نظامًا غذائيًّا بسيطًا قوامه الشوفان والأشرطة اللاصقة. لقد اختبرت قدرته على التحمل بينما هو في أسرها، وملأت جوفه كل يوم بتلك الأدوية الزائفة الموصوفة لجميع الأمراض.

أصبح توم، خلال تلك الفترة، باردًا تجاه التعنيف، ما ملأ قلب السيدة العجوز رعبًا. يجب أن تنتهي عدم اللامبالاة هذه بأي ثمن، وسمعت في ذلك الوقت عن مسكنات الألم للمرة الأولى، فطلبت الكثير منها على الفور، وتذوقتها وحازت على رضاها، وقد كان المسكن ببساطة مثل نار على هيئة سائل، فتخلت عن العلاج بالماء وعن كل شيء آخر، ووضعت ثقتها في مسكنات الألم، وأعطت منها توم ملء ملعقة شاي وراقبته بقلق عميق انتظارًا للنتيجة. انتهت متاعبها على الفور، وهدأت روحها من جديد، إذ تلاشت لا مبالاته. لو كانت قد أشعلت نارًا تحت الفتى، لم يكن ليمتلئ بالحيوية بهذا الشكل ومن عميق قلبه أكثر مما امتلأ.

شعر توم بأن الوقت قد حان لأن يعود إلى حيويته، إذ على الرغم من أن أسلوب الحياة هذا من الممكن أن يكون إبداعيًّا بما يكفي، في حالته المزرية هذه، فقد انطوى على بعض الشفقة والكثير من المشتتات، وعليه فقد فكر في خطط متنوعة للخلاص، وأخيرًا اهتدى إلى أن يقول إنه أصبح مولعًا بمسكنات الألم، وهكذا ظل يطلبها كثيرًا حتى أصبح مصدرًا للإزعاج، وانتهى الأمر إلى أن أخبرته خالته أن يأخذ منها بنفسه ويتوقف عن إزعاجها. لو كان

سيد هو من يطلب، لما ظل وسواسها يعكر عليها صفو حياتها، ولأنه كان توم فقد راقبت زجاجة الدواء سرًا، وقد وجدت أنه تضاءل جدًّا، إلَّا أنه لم يخطر إلى بالها أن الفتى يعالج به صحة شق في أرضية غرفة الجلوس.

في أحد الأيام التي كان يدواي فيها توم الشق، مر به قط خالته الأصفر وهو يهرهر وينظر إلى ملعقة الشاي في نهم ويتوسل إليه أن يتذوق. قال توم:

«لا تطلبه إلَّا إذا كنت تريده يا بيتر».

أبدى بيتر رغبته فيه بإيماءة.

«يستحسن أن تكون متأكدًا».

كان بيتر متأكدًا.

«لقد طلبته، وسأعطيك منه، لأنني لست نذلًا، لكن إن لم يعجبك، فلا تلومن إلَّا نفسك».

وافق بيتر، ومن ثم فتح توم فم الأول، وسكب فيه المسكن، فقفز بيتر في الهواء مسافة ياردتين، صائحًا ومنطلقًا في جميع أرجاء الغرفة وهو يرتطم بالأثاث ويقلب آنية الزهور، محدثًا دمارًا شاملًا، ثم وقف على قدميه الخلفيتين وأخذ يقفز في سرور، رافعًا رأسه فوق كتفه بينما يخرج مواءً معبرًا عن سعادة لا شك فيها، ثم انطلق من جديد في أرجاء المنزل، ناشرًا الفوضى والتدمير في طريقه. دخلت الخالة بولي الغرفة في اللحظة التي كان يؤدي فيها مجموعة من

الشقلبات الأكروباتية، وهو يصيح بقوة للمرة الأخيرة قبل أن ينطلق عبر النافذة المفتوحة حاملًا معه ما تبقى من آنية الزهور. وقفت السيدة العجوزة مشدوهة من المفاجأة، تنظر من فوق نظارتها، بينما سقط توم على الأرض ميتًا من الضحك.

«توم، ما الذي حدث للقط؟».

قال الفتى لاهثًا: «لا أعلم يا خالتي».

«لم أر شيئًا مماثلًا من قبل، ما الذي جعله يتصرف هكذا؟».

«لا أدري حقًّا يا خالة بولي، القطط دائمًا ما تتصرف على هذا النحو عندما تكون سعيدة».

«فعلًا. أليس كذلك؟». كان هناك شيء في نبرة صوتها جعل توم يشعر بالقلق.

«نعم يا سيدتي. هذا هو الأمر وما فيه، إنني أعتقد هذا».

«أحقًّا تعتقد هذا؟».

«نعم يا سيدتي».

انحنت السيدة العجوز على الأرض باهتمام يشوبه القلق، بينما أخذ توم يراقبها حتى أدرك متأخرًا سبب هذا «التركيز»، إذ إن يد ملعقة الشاي الفاضحة قد بدت من تحت الشريط المزين للفراش. أمسكت بها الخالة بولي ورفعتها، فجفل توم ونظر إلى الأرض. شدته الخالة بولي من الموضع المعتاد -أذنه- ونقرت رأسه بكشتبانها في هدوء.

«والآن يا أفندي، ما الذي كنت تحاول علاجه في هذا الحيوان المسكين الأخرس؟».

«لقد فعلت ذلك بدافع الشفقة، إن ليس لديه خالة».

«ليس لديه خالة! ما دخل هذا بذاك أيها الأبله؟».

«بالطبع له دخل، لو كانت لديه خالة لكانت أعطته المسكن بنفسها! وكانت لتحترق أمعاءه من أثر الدواء تمامًا مثل أي بشر أخذ الدواء!».

شعرت الخالة بولي بندم مفاجئ، لقد تحول مسار الأحداث، إذ إن ما هو قاس على القط من المحتمل أن يكون قاسيًا على الصبي أيضًا، وعليه بدأت تلين وتشعر بالأسف؛ دمعت عيناها قليلًا، ثم وضعت يدها فوق رأس توم وقالت بلطف:

«لقد كانت نيتي خيرًا يا توم، وقد أفادك الدواء يا توم».

نظر إليها توم، بينما تتسلل السعادة البادية وراء الطابع الجدي الذي يأخذه.

«أعلم أن نيتك كانت خيرًا يا خالتي، وهكذا كنت أنا مع بيتر، وقد أفادته أيضًا، لم أره حيويًّا هكذا منذ..».

«اذهب يا توم قبل أن تستفزني من جديد، جرب وانظر إن كان باستطاعتك أن تكون فتى جيدًا، ولو لمرة واحدة، بدون حاجة إلى المزيد من الدواء».

وصل توم إلى المدرسة مبكرًا، وقد أصبح تكرار هذا الأمر

الغريب في الفترة الأخيرة أمرًا ملحوظًا، إلَّا أنه كان يبقي نفسه متأخرًا كالعادة، إذ يظل يتسكع عند باب باحة المدرسة بدلًا من أن يلعب مع رفاقه. كان يقول إنه مريض، وقد كان يبدو عليه المرض، حاول أن يتظاهر أنه ينظر إلى كل الاتجاهات، إلَّا أنه كان ينظر فقط إلى الشارع. في تلك اللحظة، ظهر جيف تاتشر في الأفق، فأشرق وجه توم ودقق النظر لحظة ثم أدار رأسه بأسى. عندما اقترب جيف، بادأه توم بالحديث، وأخذ «يستدرجه» بحذر إلى فرص للحديث عن بيكي، إلَّا أنه لم يلتقط الطعم. استمر توم في مراقبته، على أمل أن يحين الوقت الذي يظهر في الأفق رداء متراقص، وما أن يكتشف أنها ليست الشخص المطلوب، كان يشعر بالكره تجاهها على الفور. في النهاية، توقفت الأردية عن الظهور، واستسلم بيأس إلى الاكتئاب، ودخل إلى مبنى المدرسة الخالي وجلس في حزن، ثم دلف عبر الباب رداء آخر، فدق قلب توم بقوة، وعلى الفور انطلق إلى الخارج مثل هندي؛ يصيح ويضحك ويركض وراء الفتيان، ويقفز فوق السور مهددًا لحياته وأطراف جسده، ويؤدي حركات أكروباتية على يديه بينما يقف على رأسه. كان يقوم بكل الأعمال البطولية التي تخطر إليه، بينما يختلس النظر في أثناء ذلك ليرى ما إذا كانت بيكي ثاتشر منتبهة، إلَّا أنها بدت غير مدركة لما يحدث تمامًا، ولم تنظر إليه أبدًا. هل يُحتمل ألا تكون منتبهة إلى وجوده؟ انتقل بأعماله البطولية ليصبح قريبًا منها بشكل مباشر، وانطلق صائحًا في كل مكان، وانتزع قبعة أحد الصبيان، وألقى بها إلى سقف مبنى المدرسة، واخترق مجموعة من الصبية متسببًا في سقوطهم في كل

مكان، ليسقط هو الآخر ممددًا تحت أنف بيكي على نحو يبدو أنه أزعجها. التفتت وأنفها في الهواء، وسمعها تقول: «أوف! يحسب البعض أنفسهم أذكياء جدًّا؛ دائمو التباهي!».

شعر توم بسخونة في وجنتيه، فلملم شتات نفسه وانسل خارجًا، محطمًا مغتمًا.

# ١٣

كان توم مكتئبًا ويائسًا في تلك اللحظة، ورسخ في اعتقاده أنه فتى منبوذ ليس لديه أصدقاء ولا يحبه أحد، وعندما يكتشفون إلى أين دفعوا به، فربما يأسفون، لقد حاول أن يتصرف بطريقة صحيحة وأن ينسجم معهم، إلَّا أنهم لم يسمحوا له، وطالما أنهم لن يرضوا سوى بالتخلص منه، فلا يلومونه على النتائج، ولم لا؟ أي حق في الشكوى يمتلكه من ليس له أصدقاء؟ نعم، سيخوض عالم الجريمة، لقد أجبروه على أن يفعل ذلك في النهاية، لم يكن هناك خيار.

كان حينئذ قد ابتعد ليصبح بالقرب من «ميدو لين»، وهفا إلى سمعه بصوت ضعيف دق جرس المدرسة، إيذانًا ببدء اليوم الدراسي، وجعله التفكير، في أنه لن يسمع هذا الصوت المألوف مرة أخرى أبدًا، يبكي، لقد كان وقع الجرس عليه صعبًا جدًّا، لكنه كان مُكرهًا وطالما أنه نُبِذ إلى العالم البارد، فعليه الرضوخ، لن يلومهم. ومن ثم انهمرت دموعه بكثافة وبسرعة.

في تلك اللحظة، التقى رفيقه الأقرب جو هاربر، الذي كانت

عيناه متحجرتين وتتملك قلبه رغبة قوية كئيبة، باختصار، كانا «روحين تملكهما فكرة واحدة فقط». أخذ توم يتمتم، وهو يمسح عينيه بكمه، يتمتم عن الهروب من الاستغلال القاسي وقلة التعاطف في المنزل كحل ليجوب العالم الكبير بالخارج ولا يعود أبدًا، منهيًا حديثه بأمل ألَّا ينساه جو.

واتضح أن هذه الرغبة كانت الطلب الذي جاء من أجله جو بحثًا عن توم، إذ إن والدته كانت قد ضربته عقابًا على تناول قشدة لم يذقها ولم يكن يعرف عنها شيئًا، بدا كما لو أنها قد سئمت منه وتمنت رحيله، وإذا كان هذا هو ما تشعر به، فليس أمامه سوى الرضوخ، تمنى أن تكون سعيدة وألا تندم أبدًا على طرد ابنها المسكين خارجًا، إلى العالم القاسي ليعاني ويموت.

بينما يسير الصبيان حزينين، قطعا على نفسيهما عهدًا جديدًا بأن يقفا إلى جانب أحدهما الآخر، وأن يكونا أخوة، وألا يفترقا حتى يخلصهما الموت من همومهما، ثم شرعا في الحديث عن خططهما بأن يكون جو ناسكًا وأن يعيش على الفتات في كهف بعيد حتى يموت من البرد والاحتياج والألم، في وقت ما، إلَّا أنه بعد أن استمع إلى توم، أقر بوجود بعض المزايا الجلية في حياة الجريمة، وعليه استقر على أن يكون قرصانًا.

على بعد ثلاثة أميال من سانت بطرسبرج، وعند بقعة بدا فيها نهر المسيسيبي نقطة وسط ميل، كانت هناك جزيرة شجرية طويلة وضيقة؛ يوجد عند مقدمتها برزخ ضحل، بدت مكانًا ملائمًا

للالتقاء. لم تكن الجزيرة مأهولة بالسكان، وكانت تقع عند شاطئ بعيد مجاور لغابة كثيفة تكاد تكون خالية تمامًا من السكان، ومن ثم وقع الاختيار على جزيرة جاكسون ولم يخطر ببالهما أين سيجدان من يستهدفانهم بقرصنتهما. بعد ذلك، بحثا عن هكلبري فن وانضم إليهما على الفور، إذ إن كل الوظائف كانت سواء بالنسبة إليه، ولم يكن يبالي. ثم تفرقوا حينئذ على موعد بلقاء في مكان مهجور عند ضفة النهر، يقع على بعد ميلين من القرية، عند ساعتهم المفضلة التي هي منتصف الليل. كانت هناك طوافة خشبية صغيرة ينوون الاستيلاء عليها، وكان على كل واحد منهم أن يحضر خطاطيف وخيوطًا من أجل سرقتها بالطريقة الأكثر غموضًا وشرًا مثل الخارجين عن القانون. وقبل انقضاء العصر، كانوا جميعًا مستمتعين بالعظمة اللذيذة لمعرفتهم حقيقة أن البلدة ستسمع قريبًا أخبارًا، بعد أن تم تحذير أولئك الذين تم التلميح إليهم بتلميحات صغيرة بأن «ينتظروا في صمت».

عند منتصف الليل، وصل توم ومعه فخذ خنزير مسلوق وبعض من كعك الفاكهة، ثم توقف فوق جرف صغير، وسط شجيرات كثيفة، يطل على نقطة الالتقاء، التي كانت ساكنة جدًّا ومضاءة بالنجوم. سكن النهر العظيم في هدوء، كالمحيط. أطرق توم لحظة، إلَّا أنه لم يسمع أي صوت يخترق هذا الهدوء، فأطلق صفيرًا مميزًا بصوت خفيض، فتلقى ردًا من أسفل الجرف. أطلق توم صفيرين أخريين، وتلقى ردًا على هذه الإشارات بنفس الطريقة، ثم قال بنبرة حذرة:

«من هناك؟».

«توم سوير، المنتقم الأسود للبحر الإسباني. أنبئوني بأسمائكم».

«هاك فن أحمر اليدين وجو هاربر مُرهِب البحور». كان توم قد استوحى هذه الألقاب من الأعمال الأدبية المفضلة لديه.

«حسنًا جدًّا. ما هي كلمة السر».

همس الاثنان بصوت أجش، في نفس الوقت ووسط هذا الليل الموحش، نفس الكلمة القبيحة:

«دم!».

ألقى توم بفخذ الخنزير من فوق الجرف وقفز وراءه، ما تسبب في جرح جلده وتمزيق ملابسه وهو يفعل ذلك، ورغم أنه كان هناك طريقًا مريحًا سهلًا بطول الشاطئ تحت الجرف، فقد كان يفتقر إلى الصعوبة والخطر، وهما ميزتان يقدرهما القراصنة جدًّا.

جلب «مُرهِب البحور» معه لحمًا مقددًا، وقد تعب حتى وصل به إلى هناك، أما «فِن أحمر اليدين» فقد سرق مقلاة وبعض من أوراق التبغ، التي تمت معالجتها نصفيًّا، وأحضر أيضًا بعض كيزان الذرة ليصنع منها غلايين، رغم أنه كان الوحيد من بين القرصانين الآخرين الذي كان يدخن أو يمضغ التبغ. قال «المنتقم الأسود للبحر الإسباني» إن الأمر لن ينجح إلَّا إذا بدأوا في إشعال نار، وقد كانت هذه فكرة حكيمة، إلَّا أن الثقاب كانت بالكاد معروفة في تلك الآونة. ثم لمحوا دخانًا يصعد من بقايا نار كانت مشتعلة

فوق طوافة كبيرة تقع على بعد مئة ياردة، فانطلقوا في خلسة إلى هناك ومعهم قطعة فحم، وبدأوا يصطنعون مغامرة مبهرة، فأخذوا يقولون «صه!» بين الفنية والأخرى، ثم يتوقفون فجأة وهو يضعون أصابعهم على شفاههم، ثم يتحركون وأيديهم على مقابض خناجر خيالية، ثم يصدرون الأوامر وهم يهمسون في رعب أنه لو تحرك «العدو» فلـ«يغرسوا فيه الخنجر حتى مقبضه»، لأن «من يُقتل لا يروي حكايات». كانوا يعلمون جيدًا أن جميع البحارة في القرية يتسكعون في المتاجر أو يلهون، إلَّا أن هذا لم يكن عذرًا لأن يسيروا الأمور على نحو لا يليق بالقراصنة.

ومن ثم شقوا طريقهم بقيادة توم، واتخذ هاك موقعه وراء المجداف، وجو في المقدمة، وقف توم وسط الطوافة مقطبًا جبينه، عاقدًا ذراعيه، معطيًّا أوامر حازمة بصوت خفيض:

«أبحر باتجاه الرياح!».

«حسنًا يا سيدي!».

«اعتدل، اعتدل!».

«اعتدلنا يا سيدي!».

«دعها تتقدم نقطة!».

«تقدمت نقطة يا سيدي!».

أبحر الصبية بالطوافة في وسط النهر، في رتابة وثبات، إلَّا أن هذه الأوامر كانت من دون شك من ضمن «الشكليات» وحسب، ولم تكن تعني شيئًا محددًا.

«أي شراع تحمل؟».

«الأشرعة السفلية، والشراع العلوي، والشراع الأمامي، يا سيدي».

«ارفع الشراع إلى أعلى! عاليًا، هناك، أعمدة الشراع الأمامية العليا! بقوة!».

«حسنًا يا سيدي!».

«حركها هكذا! الملاءات والدعامات! هلموا يا شجعان!».

«حسنًا يا سيدي!».

«نحو الجانب المحمي من الريح، إلى اليسار! استعدوا لملاقاتها عندما تأتي! إلى اليسار، إلى اليسار! الآن يا رجال! بعزم! بثبات!».

«بثبات يا سيدي!».

تجاوزت الطوافة منتصف النهر، ووجه الصبية مقدمتها ناحية اليمين، ثم استعملوا مجاديفهم. لم يكن النهر عميقًا، وعليه لم يكن هناك موج لأكثر من ميلين أو ثلاثة أميال. لم ينطق أحدهم بكلمة طوال ثلاثة أرباع الساعة التالية. مرت الطوافة بالبلدة البعيدة، وظهر ضوءان أو ثلاثة أضواء مشعة من المدينة النائمة في سلام، وراء الصفحة الواسعة الضبابية للمياه المرصعة بالنجوم، التي لم تكن مدركة بالأمر الجلل الذي كان يحدث. وقف «المنتقم الأسود» ساكنًا وقد عقد ذراعيه، «ملقيًا نظرته الأخيرة» على المكان الذي شهد مباهجه السابقة وأحزانه الأخيرة، وتمنى لو أن بإمكانها أن تراه الآن، وقد أصبح بعيدًا في بحر هائج، يواجه المخاطر والموت بقلب

شجاع، متوجهًا إلى حتمه بابتسامة كئيبة على شفتيه. لم يحتج سوى مجهود ضئيل لأن يعزم أمره على أن يبتعد عن مرمى بصر القرية حتى يكون في جزيرة جاكسون، وعليه ألقى «نظرته الأخيرة» بقلب راض ومكسور. كان القرصانان الآخران يلقيان بنظرتيهما الأخيرتين أيضًا، وأطالوا النظر جميعًا حتى كاد الموج يحملهم بعيدًا عن نطاق الجزيرة، إلَّا أنهم تداركوا الأمر في الوقت المناسب، وعدلوا مسارهم ليتفادوا حدوث ذلك. وعندما اقتربت الساعة من الثانية صباحًا، رست الطوافة عند البرزخ، على بعد مئتي ياردة من الجزيرة، وظلت الطوافة تتمايل إلى الأمام وإلى الخلف حتى استقرت. كان من بين الأمتعة الصغيرة التي حملتها الطوافة شراع قديم، وعليه قصدوا زاوية بين الأجمة نصبوا فيها خيمة تأوي مؤنهم، فيما سينامون هم تحت الهواء الطلق في هذا الطقس الجيد، مثلما يفعل الخارجون عن القانون.

أشعلوا نارًا بجانب جذع ضخم، بعيدًا عن الأعماق المعتمة للغابة بحوالي عشرين أو ثلاثين خطوة، ثم قاموا بطهي بعض اللحم المقدد في المقلاة من أجل العشاء، واستهلكوا ما يقرب من نصف مخزون الذرة الذي جلبوه معهم. بدا لهم نشاطهم في إعداد وليمة بهذه الطريقة البدائية المتحررة، في الغابة غير المطروقة لهذه الجزيرة الخالية وغير المكتشفة، بعيدًا عن الناس، أمرًا مجيدًا. وقالوا إنهم لن يعودوا أبدًا إلى الحياة المتحضرة. أضاءت النار المتصاعدة وجوههم، وألقت بوهجها الأحمر على جذوع الأشجار، الشامخة داخل معبدها المتمثل في الغابة، وعلى الخضرة اللامعة وعلى الكروم المزينة.

عندما نفدت آخر شريحة مقرمشة من اللحم المقدد والتهموا آخر ما تبقى من الذرة، استلقى الصبية على العشب مملوئين بالرضا، وقد كان من الممكن أن يجدوا بقعة أخرى أكثر برودة، إلَّا أنهم لم يريدوا أن يحرموا أنفسهم من هذا الملمح الرومانسي لنار المخيم الشاوية.

قال جو: «أليس هذا مبهجًا؟».

قال توم: «إنه جنون! ما عسى الصبية أن يقولوا إذا كان بإمكانهم رؤيتنا؟».

«ماذا سيقولون؟ إنهم سيموتون من أجل أن يكونوا هنا، أليس كذلك يا هاكي!».

قال هكلبري: «أظن ذلك. على أي حال يروقني الوضع، لا أطمح إلى ما هو أفضل من هذا، فأنا عادة لا أحظى بما يكفيني من الطعام، ولن يكون بوسع أحد القدوم هنا ومضايقتي والتنمر عليّ».

قال توم: «هذه هي الحياة مثلما أراها، ألَّا تضطر إلى الاستيقاظ في الصباح، ألَّا تضطر إلى الذهاب إلى المدرسة أو إلى الاستحمام، بالإضافة إلى كل هذا اللوم الغبي. مثلما ترى يا جو، ليس على القرصان أن يفعل شيئًا ما دام على الشاطئ، أما الناسك فعليه أن يتعبد كثيرًا، فضلًا عن أنه لا يحظى بأي متعة، ويظل بمفرده».

قال جو: «نعم، هذا صحيح، لكنني لم أفكر في الأمر كثيرًا، أما الآن وقد اختبرت الأمر فأفضل كثيرًا أن أصبح قرصانًا».

قال توم: «أرأيت، لم يعد الناس يفضلون النساك هذه الأيام، ليس بقدر ما كانوا يفضلونهم قديمًا، أما القرصان فدائمًا موضع احترام، وعلى الناسك أن ينام في أصعب الأماكن التي يتسنى له الوصول إليها، وأن يضع مسوحًا ورمادًا فوق رأسه، وأن يقف خارجًا في الأمطار، و..».

سأل هاك: «لماذا يضع مسوحًا ورمادًا فوق رأسه؟».

«لا أعلم. لكن عليهم أن يفعلوا ذلك. دائمًا ما يفعل النساك هذا. يجب عليك أن تفعل هذا إن كنت ناسكًا».

قال هاك: «لم أكن لأفعل ذلك لو أصبحت ناسكًا».

«حسنًا، ماذا كنت لتفعل».

«لا أدري، لكن ما كنت لأفعل ذلك».

«لكن عليك أن تفعل ذلك يا هاك، كيف ستفلت من الأمر؟».

«لم أكن لأتحمل، وكنت سأهرب».

«تهرب! كنت لتصبح ناسكًا غير كفء، وتكون عارًا».

لم يرد «أحمر اليدين»، إذ كان قد انشغل بما هو أفضل؛ كان قد انتهى من إفراغ قلب كوز ذرة، ثم وضع بداخله جذوع حشيش وملأه بالتبغ، ثم أخذ يضغط الحشو بقطعة فحم، وبدأ ينفث سحابة دخان لها رائحة، كان في أفضل حالاته التي شعر فيها بالرضا التام. حسده القرصانان الآخران على هذه الرذيلة العظيمة، وقررا سرًا أن يحظيا بها بعد قليل. قال هاك:

«ماذا ينبغي على القراصنة فعله؟».

قال توم: «أوه، إنهم يقضون وقتهم في البلطجة فقط؛ يأخذون السفن ويحرقونها، ثم يأخذون ما بها من أموال ويدفنونها في أماكن مخيفة، داخل جزيرتهم، تسكنها أشباح وأشياء أخرى من أجل الحراسة، ويقتلون كل من على السفن، ويجعلونهم يسيرون على لوح خشبي».

قال جو: «ويحملون النساء إلى الجزيرة، لأنهم لا يقتلون النساء».

وافقه توم قائلًا: «لا، لا يقتلون النساء، إنهم نبلاء جدًّا، ودائمًا ما تكون النساء جميلات أيضًا».

قال جو بحماس: «ألا يرتدون الملابس الأكثر دلالة على البلطجة! يا إلهي! تكون كلها ذهب وفضة وألماس».

قال هاك: «من؟».

«القراصنة».

نظر هاك إلى ملابسه في حزن.

وقال والحسرة تملأ صوته: «أعتقد أن الملابس التي أرتديها غير مناسبة لقرصان، لكنني لا أمتلك سوى هذه الملابس».

إلَّا أن الصبيان أخبراه أن الملابس المناسبة ستأتي سريعًا، فور أن يبدأوا مغامراتهم، وشرحا له أن الأسمال البالية التَرِبة ستفي بالغرض في البداية، رغم أنه كان من عادة القراصنة الأثرياء أن يبدأوا نشاطهم بملابس مناسبة.

وهكذا توقفوا عن الحديث تدريجيًا، وبدأ النعاس يثقل جفون هؤلاء المتشردين الصغار، وسقط الغليون من بين أصابع «أحمر اليدين»، ونام نوم شخص مرهق مرتاح الضمير. وجد «مُرهب البحور» و«المنتقم الأسود للبحر الإسباني» صعوبة أكبر في الخلود إلى النوم، وطالما لم يكن هناك من له سلطة إجبارهم على أن يجثوا على ركبتيهم وأن يتلوا الصلاة بصوت عال، فقد تليا صلاوتهما سرًا وهما مستلقيان. في الحقيقة، كانا يفكران في عدم تلاوة الصلاة على الإطلاق، إلَّا أنهما خشيا أن يتماديا إلى هذا الحد فتنزل بهما صاعقة مفاجئة من السماء. ثم ما لبثا أن وصلا وخيما عند حافة النوم حتى جاءهم دخيل لم يكن لـ«يرحل». لقد كان الضمير. بدأ يعتريهما خوف ضبابي من أن يكونا قد أخطئا بهروبهما، وأخذ كلاهما يفكر في اللحم المسروق، ومن ثم بدأت معاناتهما الحقيقية. حاولا أن يتوقفا عن التفكير بأن يذكرا نفسيهما بأنهما اختلسا الحلويات والتفاح مرات عديدة، إلّا أن الضمير لم يكن ليسكن بوقائع صغيرة مثل هذه. في النهاية، استقرا أنه لا سبيل للتحايل على حقيقة ثابتة وهي أن اختلاسهما الحلويات كان مجرد «التقاط»، بينما أخذهما اللحم المقدد وفخذ الخنزير ومثل هذه الأشياء القيمة فهو ببساطة سرقة واضحة، فضلًا عن وجود ما ينهى عن ذلك في الإنجيل. وعليه، قررا سرًا أن أعمال القرصنة التي سيقومان بها لا ينبغي أن تتطلخ بجريمة السرقة مجددًا، طالما استمرا في عملهما هذا، ومن ثم أعطاهما ضميرهما هدنة، وغرق هذان القرصانان، غير المتسقين مع نفسيهما بشكل غريب، في النوم بسلام.

# ١٤

عندما استيقظ توم في الصباح، لم يكن مدركًا أين هو، ولكنه تدارك بعد ذلك. كان فجرًا رماديًّا باردًا، وكان هناك إحساس جميل بالراحة والسلام وسط الصمت والهدوء العميق المسيطر على الغابة، لم تكن هناك ورقة شجر واحدة تتحرك، ولم يتخلل صمت الطبيعة المطبق صوت واحد، واستقرت قطرات الندى على أوراق الشجر وعلى الأعشاب مثل حبات السبحة، فيما كست النار طبقة بيضاء من الرماد، وانبعث في الهواء خيط أزرق رفيع من الدخان. أما جو وهاك فكانا لا يزالان نائمين.

في مكان بعيد داخل الغابة، غرد طائر ورد عليه آخر، ودقَّ نقار الخشب، وأخذت رمادية الصباح المعتم البارد تتحول إلى بياض بشكل تدريجي، وبنفس التدرج أخذت الأصوات المسموعة في التزايد ونبضت الحياة. كشفت الطبيعة العجيبة عن نفسها للفتى، الذي كان يراقبها متأملًا، وهي تطرد النوم وتبدأ في العمل. زحفت دودة خضراء صغيرة على ورقة شجر ندية، وأخذت ترفع ثلثي

جسمها في الهواء بين الفينة والأخرى، و«تشمشم حول نفسها»، وتعيد الكرة من جديد، ففكر توم أنها تقايس شيئًا. اقتربت منه الدودة من تلقاء نفسها، فجلس ساكنًا مثل الحجر، ترتفع آماله تارة وتنخفض تارة أخرى، إذ كانت الدودة تتجه ناحيته ثم تنعطف لتذهب إلى مكان آخر، وقضت لحظة صعبة في النهاية وهي تفكر، بينما يتلوى جسدها في الهواء، حتى حسمت أمرها أن تقفز على قدم توم وتبدأ رحلتها فوقه، وقد جعل هذا قلبه سعيدًا، إذ إن هذا كان يعني أنه سيُرزق ببذلة جديدة، ستكون من دون شك زيًّا أنيقًا لقرصان. ثم من مكان غير معلوم، خرج موكب نمل وشرع في تأدية مهامه، وناضلت نملة ببسالة من أجل أن تحمل عنكبوتًا ميتًا، حجمه خمسة أضعاف حجمها، بين ذراعيها، حتى سحبته إلى أعلى جذع الشجرة. وبينما أخذت دعسوقة بنية مرقطة تتسلق مرتفع حشيش شاهق، انحنى توم بالقرب منها وقال: «دعسوقة، يا دعسوقة، طيري إلى منزلك، فإنه يحترق، وأطفالك بمفردهم»، فبسطت الدعسوقة جناحيها وانطلقت لتستطلع الأمر، وهو شيء لم يدهش الصبي، إذ إنه كان يعرف المقولة القديمة التي تقول إن هذه الحشرة تصدق الحرائق بسذاجة، وكان قد اختبر سذاجتها أكثر من مرة. ثم مرت خنفساء، تتحرك بثبات وفوقها غطاؤها، فلمسها توم، فخبأت أقدامها داخل جسدها وتظاهرت بأنها ميتة. كانت الطيور صاخبة بعض الشيء في ذلك الوقت، ووقف طائر مواء «الساخر الشمالي» على شجرة فوق رأس توم، وشرع يقلد الكائنات الأخرى وهو في غاية الاستمتاع، ثم جاء طائر أبو رزيق الصاخب،

كوميض لهب أزرق، ووقف على غصن بالقرب من الصبي وأخذ يراقب هؤلاء الأغراب بفضول شديد، ثم جاء سنجاب رمادي وأحد أنواع «الثعالب» الصفراء الكبيرة، مسرعين، وجلسا تاركين بينهما مسافة لمراقبة الصبية والتحدث بشأنهم، إذ إن الحيوانات البرية من الممكن ألا تكون قد رأت بشرًا من قبل قط، وكانوا يواجهون صعوبة في معرفة ما إذا كان عليهم أن يخشوهم أم لا. بهذا الوقت، كانت الطبيعة كلها مستيقظة ونشيطة، ومرت أشعة الشمس الطويلة عبر أوراق النبات الكثة بعيدًا وقريبًا، وجاءت بضع فراشات تحلق فوق المشهد.

أوقظ توم القرصانين الآخرين، فارتفعت صيحاتهم، وفي غضون دقيقة أو دقيقتين كانوا قد تجردوا من ملابسهم، وأخذوا يطاردون بعضهم البعض ويتعثر بعضهم في بعض، فوق المياه الصافية الضحلة التي تكسو رمال الشاطئ البيضاء. لم يشعروا باشتياق نحو القرية الصغيرة النائمة بعيدًا وراء هذا الفيض الهائل من المياه. ثمة موجة تائهة أو ارتفاع بسيط في النهر حمل زورقهم بعيدًا، إلَّا أن هذا الأمر أسعدهم، إذ إن ذهابه كان بمثابة حرق الجسر بينهم وبين الحياة المتحضرة.

عاد الصبية إلى المخيم، منتعشين بصورة رائعة، وقلبهم مسرور، وجائعين بشدة. أشعلوا نار المخيم من جديد على الفور، ووجد هاك ينبوعًا قريبًا به مياه صافية باردة، فصنع الصبية أكوابًا من البلوط العريض وأوراق الجَوْزِيّة، وشعروا بأن هذا الماء، الذي جعله سحر هذه الغابة البرية حلوًا، سيكون بديلًا كافيًا عن القهوة.

بينما أخذ جو يقطع اللحم المقدد من أجل الفطور، طلب إليه توم وهاك أن ينتظر قليلًا، وذهبا إلى بقعة مملوءة بالخيرات عند ضفة النهر، وألقوا بسنانيرهم، وعلى الفور حصلوا على مكافأتهم. لم يتركا لجو وقتًا ليصاب بالضجر، وعادا إليه محملين بمؤونة تكفي عائلة حقيقية؛ بعض سمك «الباس» الجميل، وزوج من سمك «الفرخ»، و«قرموط» صغير. قاموا بشوي السمك واللحم المقدد، وكانوا منبهرين، إذ لم يشعروا بأنهم تذوقوا سمكة شهية إلى هذا الحد من قبل أبدًا. لم يكونوا على علم بأنه كلما أسرعوا في طهي السمك الطازج بعد صيده كان أفضل، وأخذوا يفكرون في التأثير المُسكر للنوم في الهواء الطلق، والتمرين في الهواء الطلق، والاستحمام، والشعور الكبير بالجوع أيضًا.

بعد الإفطار، استلقوا في الظل، وبدأ هاك يدخن، ثم انطلقوا جميعًا في رحلة استكشافية داخل الغابة، ومشوا فوق جذوع أشجار متهالكة في سعادة، بين أدغال قد تضافرت فيما بينها، ووسط ملوك الغابة العظماء الذين تعلقوا من تيجانهم حتى وصلوا إلى الأرض وقد تدلت منهم عناقيد العنب، وكانوا يصادفون بين الفينة والأخرى بقعًا تبعث على الراحة، قد تفرشت بالأعشاب وتزينت بالزهور.

وجدوا أشياء كثيرة سرتهم، إلَّا أنهم لم ينبهروا بشيء، واكتشفوا أن طول الجزيرة ثلاثة أميال وعرضها ربع ميل، وأن أقرب شاطئ لها لا يفصله عنها سوى قناة ضيقة يبلغ اتساعها بالكاد مئتي ياردة. ظلوا يسبحون كل ساعة تقريبًا حتى اقترب الوقت من العصر فعادوا إلى المخيم، كانوا جائعين جدًّا فلم يذهبوا إلى الصيد والتهموا

فخذ الخنزير البارد بنهم، ثم استلقوا في الظل وشرعوا في الحديث، وسرعان ما أخذ الحديث يقل تدريجيًّا حتى توقف، ثم أخذ السكون والإحساس بالهدوء والهيبة التي تحف الغابة يلقون بثقلهم على أرواح الصبية، الذين غرقوا في التفكير، وبدأ يتسلل إليهم اشتياق غامض نوعًا ما، وخيم إحساس كئيب قد تولد لتوه بالحنين إلى الوطن، حتى أن «فِن أحمر اليدين» طفق يحلم بعتبات بابه وبالبراميل الخاوية، ثم شعروا جميعًا بالخجل من ضعفهم ولم يمتلك أحدهم الشجاعة الكافية لأن يتحدث بما يفكر.

انتبه الصبية، في تلك اللحظة، إلى صوت خافت قادم من بعيد، بالضبط مثلما ينتبه المرء في بعض الأحيان إلى صوت دقات الساعة التي لا يكون منتبهًا إليها بدرجة كبيرة، إلَّا أن هذا الصوت الغامض ما لبث أن أصبح أكثر وضوحًا وفرض نفسه. حدق الصبية بعضهم إلى بعض وأطرقوا. خيم صمت طويل عميق لا يكسره شيء، ثم هفا إليهم من بعيد صوت دوي مخيف ومكتوم.

همس جو في دهشة: «ما هذا!».

همس توم: «ما هذا يا ترى».

قال هكلبري بصوت خفيض: «هذا ليس برقًا، لأن البرق..».

قال توم: «صه! أنصتا، لا تتحدثا».

انتظروا برهة بدت دهرًا، ومن ثم كسر نفسُ الدوي المكتوم الصمتَ المطبق.

«لنذهب ونرى».

نهضوا جميعًا وهرعوا ناحية الشاطئ المواجهة للقرية، وباعدوا بين الأجمة المتواجدة على الضفة حتى يتسنى لهم النظر إلى النهر، كانت هناك سفينة بخارية صغيرة في النهر، على بعد ميل واحد من القرية، وبدا متنها الكبير مزدحمًا بأشخاص، وكان هناك عدد كبير من القوارب التي كانت تجدف حول السفينة، أو كانت تدع التيار يجرفها. لم يتمكن الصبية من معرفة ما الذي كان يفعله الرجال المتواجدون على هذه القوارب. في تلك اللحظة، خرج دخان أبيض كثيف من جانب السفينة البخارية، وأخذ يرتفع حتى تكونت سحابة كثيفة، ووصل الدوي الخافت إليهم مجددًا.

صاح توم: «لقد فهمت! لقد غرق أحد!».

قال هاك: «هذا صحيح! لقد فعلوا الأمر نفسه الصيف الماضي عندما غرق بِل ترنر؛ يطلقون نارًا فوق الماء من أجل أن يطفو على السطح. نعم، ويأتون بأرغفة خبز ويضعون فيها زئبقًا ويتركونها تطفو، وأيًا ما كان المكان الذي غرق فيه هذا الشخص، سيطفو هناك بالضبط ويتوقف».

قال جو: «نعم، لقد سمعت بهذا، يا ترى ما الذي يجعل الخبز يفعل هذا».

قال توم: «الأمر لا يتعلق بالخبز بدرجة كبيرة، أعتقد أن المسألة تعتمد في الأغلب على ما يتلونه على الخبز قبل أن يضعوه».

قال هاك: «لكنهم لا يتلون أي شيء على الخبز، لقد شاهدتهم، وهم لا يفعلون ذلك».

قال توم: «حسنًا، هذا غريب، لكن من المحتمل أنهم يتلونه سرًا، لكنهم بالطبع يفعلون ذلك، أي شخص يعلم ذلك».

أذعن الصبيان بأن هناك منطقًا فيما قاله توم، لأنه لا يمكن أن نتوقع من قطعة خبز جاهلة أن تتصرف بهذا الذكاء الشديد، عند تكليفها بمهمة بهذا الحجم، دون أن تكون تحت تأثير تعويذة.

قال جو: «يا إلهي، يا ليتني كنت هناك الآن».

قال هاك: «يا ليتني أنا أيضًا، كنت لأدفع الكثير مقابل أن أعرف من هو».

ظل الصبية ينصتون ويشاهدون، حتى أضاءت في ذهن توم فكرة نيرة، فصاح قائلًا:

«يا رفاق، لقد عرفت من الذي غرق، نحن من غرقنا!».

شعروا وكأنهم أصبحوا أبطالًا في لحظة. لقد كان هذا انتصارًا رائعًا لهم؛ افتقدوهم، وحزنوا عليهم، وانفطرت قلوبهم عليهم، وذرفوا الدموع، واندفعت الذكريات تلقي عليهم بتهمة القسوة على هؤلاء الصبية المساكين المفقودين لتغرقهم في لوم النفس والندم غير المجدي، وأفضل ما في الأمر أن هؤلاء المفقودين كانوا حديث البلدة بأكملها وموضع حسد جميع الفتيان، بقدر ما وصلت إليه هذه السمعة السيئة. كان هذا أمرًا جيدًا. في النهاية، كان الأمر يستحق أن تصبح قرصانًا.

قرب حلول الليل، عاودت السفينة ممارسة عملها المعتاد،

واختفت القوارب، وعاد القراصنة إلى المخيم، وقد امتلأوا زهوًا بفرحة الإنجاز الجديد والبلبلة الواضحة التي أحدثوها. اصطادوا سمكًا وطهوا العشاء وأكلوه، وأخذوا يفكرون فيما كانت القرية تفكر فيه وتقوله عنهم، ورسموا صورًا في خيالهم، لحزن سكان القرية عليهم، كانت مرضية من وجهة نظرهم. لكن، عندما حفتهم ظلمة الليل، توقفوا عن الحديث، وجلسوا يحدقون إلى النار، بينما تجول أذهانهم في مكان آخر بشكل واضح. هدأ الحماس في تلك اللحظة، ولم يستطع توم وجو أن يمنعا نفسيهما من التفكير في أن أشخاصًا بعينها، في ديارهم، لا يستمتعون بهذا المقلب الممتاز مثلما يستمتعون هم به. بدأت تساورهم المخاوف بشأن نتيجة فعلتهم، فأصابهم الاضطراب وذهبت سعادتهم، وخرجت تنهيدة أو تنهيدات. ورويدًا رويدًا، تجاسر جو في حياء على أن «يجس نبضيهما» بطريقة غير مباشرة، لمعرفة رأيهما في مسألة العودة إلى الحياة الحضرية، ليس على الفور، لكن..

رفض توم الأمر ساخرًا! وأيده هاك، الذي لم يكن متيقنًا حتى تلك اللحظة، فـ«برر» الفتى المتشكك ما قاله، وسَعِدَ بأنه خرج من المأزق بأقل قدر ممكن من وصمة الجبن والحنين إلى الوطن المعلق في ملابسه، وخمدت الثورة في الوقت الراهن.

مع تقدم الليل، بدأ النعاس يغلب هاك، حتى بدأ يغط، ثم لحق به جو. أما توم، فقد استلقى على مرفقه لبعض الوقت، دون أن يتحرك، وأخذ يراقب الاثنين بانتباه شديد، حتى نهض أخيرًا

بحذر، ووقف على ركبتيه، وذهب يبحث عن شيء بين الأعشاب، على ضوء الانعكاسات التي ألقت بها نار المخيم، ثم التقط عددًا من اسطوانات لحاء الجميز، الأبيض الرفيع المقطوع طوليًّا إلى نصفين، وأخذ يتفحصها حتى استقر على اثنتين بدا أنهما ملائمتان، ثم جثا بالقرب من النار، وبألم بدأ يكتب على كل واحدة منهما شيئًا، مستعينًا بـ«الحجر الأحمر»، ثم طوى إحداهما ووضعها في جيب سترته، ووضع الأخرى في قبعة جو، ثم نقل القبعة إلى مكان بعيد نسبيًّا عن صاحبها، ووضع فيها كنوزًا ذات قيمة كبيرة لتلميذ في مدرسة، من بينها قطعة طباشير، كرة مطاطية هندية، ثلاثة خطاطيف سمك، وبلية من ذلك النوع المعروف بـ«بلورة من دون شك»، ثم سار على أطراف أصابعه بين الشجر، في حذر، حتى شعر بأنه بعيد عن مسمعهم، ثم انطلق راكضًا بكل قوته ناحية الشاطئ.

# ١٥

في غضون دقائق، كان توم يسير في المياه الضحلة، متجهًا ناحية شاطئ إلينوي، وقبل أن يصل الماء إلى منتصف جسده، كان قد اجتاز نصف المسافة، ولأن التيار لم يكن ليسمح له بأن يسير أكثر من ذلك في تلك اللحظة، فقد شرع بكل ثقة في سباحة المئتي ياردة الباقية. كان يسبح ضد التيار، فأخذ الماء يجذبه بسرعة أكبر مما توقع إلى أسفل، إلَّا أنه وصل إلى الشاطئ في نهاية الأمر. ظل الماء يجرفه، حتى وصل إلى منطقة ضحلة وأخرج نفسه. وضع يده في جيب سترته، فوجد قطعة اللحاء آمنة، فانطلق عبر الغابة، المتواجدة وراء الشاطئ، بملابس مبتلة. وقبل الساعة العاشرة بقليل، وصل إلى مكان مفتوح في مواجهة القرية، ورأى السفينة راسية تحت ظل الأشجار عند الضفة المرتفعة. كان كل شيء هادئًا تحت النجوم المتلألئة، فزحف تجاه الضفة، متوخيًّا الحذر ملء عينيه، ثم تسلل إلى الماء وضرب الماء ثلاث أو أربع مرات، سابحًا، ثم صعد إلى القارب الذي كان يقوم بمهمة البحث في مؤخرة السفينة، واستلقى تحت مقاعد المجدفين وانتظر، لاهثًا.

في تلك اللحظة، قرع جرس متصدع معطيًا الإشارة بـ«الإبحار». بعد دقيقة أو دقيقتين، ارتفعت مقدمة القارب عاليًا في مواجهة السفينة العالية، وبدأت الرحلة. شعر توم بالسعادة لأنه نجح، إذ إنه كان يعلم أن هذه هي الرحلة الأخيرة للقارب في هذه الليلة. بعد اثنتي عشرة أو خمس عشرة دقيقة بدت طويلة، توقفت العجلات، وانسل توم خارج السفينة، وسبح في هذا الغلس تجاه الشاطئ، ثم توقف على بعد خمسين ياردة من النهر، حتى يتجنب خطر ملاقاة أولئك المحتمل أن يكونوا قد تخلفوا عن الركب.

مشى توم في أزقة غير مطروقة، حتى وجد نفسه قد وصل سريعًا إلى السور الخلفي لخالته، تسلقه واقترب من غرفة الجلوس التي كانت مضاءة، ثم نظر داخلها عبر النافذة. وجد الخالة بولي وسيد وماري ووالدة جو هاربر جالسين معًا بجوار الفراش، يتحدثون، وكان الفراش يفصلهم عن الباب. اقترب توم من الباب، وأخذ يرفع المزلاج بخفة، ثم ضغط بلطف على الباب فانفتح قليلًا، استمر في دفعه بحذر وهو يرتعد في كل مرة يحدث فيها الباب صريرًا، ثم قرر أن يجثو على ركبتيه ويحشر نفسه في الباب حتى يدخل، وعليه أدخل رأسه وبدأ ينسل بحذر.

قالت الخالة بولي: «لماذا يتحرك لهب الشمعة هكذا؟ أعتقد أن هذا الباب مفتوح، بالتأكيد مفتوح، لا تتوقف الأمور الغريبة عن الحدوث الآن، اذهب واغلقه يا سيد».

تمكن توم من الاختباء تحت الفراش في الوقت المناسب،

واستلقى لوهلة حتى يلتقط أنفاسه، ثم زحف إلى مكان قريب من قدم خالته.

قالت الخالة بولي: «مثلما كنت أقول، لم يكن فتى سيئًا. إن جاز التعبير، فقد كان فقط مشاغبًا ومتهورًا وطائشًا، كما تعلمين. مثله مثل مُهر، لم يتعمد الإيذاء، وكان الفتى الأطيب قلبًا على الإطلاق»، ثم أخذت تبكي.

«الأمر نفسه مع جو، كان دائمًا ما يقوم بأعمال شيطانية، وكان يقبل على كل ضروب المشاغبة، لكنه لم يكن أنانيًّا، وكان من أطيب ما يمكن. ليسامحني الله على أنني جلدته لأنه أخذ القشدة، لم أتذكر على الإطلاق أنني أنا من تخلصت منها بنفسي لأنها أصبحت حامضة. لن أراه أبدًا في حياتي، أبدًا، أبدًا، أبدًا، هذا الفتى المسكين الذي أسأت معاملته!». بكت السيدة هاربر كما لو كان قلبها سينفطر.

قال سيد: «أتمنى أن يكون توم بحال أفضل حيثما يكون، لو كان قد أحسن التصرف فقط».

«سيد!».

أحسَّ توم بالشرر يتطاير من عين السيدة العجوز، رغم أنه لم يكن يراها.

«لا أريد أن أسمع كلمة واحدة بحق توم، الآن وقد رحل! لا تزعج نفسك أبدًا يا أفندي، لقد أصبح بين يدي الله الآن! أوه، لا أعرف كيف أنساه يا سيدة هاربر! لا أعرف كيف أنساه! على الرغم من أنه كان يتعب قلبي العجوز، فإنه كان مصدر راحة كبيرة لي».

«الرَّبُّ أَعْطَى وَالرَّبُّ أَخَذَ، فَلْيَكُنِ اسْمُ الرَّبِّ مُبَارَكًا! لكنه أمر صعب جدًّا، أوه، صعب جدًّا! يوم السبت الماضي، قذف جو صاروخ لعب تحت قدمي، وضربته حتى سقط أرضًا، لم أكن أعلم حينها أن ميعاده اقترب، أوه، لو كان بإمكاني أن أعيد الكرة من جديد، لكنت احتضنته وشكرته على ذلك».

«نعم، نعم، نعم، أعرف بالضبط ما تشعرين به يا سيدة هاربر، أعرف تمامًا ما تشعرين به. ظُهر أمس، أمسك توم القط وأعطاه مسكن آلام، وشعرت بأن القط سيدمر المنزل. ليسامحني الله على أنني نقرت رأس توم بكشتباني، هذا الفتى المسكين، الفقيد المسكين. ولكنه ارتاح من كل همومه الآن، كانت آخر كلمات سمعته يقولها تأنيبًا..».

إلَّا أن هذه الذكرى كانت أكثر مما تستطيع السيدة العجوز تحمله، فانهارت تمامًا. كان توم ينشق في تلك اللحظة، وكان مشفقًا على نفسه أكثر من أي شخص آخر. كان باستطاعته أن يسمع ماري وهي تبكي وتقول كلمة طيبة في حقه من حين إلى آخر. بدأت تتكون لديه آراء أكثر نبلًا عن نفسه، أكثر من ذي قبل، وتأثر كثيرًا بحزن خالته لدرجة جعلته يتوق إلى أن يندفع من تحت الفراش ويُفرحها، وقد كان البريق المسرحي لهذا الفعل مغريًا جدًّا بالنسبة إلى طبيعته، إلَّا أنه قاوم وبقي ساكنًا.

أخذ يستمع إلى حديثهم، وفهم مما التقطه من هنا وهناك أنهم في بداية الأمر ظنوا أن الصبية غرقوا وهو يسبحون، ثم وجدوا

الطوافة الصغيرة، ثم سمعوا من مجموعة فتيان أن المفقودين كانوا يقولون إن القرية ســ«تسمع أخبارًا» قريبًا، وعليه استنتجوا من جميع هذا أن الفتيان ذهبوا على هذه الطوافة إلى البلدة المجاورة. وقرب الظهيرة، عثروا على الطوافة عند شاطئ ميزوري على بعد خمسة أو ستة أميال من القرية، ومن ثم مات الأمل، وقضوا بحتمية غرقهم، إذ كان الجوع ليعيدهم إلى المنزل بحلول الليل، إن لم يكن قبل ذلك. ورأوا أن البحث عن الجثث كان جهدًا غير مجد، وذلك ببساطة لأنه من المحتم أن الصبية قد غرقوا في منتصف القناة، وإلّا كانوا قد سبحوا إلى الشاطئ باعتبارهم سباحين مهارين. كانت هذه الليلة هي ليلة الثلاثاء، وإن ظلت الجثث مفقودة حتى يوم الأحد، فإن كل الآمال ستضيع، وستقام الجنازة صباح الأحد. الأمر الذي جعل توم يرتجف.

تمنت لهم السيدة هاربر ليلة سعيدة وهي تبكي، ثم رحلت. في نفس اللحظة، ارتمت السيدتان الثكلتان في أحضان بعضهما، وظلتا تبكيان فترة لا بأس بها، بينما تواسي إحداهما الآخرى، ثم افترقتا. وعندما كانت الخالة بولي تتمنى ليلة طيبة لسيد وماري، أظهرت حنانًا أكبر بكثير مما كانت تود أن تُظهِر، فاستنشق سيد قليلًا، فيما بكت ماري من صميم قلبها.

جثت الخالة بولي على ركبتيها، ودعت لتوم، بأسى، بينما الحب الذي لا حدود له يملأ كلماتها وصوتها المرتعش العجوز، حتى أنه غرق في دموعه قبل أن تنتهي من دعائها بفترة طويلة.

اضطر توم إلى أن يبقى ساكنًا فترة طويلة بعد أن خلدت خالته إلى الفراش، لأنها ظلت تنهنه من حين إلى آخر بقلب مكسور، وتتقلب من جانب إلى آخر في قلق، وتعتدل. وحتى بعد أن سكنت في النهاية، ظلت تتأوه قليلًا في أثناء نومها. وحينئذ، تسلل الفتى، واتجه ناحية الفراش رويدًا رويدًا، وظلل على ضوء الشمعة بيديه، ثم وقف ينظر إلى خالته. امتلأ قلبه بالشفقة تجاهها. أخرج لفافة الجميز ووضعها إلى جانب الشمعة، إلَّا أن شيئًا خطر إليه، وأطرق يفكر. أشرق وجهه بالحل المبهج الذي خلص إليه تفكيره، فوضع اللحاء بسرعة في جيبه، وانحنى ليقبل شفتي خالته الذابلتين، ثم تسلل بسرعة إلى الخارج، وأغلق الباب وراءه.

سلك طريقه عائدًا إلى المكان الذي ترسو فيه السفينة، فلم يجد أحدًا هناك، صعد إلى سطح السفينة بكل ثقة، لأنه كان يعلم أنها خالية وأنه لم يكن هناك سوى حارس كان دائمًا ما ينام وكأنه لوحة منحوتة، ثم حل رباط القارب المتواجد عند مؤخرة السفينة، وانسل إلى داخله، وأخذ يجدف بحذر ضد التيار، وعندما ابتعد عن القرية بميل، بدأ يتقدم بعزم وشجاعة، حتى رسا على الجانب الآخر بمهارة، إذ إن ذلك كان عملًا مألوفًا بالنسبة إليه. كان يود أن يستولي على القارب، بدعوى أنه يمكن أن يعتبر سفينة، ومن ثم غنيمة مشروعة لقرصان، لكنه كان يعلم أن بحثًا شاملًا سيتم من أجل العثور على القارب، ومن الممكن أن ينتهي هذا البحث بالعثور عليهم، وعليه توقف عند الشاطئ ودخل إلى الغابة.

جلس فترة طويلة حتى يرتاح، مجاهدًا في تلك الأثناء أن يبقى

مستيقظًا، ثم بدأ المرحلة الأخيرة من مشواره الطويل بحذر. انقضى معظم الليل، وسطع النهار قبل أن يصل إلى الجانب المطل على ساحل الجزيرة بوقت طويل. استراح مجددًا حتى سطعت الشمس تمامًا وألقت بضوئها الذهبي المشرق على النهر الكبير، ثم قفز إلى النهر، وتوقف بعد فترة وجيزة يقطر ماءً عند مدخل المخيم، بينما يقول جو:

«لا، إن توم وفي وسيعود يا هاك، لن يخذلنا، إنه يعرف أن ذلك سيكون عارًا على قرصان، وكرامة توم أكبر من أن يفعل هذه الأشياء، إنه يخطط لشيء ما، لكن ما هو يا تُرى؟».

«حسنًا، ولكن هذه الأشياء ملكنا، أليس كذلك؟».

«بعد قليل ستكون ملكنا، لكن ليس الآن يا هاك، لأن الرسالة تقول إنها ستكون ملكنا إن لم يعد إلى هنا حتى موعد الإفطار».

صاح توم، بطريقة درامية جيدة، وهو يدخل إلى المخيم مختالًا: «وها هو قعد عاد!».

سريعًا، قاموا بتحضير فطور ضخم من اللحم المقدد والسمك، وشرعوا يتناولونه، فيما سرد توم مغامراته بعد أن (نمقها).

بنهاية الحكاية، كانوا قد أصبحوا حفنة متفاخرة مغرورة من الأبطال، ثم انزوى توم بعيدًا في ركن ظليل ونام حتى الظهر، فيما استعد القراصنة الآخرون للصيد والاستكشاف.

# ١٦

بعد العشاء، ذهبت العصابة كلها تبحث في الرمل عن بيض السلاحف. وعند كانوا يعثرون على بقعة رخوة، كانوا يغرسون العصي في الرمل، ثم يجثون على ركبهم، ويبدأون الحفر بأيديهم. في بعض الأحيان، كانوا يُخرجون خمس أو ست بيضات من حفرة واحدة، وكان البيض أبيض شديد الاستدارة، وكان أصغر حجمًا من الجوز الإنجليزي بقليل. في تلك الليلة، تناولوا وليمة بيض مقلي ممتازة، ومثلها في صباح الجمعة.

بعد الإفطار، أخذوا يصيحون ويقفزون فوق الرمال، ويطاردون بعضهم بعضًا في كل اتجاه وهو يتخففون من ملابسهم حتى تعروا. واستمروا في اللعب بعيدًا بالقرب من مياه الشاطئ الضحلة. كان الموج عنيفًا، وكانوا أحياناً يتعثرون فيه، فيتزايد مرحهم جدًّا. بين الحين والآخر، كانوا ينحنون ويرشون الماء في وجه بعضهم بكفوفهم، ثم يتقاربون رويدًا رويدًا وهو يبعدون وجوههم تحاشيًا لرش المياه، ثم ينتهي بهم الحال أخيرًا بأن يمسك أحدهم بالآخر ويتصارعون

حتى يتغلب الأقوى على رفيقه، حتى يسقطون جميعًا في فوضى من الأرجل والأذرع البيضاء، ويلهثون ويبصقون ويضحكون، وهم يحاولون التقاط أنفاسهم في آن واحد.

وعندما كان الإرهاق يتملك منهم، كانوا يركضون تجاه الرمل الجاف الساخن ويستلقون فوقه ويغطون أنفسهم به، وبعد قليل يعودون إلى الماء ويعيدون الكرة من جديد، حتى خطرت إليهم أخيرًا فكرة وهي أن بشرتهم العارية كانت تشبه الملابس البيضاء بدرجة كبيرة. ومن ثم، رسموا دائرة في الرمل، ونصبوا سيركًا كان ثلاثتهم يعملون فيه مهرجين، إذ لم يكن لأحد منهم أن يتنازل عن هذا المنصب الرفيع لأي من رفاقه.

بعد ذلك، أخذوا ما لديهم من بلي وبدأوا يلعبون به، فكان أحدهم يمسك بلية في يديه ثم يضربها لاعب آخر ببلية أخرى، وكانوا يضعون بلية داخل دائرة ويضربونها من حافة هذه الدائرة، وتنافسوا على من يقوم بجمع بلي أكثر، وهكذا حتى فقدت هذه المتعة معناها. ذهب جو وهاك ليسبحا مرة أخرى، إلَّا أن توم لم يغامر، إذ اكتشف أنه أضاع ذيل حية الجرس التي كانت مربوطة في كعبه وهو يخلع بنطاله، وتعجب من عدم تعرضه لشد عضل طوال هذا المدة الطويلة بدون حماية تميمته السحرية الغامضة. وعليه، لم يغامر مجددًا حتى وجدها، إلَّا أن الصبيين الآخرين كانا قد شعرا بالتعب حينئذ وذهبا ليستريحا. رويدًا رويدًا، شرد كل منهم في أفكاره، وذهبت سعادتهم. جلسوا يحدقون طويلًا، عبر النهر الواسع، نحو القرية المستلقية تحت الشمس في كسل،

ووجد توم نفسه يكتب بيكي على الرمل بإصبع قدمه الأكبر، ثم مسحها غاضبًا من نفسه بسبب ضعفه، لكنه لم يستطع منع نفسه وكتبها مرة أخرى، ثم نأى بنفسه عن الفتنة وانضم إلى الصبيين الآخرين.

كانت روح جو المعنوية قد انخفضت على نحو يصعب تحسينه، إذ كان يشعر بحنين جارف إلى الوطن شق عليه تحمله، وأوشكت دموعه أن تسقط، وكان هاك حزينًا أيضًا. ورغم أن توم أيضًا كان مكتئبًا، فإنه حاول ألَّا يُظهر ذلك. كان يحمل سرًا لم يكن مستعدًا أن يكشفه في تلك اللحظة، ولكنه سيضطر إلى أن يقوله ما لم ينته هذا الإحباط المُنذر بالتمرد سريعًا. قال، وهو يظهر قدرًا كبيرًا من السعادة:

«أراهن أن قراصنة آخرين كانوا متواجدين على هذه الجزيرة من قبل يا رفاق، وسنكتشف الجزيرة من جديد، لقد خبأوا كنوزًا في مكان ما هنا، كيف ستشعرون إذا اكتشفتم صندوقًا متعفنًا مملوءًا بالذهب والفضة، ها؟».

إلَّا أن ذلك لم يثر سوى حماس فاتر، ما لبث أن تلاشى دون رد. حاول توم أن يحمسهم مرة أو مرتين، إلَّا أن محاولاته باءت بالفشل، وكان أمرًا محبطًا. جلس جو يغرس عصا في الرمل، وقد بدا الوجوم على وجهه، حتى قال أخيرًا:

«حسنًا يا رفاق، لننس الأمر، أريد العودة إلى المنزل، الوضع موحش جدًّا».

قال توم: «أوه، لا يا جو. ستتحسن نفسيتك تدريجيًّا، فكر في الصيد الذي نمارسه هنا».

«الصيد لا يهمني، أنا أريد العودة إلى المنزل».

«لكن يا جو، لا يوجد مكان مماثل للسباحة في أي مكان آخر».

«لا فائدة من السباحة، ولا يبدو أنني مهتم بها بدرجة ما. ما لم يطلب إليَّ أحد الذهاب، فلن أذهب. أنا أرغب في العودة إلى المنزل».

«يا إلهي! يا لك من طفل! أراهن أنك تريد العودة لرؤية والدتك».

«نعم، أريد رؤية والدتي، وكنت لتريد رؤيتها أنت أيضًا لو كانت لديك أم. أنا لست بطفل أكثر منك»، واستنشق قليلًا.

«حسنًا، سندع هذا الطفل الباكي يعود إلى المنزل لوالدته، أليس كذلك يا هاك؟ ياللمسكين، أيريد رؤية والدته؟، فليذهب إذًا. أنت تود البقاء هنا، أليس كذلك يا هاك؟ سنبقى، أليس كذلك؟».

قال هاك دون أن يعني ما يقول: «نـ نعـ نعم».

قال جو وهو ينهض: «لن أتحدث إليك مرة ثانية طالما حييت»، وابتعد عنه في حزن، وشرع يرتدي ملابسه.

قال توم: «ومن يهتم! لا أحد يريد منك أن تتحدث إليَّ. عد إلى المنزل؛ دعهم يضحكون عليك. يا لك من قرصان رائع. أنا وهاك لسنا أطفالًا بكائين وسنبقى، أليس كذلك يا هاك؟ فلتدعه يذهب إن كان هذا ما يريده، أعتقد أنه ربما يمكننا البقاء من دونه».

ورغم هذا، كان توم مرتبكًا، وفزع لرؤية جو وهو يرتدي ملابسه بحزن، وأزعجت نظرة هاك الحزينة إلى جو، وهو يستعد للرحيل، وصمته المشؤوم، توم. وفي تلك اللحظة، ودون كلمة وداع، أخذ جو يبتعد متجهًا نحو شاطئ إلينوي، فشعر توم بغصة في قلبه، ونظر إلى هاك، فلم يتحمل هاك نظرته، ونظر إلى الأرض، ثم قال:

«أنا أيضًا أريد الذهاب يا توم، لقد أصبح الوضع موحشًا في كل الأحوال، وسيزداد سوءًا الآن، لنذهب نحن أيضًا يا توم».

«لن أذهب! يمكنكم جميعًا الذهاب إن أردتم، أما أنا فأريد البقاء».

«من الأفضل أن أذهب يا توم».

«حسنًا، اذهب، من يمنعك».

شرع هاك يلتقط ملابسه المتفرقة، وقال:

«توم، أود أن تأتي معنا أنت أيضًا، فكر في الأمر وسننتظر قدومك إلى الشاطئ».

«حسنًا، ستنتظرون طويلًا».

مضى هاك بعيدًا، في حزن، ووقف توم ينظر إليه، وقد تملكته رغبة قوية في أن يتخلى عن كبريائه ويذهب معهم هو أيضًا.

تمنى أن يتوقف الصبيان، إلَّا أنهما مضيا في طريقهما ببطء، فأحس توم فجأة بأن المكان أصبح موحشًا جدًّا وساكنًا، وحاول أن يتغلب على كبريائه مرة أخيرة، إلَّا أنه انطلق وراء رفاقه صائحًا:

«انتظرا! انتظرا! أريد أن أقول لكما شيئًا!».

توقف الفتيان على الفور والتفتا إليه. وعندما وصل إلى حيث يقفان، بدأ يكشف لهم عن سره. استمعوا إليه بحزن، حتى فهموا هدفه في النهاية. صاحا وهللا، وأخبراه أن ما فعله «رائع»، وأنه إذا كان قد حكى لهما من البداية، ما كانا ليفكرا في الرحيل. خلق لهما عذرًا مقبولًا، إلَّا أن السبب الحقيقي كان خوفه من أنه حتى السر ما كان ليبقيهما معه فترة طويلة، ومن ثم أخفى الأمر على سبيل الاحتياط، ليكون سلاحه الأخير.

عاد الصبية مسرورين، واستأنفوا اللعب بحماس، وأخذوا يتحدثون دون توقف عن خطة توم المدهشة، معبرين عن إعجابهم بعبقريتها. وبعد عشاء شهي من البيض والسمك، قال توم إنه يرغب في أن يتعلم التدخين، وأعجب جو بالفكرة وقال إنه أيضًا يريد أن يجرب الأمر. وعليه صنع هاك غلايين وملأها. لم يكن الصبيان قد دخنا شيئًا من قبل باستثناء السجائر المصنوعة من عناقيد العنب، التي كانت تلسع ألسنتهم ولم تكن علامة على الرجولة بأي حال.

ومن ثم، استلقوا جميعًا واستندوا إلى مرافقهم وبدأوا في التدخين بحذر وبثقة مزعزعة. كان الدخان له مذاق كريه وخنقهم قليلًا، إلَّا أن توم بادر:

«إنه سهل جدًّا! لو كنت أعلم أن هذا كل ما في الأمر، لكنت تعلمت التدخين منذ زمن».

قال جو: «وأنا أيضًا، إن الأمر بسيط».

قال توم: «لقد رأيت مرارًا أشخاصًا يدخنون، وتمنيت لو كان بإمكاني القيام بذلك، لكنني لم أظن أبدًا أنني سأتمكن من الأمر».

«وأنا أيضًا، أليس كذلك يا هاك؟ لقد سمعتني أقول هذا، أليس كذلك يا هاك؟ فليقل هاك إن لم أقل ذلك».

قال هاك: «نعم، عدة مرات».

قال توم: «حسنًا، وأنا أيضًا، مئات المرات. مرة بالقرب من محل الجزارة. ألا تتذكر يا هاك؟ كان بوب تانر هناك عندما أخبرتك، وجوني ميللر أيضًا، وجيف ثاتشر. ألا تتذكر ذلك يا هاك؟».

قال هاك: «نعم، هذا صحيح، كان في اليوم الذي تلا خسارتي بلية بيضاء. لا، كان قبلها بيوم».

قال توم: «أرأيت، لقد أخبرتك، وهاك يتذكر».

قال جو: «أعتقد أنني أستطيع تدخين هذا الغليون طوال اليوم، فأنا لا أشعر بالإعياء».

قال توم: «ولا أنا، أستطيع تدخينها طوال اليوم، لكن أراهنك أن جيف ثاتشر لا يمكنه ذلك».

«جيف ثاتشر! كان لينهار بعد نفسين، ليجربها مرة واحد وسيرى!».

«أراهن على أنه سينهار، وجوني ميللر، أتمنى لو أن باستطاعتي رؤية جوني ميللر يجربها مرة واحدة».

قال جو: «صحيح! أراهن أن جوني ميللر لن يقوى على أكثر من ذلك، يكفي نفس واحد أن يرديه أرضًا».

«هذا حقيقي يا جو، أتمنى لو كان باستطاعة الصبية رؤيتنا الآن».

«وأنا أيضًا».

«ما رأيكما يا رفاق ألا نحكي شيئًا عن هذا الأمر، حتى يكونوا معنا في إحدى المرات، وعندها سآتي إليكما وأقول «أمعك غليون يا جو؟ أريد التدخين»، وستقول بلا مبالاة كما لو أن الأمر عاديٌّ «نعم، معي غليوني القديم وواحد آخر غيره، إلَّا أن التبغ الذي معي ليس جيدًا جدًّا»، وسأقول «لا بأس، طالما كان قويًّا بما فيه الكفاية»، ومن ثم تُخرج الغلايين، ونشعلها بنفس هذا الهدوء، ونشاهدهم وهم ينظرون إلينا!».

«يا إلهي، سيكون هذا رائعًا يا توم! أتمنى لو كان بإمكاننا أن نفعل هذا الآن!»

«وأنا أيضًا! وعندما نخبرهم أننا تعلمنا التدخين عندما كنا نمارس القرصنة، ألن يتمنوا لو كانوا معنا؟».

«أوه، أنا لا أعتقد ذلك! أنا أراهن أنهم سيتمنون ذلك!».

استمر الحديث، ولكنه قل تدريجيًّا، وأمسى متناثرًا، وتزايدت فترات الصمت. تزايد البلغم في حلقي الصبيين بدرجة كبيرة، وأمست المسام في وجنتي الصبيين مثل نافورة، استطاع الصبيان بالكاد أن يسيطروا على مياه السراديب التي تجمعت تحت لسانيهما

بالسرعة الكافية لأن يمنعا فيضانًا من الحدوث. وعلى رغم من كل محاولاتهما، تكونت في حلقيهما فيضانات صغيرة، تبعتها رغبة مفاجئة في التقيؤ. بدا الصبيان شاحبين جدًّا وهزيلين في تلك اللحظة، وفلت غليون جو من بين أصابعه الواهنة، وتبعه غليون توم. كانت كلتا النافورتين تضخان بعنف، وكانت كلتا المضختين تصرفان ما بهما بكل عزم. قال جو بوهن:

«لقد أضعتُ سكيني، أعتقد أن من الأفضل أن أذهب للبحث عنه».

قال توم وشفتاه ترتعشان، قاطعًا حديثه:

«سأساعدك. اذهب أنت من هذا الطريق، وسأبحث أنا عنها قرب الينبوع، لا يا هاك؛ لست بحاجة إلى أنت تأتي، يمكننا العثور عليها».

ومن ثم، عاود هاك الجلوس، وظل منتظرًا ساعة، حتى أحس بالوحدة، فذهب ليبحث عن رفيقيه. كانا بعيدين عن بعض جدًّا داخل الغابة، وكانا شاحبين ومستغرقين في النوم، إلَّا أنه أحس أنه إذا كانا يشعران بأي تعب، فقد ارتاحا منه.

لم يتحدثا كثيرًا خلال العشاء في تلك الليلة، وبديا بحالة مزرية. وعندما جهز هاك غليونه بعد الوجبة، واستعد لتجهيز غليونيهما، رفضا وقالا إنهما لا يشعران أنهما بخير وأن شيئًا ما قد أكلاه في العشاء قد أتعبهما.

قرب منتصف الليل، استيقظ جو ونادى على الصبيين، كان الهواء يحمل كآبة قاسية تنذر بحدوث شيء. اقترب الفتيان من بعضهم، واستأنسوا بصحبة النار الودودة رغم أن حرارة الجو الفاتر الخامل، التي لا تحمل نسمة هواء، كانت خانقة.

جلسوا ساكنين، ينتظرون في ترقب، والصمت المطبق يحفهم، بينما ابتلع سواد الظلمة كل شيء خلف ضوء النار، ومن ثم ظهر ضوء مرتعش للحظة كشف فيها عن جزء بسيط من أوراق الأشجار ثم اختفى. رويدًا رويدًا، ظهر ضوء آخر أقوى بقليل، ثم آخر، ثم سُمع أنين خافت يتنهد عبر أغصان الغابة، وأحس الفتيان بأنفاس تلمس وجناتهم، وارتجفوا أن تكون روح الليل حولهم. مرت فترة صمت، ثم حول ضوءٌ غريب، الليلَ إلى نهار، وكشف عن كل عشب صغير نما تحت أرجلهم على حدا بشكل متميز. وكشف أيضًا عن ثلاثة وجوه شاحبة خائفة. أخذ هزيم الرعد القوي يتقلب ويتدحرج في السموات وفقد نفسه بعيدًا في دوي كئيب. مرت نسمة هواء باردة، أحدثت حفيفًا بين أوراق الشجر، ملقية بندى على الرماد الهش المتبقي من النار. أضاء وهج عنيف آخر الغابة، تبعه على الفور ارتطام بدا أنه فلق قمم الأشجار فوق رؤوس الصبية. تشبثوا ببعض في ذعر، في العتمة الكثيفة التي أعقبت هذا الوهج، ثم سقطت بضع قطرات مطر كبيرة أحدثت طقطقة فوق أوراق الشجر.

صاح توم: «أسرعوا! اذهبوا إلى الخيمة يا رفاق!».

ركضوا بعيدًا في الظلام، متعثرين في الكروم وجذور الأشجار،

كلٌّ في اتجاه. هز الأشجار دوي عنيف، وجعل كل شيء في طريقه يحدث أزيزًا، وأخذ ضوء يعمي الأبصار يضرب الأرض واحدًا بعد آخر، وهزيم رعد يصم الآذان يضرب الأرض واحدًا بعد آخر. وانهمرت في تلك اللحظة أمطار غزيرة، وجعلت العاصفة المتفاقمة الأمطار تتساقط كأنها فيضان يغمر الأرض. نادى الصبية على بعضهم، إلَّا أن الرياح الهادرة وضربات الرعد المدوية غطت على أصواتهم تمامًا. ومع ذلك، فقد وجدوا بعضهم في النهاية، واحتموا بالخيمة، وهم يشعرون بالبرد والخوف، والماء يتصبب منهم. إلَّا أنهم شعروا أن وجود صحبة في وقت الشدة يدعو إلى الامتنان. خفق الشراع القديم بعنف شديد، إلَّا أنهم ما كانوا ليتحدثوا حتى لو كانت الأصوات الأخرى قد أعطتهم الفرصة للحديث. اشتدت العاصفة أكثر فأكثر، وانحل الرباط الذي كان الشراع مربوطًا فيه، وطار بعيدًا في الهواء. تماسك الفتيان بأيديهم وركضوا، متعرضين إلى خدوش كثيرة من التعثر، حتى آووا إلى شجرة بلوط كبيرة عند ضفة النهر. بلغت المعركة أوجها، مع الاحتدام المتواصل للبرق الذي أشعل السماء. ودون طيف عتمة، بدا كل شيء تحت السماء واضحًا في جلاء تام؛ الأشجار المتمايلة، النهر متلاطم الأمواج الذي ابيض من الزبد، الرذاذ المنبعث من الزبد، المعالم الضبابية للجرف العالي المتواجد عند الجانب الآخر. أضاء كل هذا وسط الأمواج المتلاطمة وستار الماء المنحدر من السماء. وكل فترة قصيرة، كانت تستسلم شجرة عملاقة للهزيمة وتسقط مرتطمة بالنبات الصغير، وأمسى هزيم الرعد غير المتواني مثل انفجارات ناسفة تصم الآذان،

إذ كان عنيفًا وقويًا ومرعبًا على نحو لا يوصف. وصلت العاصفة إلى ذروتها، واشتدت بعنف منقطع النظير، حتى بدا كما لو أنها ستمزق الجزيرة إلى أجزاء، وتحرقها، وتغرقها حتى قمم أشجارها، وتقتلعها من مكانها، وتصم كل كائن حي عليها، جميعهم دفعة واحدة في نفس اللحظة. كانت ليلة عاصفة على أن يقضيها أطفال في الخارج دون مأوى فوق رؤوسهم.

في النهاية، انتهت العاصفة وتقهقرت قواتها، وخفت تهديداتها وتذمراتها رويدًا رويدًا، واستعاد السلام سيطرته على الوضع. وعاد الفتيان إلى مكان الخيمة مملوئين رعبًا، وعندما وجدوا أن شجرة الجميز الضخمة، التي كانت مأوى فرشهم، قد أصبحت حطامًا بعد أن مزقها البرق، شعروا بالامتنان لأنهم لم يكونوا تحتها عند وقوع الكارثة.

كان كل شيء في المخيم مبتلًا، بما في ذلك نار المخيم، إذ إنهم لم يكونوا سوى فتيان طائشين، مثل جيلهم، ولم يأخذوا حيطتهم ضد المطر، وقد كان هذا أمرًا مثيرًا للرعب، إذ إنهم كانوا مبتلين تمامًا وكانوا يشعرون بالبرد. كانت محنتهم شديدة، إلّا أنهم اكتشفوا في تلك اللحظة أن النار التي أشعلوها سابقًا كانت قد ارتفعت بلهيبها حتى وصلت إلى الجذع الكبير (الذي تقوس إلى أعلى وانفصل عن الأرض)، فأفلت شبر منه أو ما يقرب من ذلك من الابتلال، وعليه عكفوا بصبر على تجميع الخِرق واللحاء من تحت حواف الجذوع التي أفلتت من الماء، وتحايلوا على النار حتى اشتعلت من جديد،

ثم تكوموا فوق أغصان ضخمة ذابلة حتى تدفأوا جيدًا، وسعدت قلوبهم من جديد، ومن ثم جففوا فخذ الخنزير المسلوق، وقاموا بتحضير وليمة، وجلسوا بالقرب من النار، وتمددوا، وأخذوا يمجدون في مغامرة نصف الليل هذه، حتى الصباح، إذ لم تكن حولهم في أي مكان بقعة جافة ينامون عليها.

في الوقت الذي بدأت فيه الشمس تتسلل فوق الفتيان، غلبهم النعاس، فاتجهوا ناحية الشاطئ الرملي، واستلقوا استعدادًا للنوم. رويدًا رويدًا، جففتهم الشمس، وشرعوا في تناول الإفطار بوحشية. بعد انتهاء الوجبة، شعروا بقبضة ووهن، وعاودهم الشعور بالحنين إلى الوطن قليلًا. لاحظ توم البوادر، فشرع يحمس القراصنة قدر استطاعته، إلَّا أنهم لم يلقوا بالًا إلى البلي أو السيرك أو السباحة أو أي شيء، فذكرهم بالسر الجليل، فابتهجوا قليلًا. وبينما كانوا لا يزالوا مبتهجين، أثار اهتمامهم بشيء جديد، وهو أن يعتزلوا القرصنة لفترة، ويصيروا هنودًا على سبيل التغيير. أعجبتهم الفكرة، وما لبثوا أن تجردوا من ملابسهم، وخططوا أجسادهم بطين أسود من رؤوسهم حتى أقدامهم، كأنهم مجموعة من الحمير الوحشية. كانوا جميعًا رؤساء قبائل بالطبع، واخترقوا الغابة من أجل مهاجمة مستعمرة إنجليزية.

رويدًا رويدًا، انقسموا إلى ثلاثة قبائل متعادية، وهاجم بعضهم بعضًا من الكمائن، وقتل بعضهم بعضًا، ونزعوا فروات رأس بعضهم بعضًا، آلاف المرات، وهم يطلقون صيحات حرب مرعبة. كان يومًا دمويًّا، ومن ثم مرضيًا إلى أبعد الحدود.

اجتمعوا عند المخيم قرب موعد العشاء سعداء، وقد أصابهم الجوع، إلَّا أنهم واجهوا عقبة، وهي أنه لا يمكن للهنود المتعادين أن يتشاركوا الطعام معًا دون التصالح أولًا، وكان هذا أمرًا مستحيلًا بكل بساطة ما لم يدخنوا غليون الصلح. لم يسمعوا عن طريقة أخرى من قبل، وتمنى اثنان من هذه المجموعة القبلية لو أنهما ظلا قراصنة. ومع ذلك، لم يكن هناك بد. ومن ثم، وبأكبر قدر ممكن استطاعا التظاهر به من السعادة، طلبا الغليون ودخنوا كما ينبغي لهم.

ولاحِظ أنهما كانا سعيدين بانضمامهما إلى القبائل، لأنهما اكتسبا شيئًا؛ اكتشفا أن بإمكانهما التدخين بمعدل بسيط دون الحاجة إلى الذهاب بحثًا عن سكين مفقود، لم يشعرا بإعياء إلى الدرجة التي تجعلهما متعبين على نحو خطير. لم يكن واردًا أن يتجاوزوا عن هذا العهد الهام بسبب التقصير. لا؛ بعد العشاء، شرعا يدخنان بحذر، محققين نجاحًا مرضيًا، ومن ثم حظوا بأمسية سعيدة.

شعرا بالفخر والسعادة بهذا الإنجاز الأخير الذي حققاه، أكثر مما كانا ليفخرا ويسعدا بسلخ ونزع رؤوس الإيروكواس. لندعهم يدخنون ويتحدثون ويتفاخرون، طالما لم نعد بمزيد من الحاجة إليهم في الوقت الحالي.

# ١٧

لم يشهد عصر هذا السبت الهادئ في القرية أي فرحة، إذ كانت عائلة الخالة بولي وعائلة هاربر في حداد؛ كان حزنهم عميقًا ودموعهم كثيرة، وكسى القرية هدوء غير معتاد، رغم أنها غالبًا ما تكون هادئة حتى والجميع مستيقظ.

زاول الفلاحون أشغالهم وهو يشعرون بالاختناق. ورغم أن حديثهم كان قليلًا، فقد خرجت عنهم تنهيدات كثيرة. بدت إجازة السبت حملًا على الأطفال، ولم يكن لديهم أي حماس للعب، وانصرفوا عنه تدريجيًّا.

عند العصر، وجدت بيكي ثاتشر نفسها تتسكع حول باحة المدرسة الخالية، وهي تشعر باكتئاب وحزن شديدين، ولما لم تجد ما يسري عنها هناك، ناجت:

«أوه، لو كان بإمكاني الحصول على مقبض الأثفية النحاسي من جديد! لكن لم يصبح عندي ما أتذكره به»، مانعة دمعة صغيرة من أن تنحدر.

وتوقفت في تلك اللحظة، وقالت لنفسها:

«لقد كانت هناك. أوه، لو كان بالإمكان أن يتكرر الأمر من جديد، ما كنت لأقول ذلك، ما كنت لأقول ذلك أبدًا. لكنه رحل الآن، لن أراه بعد الآن أبدًا أبدًا أبدًا».

حطمتها تلك الفكرة، فمضت تتجول بعيدًا والدموع تنسال من على وجنتيها، ثم مرت مجموعة من فتيان وفتيات كانوا رفاق لعب لتوم وجو، وتوقفوا ينظرون إلى ما وراء السياج الخشبي وهو يتحدثون بنبرات تحمل توقيرًا عن كيف فعل توم هذا وذاك في آخر مرة شاهدوه فيها، وكيف قال جو هذا الأمر وذاك (محملًا بنبوءات هائلة، أصبحت رؤيتها سهلة الآن!). وكان كل متحدث يشير إلى المكان الذي كان يقف فيه الفتيان المفقودان في الوقت الذي كانت تقع فيه تلك الأحداث، ويضيفون عبارات مثل: «وكنت أقف هكذا بالضبط، مثلما أقف الآن، وكان هو مكانك، وكنت على نفس هذه المسافة، وابتسم بهذه الطريقة بالضبط، ثم شعرت برعشة تغمرني على نحو رهيب، ولم أفكر أبدًا بالطبع فيما يعنيه ذلك، لكن يمكنني أن أفهم الآن!».

ثم اختلفوا حول آخر من رأى الفتيين، اللذين لقيا مصرعيهما، وأخذ العديد منهم يدعي هذا الشرف الكئيب، ويقدم الأدلة متلاعبًا بحقيقة من شهد على ذلك، بصورة أو بأخرى، وعندما استقروا أخيرًا على آخر من رأى الفقيدين وتبادل الكلمات الأخيرة معهما، أحس هؤلاء المحظوظين بضرب من الأهمية المقدسة، وأصبحوا

موضع انبهار وحسد البقية. ثم بادر أحد الفتيان المساكين، الذي لم يكن لديه شيء مبهر آخر يستعرضه، يقول بتفاخر جلي بدرجة ما، متذكرًا:

«حسنًا، لقد ضربني توم سوير ذات مرة».

إلَّا أن محاولة نيل هذا الشرف باءت بالفشل، إذ كان بوسع جميع الصبية قول نفس الشيء، وعليه قلل هذا من قدر الشرف كثيرًا. أهدرت المجموعة وقتها، وهم لا يزالون يستدعون ذكريات الأبطال المفقودين، بأصوات متعجبة.

عندما انتهت الساعة المخصصة لدرس الأحد، في صباح اليوم التالي، قُرِع الجرس بدلًا من أن يدق دقته المعتادة. كان يومًا هادئًا جدًّا، وبدا صوت الحداد متسقًا مع الصمت المطبق الذي كسا الطبيعة. بدأ الفلاحون في التجمع، وتلكأوا في الممر للحظات تحدثوا خلالها عن الحدث الأليم في همس. ومع ذلك، لم يكن هناك همس داخل المبنى، ولم يشب الصمت سوى حفيف فساتين عزاء السيدات عند وصولهن إلى مقاعدهن. لم يستطع أحد أن يتذكر متى كانت الكنيسة الصغيرة ممتلئة إلى هذا الحد آخر مرة. أخيرًا، حانت لحظة الانتظار والصمت المرتقب؛ دخلت الخالة بولي، يتبعها سيد وماري، يرتدون هم وعائلة هاربر أسودَ قاتمًا. نهض الجميع، بما في ذلك القس المسن، إجلالًا، ووقفوا حتى جلس أصحاب الحداد في المقاعد الأمامية. من جديد، سادت فترة صمت مميت، تخللها بكاء مكتوم بين الفينة والأخرى. بسط

القس يديه وصلى، ثم غُنيت ترنيمة محركة للمشاعر، تبعها بقول: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ».

وبينما استمرات المراسم، أخذ القس يرسم صورًا لحضرات الرفاق المفقودين، ومحاسنهم، ومواهبهم النادرة، حتى شعر كل شخص هناك -بظن منه أنه يعرف هذه الأمور- بألم وهو يتذكر أنه كان دائمًا ما يعمي نفسه عنهم بإصرار، وأنه وبنفس الإصرار كان يرى فقط أخطاء وعيوب هؤلاء الفتيان المساكين، وحكي القس أيضًا العديد من الحكايات المؤثرة، في حياة الراحلين، التي أظهرت طبيعتهم الكريمة العذبة، وأصبح بإمكانهم الآن أن يدركوا بسهولة كم كانت هذه الأفعال صافية وجميلة، متذكرين بحزن أنها وقت حدوثها بدت نذالة صافية يستحقوا الجلد بسببها. ازداد تأثر الجمع، بينما استمرت الحكاية المحركة للمشاعر، حتى انهار الجميع في النهاية، وانضموا إلى الثكالى الباكين في جوقة تبكي بدموع الفجيعة، حتى أن الواعظ نفسه أطلق العنان لمشاعره وبكى من فوق المنبر.

كان هناك صوت قعقعة في القبو لم ينتبه إليه أحد، تبعه صوت صرير صدر عن باب الكنيسة. رفع القس عينيه الدامعتين فوق منديله، ووقف مصعوقًا! كان هو الأول، تبعه زوج آخر من العيون، ثم وفي آن واحد تقريبًا نهض الحشد كله وحدق، بينما يدخل الثلاثة فتيان المفقودين عبر الممر؛ توم في المقدمة، يليه جو، بينما تسلل هاك بخجل في المؤخرة وقد تدلت منه بقايا أسمال بالية! كانوا مختبئين في القبو غير المستخدم يستمعون إلى خطبة التأبين الخاصة بهم!

ألقت الخالة بولي وماري وعائلة هاربر أنفسهم فوق العائدين، خنقوهم بالقبلات وهللوا شاكرين، بينما وقف هاك المسكين خجلانًا شاعرًا بعدم الارتياح، دون أن يعرف بالضبط ما عليه أن يفعل أو أين يختبئ من هذا الكم من الأعين غير المرحبة. تردد، وبدأ يتسلل بعيدًا، إلَّا أن توم أمسك به وقال:

«هذا ليس عدلًا يا خالة بولي. يجب أن يكون أحد مسرورًا لرؤية هاك».

«سيسرون. أنا مسرورة لرؤيته، هذا المسكين يتيم الأم!». كان هذا الاهتمام المملوء بالعطف، الذي أغدقته عليه الخالة بولي، هو الشيء الوحيد الذي كانت له القدرة على أن يزيد شعوره بعدم الارتياح أكثر من ذي قبل.

فجأة صاح القس بأعلى صوته: «ابتهلوا إلى الرب الذي تتنزل بفضله البركات.. غنوا! من قلوبكم!».

وهكذا غنوا ترنيمة «المئوي القديم»، مفعمين بالانتصار. وبينما كانت تهز الترنيمة العوارض الخشبية، تطلع «توم سوير القرصان» حوله متأملًا رفاقه الحاسدين، واعترف في سريرته أن هذه كانت اللحظة الأكثر فخرًا في حياته.

وفي أثناء خروج الحشود «المخدوعة»، تحدثوا بأنهم على استعداد أن ينخدعوا من جديد، من أجل أن يسمعوا ترنيمة «المئوي القديم» تُغنى بهذا الأداء مرة أخرى.

وحسبما كان مزاج الخالة بولي يتقلب في ذلك اليوم، كانت

تُفرض على توم القيود أو يتلقف القبلات، أكثر من ذي قبل طوال عام، ولاقى صعوبة في معرفة أي من هذين كان تعبيرًا عن أشد الامتنان إلى الرب والحب له.

# ١٨

كان مخطط العودة إلى المنزل مع أخويه في القرصنة وحضور جنازتهم هو سر توم الكبير. وعليه، جدفوا غسق يوم السبت، فوق جذع شجرة، متجهين إلى شاطئ ميزوري، ثم رسوا على بعد خمسة أو ستة أميال من القرية، وناموا في الغابة عند حافة البلدة حتى سطع ضوء النهار تقريبًا، ثم تسللوا عبر حارات خلفية وأزقة، واستكملوا نومهم في قبو الكنيسة، وسط فوضى من المقاعد غير الصالحة للاستخدام.

خلال الإفطار، صباح يوم الاثنين، كانت الخالة بولي وماري ودودتين جدًّا لتوم، وكانتا منتبهتين جدًّا لرغباته. تحدثوا بقدر أكبر من المعتاد، وقالت الخالة بولي في إطار ذلك:

«حسنًا، لا أقول إنها لم تكن مزحة ممتازة يا توم، أن تبقي الجميع متألمين لأسبوع تقريبًا من أجل أن تحظوا أنتم بوقت جيد، لكن من المؤسف أنك تمكنت من أن تكون قاسي القلب هكذا، إلى الدرجة التي تجعلنا نتألم بهذا الشكل. إذا استطعت أن تعود فوق جذع

شجرة لحضور جنازتك، كان بإمكانك أن تعود وتعطيني تلميحًا بطريقة ما أنك لم تكن ميتًا، وأنك فقط هربت».

قالت ماري: «نعم، كان بإمكانك القيام بذلك يا توم، وأعتقد أنك كنت لتقوم بهذا إذا كنت قد فكرت في الأمر».

قالت الخالة بولي، ووجهها يشع حزنًا: «أكنت ستفعل ذلك يا توم؟ قل لي الآن أكنت ستفعل ذلك إذا كنت قد فكرت في الأمر؟».

«أنا.. حسنًا، لا أعلم. كان لذلك أن يفسد كل شيء».

قالت الخالة بولي بنبرة حزينة أزعجت الفتى: «يا ليتك كنت تحبني بالقدر الكافي يا توم؛ اهتمامك بالدرجة الكافية التي تجعلك تفكر في القيام بذلك كان ليعني شيئًا حتى لو لم تفعله».

دافعت عنه ماري قائلة: «هذا لا يعني شيئًا سيئًا يا خالتي، إن توم طائش فقط، فهو دائمًا متعجل جدًّا بدرجة لا تسمح له بالتفكير في أي شيء».

«إن هذا يدعو لمزيد من الأسف. كان سيد ليفكر في الأمر، وكان ليأتي ويفعل ذلك. يومًا ما يا توم، ستعود بنظرك إلى الوراء، بعد فوات الأوان، وستتمنى لو أنك اهتممت لأمري بقدر أكبر قليلًا من هذا، حينما لم يكن الأمر يكلفك سوى القليل».

قال توم: «أنت تعلمين أنني أهتم لأمرك يا خالتي».

«سيكون بإمكاني أن أرى هذا بوضوح أكبر، إذا تصرفت بما يتوافق مع ذلك بدرجة أكبر».

قال توم بنبرة ندم: «أتمنى الآن لو أنني كنت قد فكرت في ذلك، لكنني حلمت بك. هذا دليل، أليس كذلك؟».

«ليس بما يكفي، فالقطط تحلم كثيرًا، لكنه أفضل من لا شيء. بماذا حلمت؟».

«حلمت، ليلة الأربعاء، أنك كنت تجلسين هناك إلى جانب الفراش، وكان سيد يجلس إلى جانب الصندوق الخشبي، وماري إلى جانبه».

«حسنًا، هذا صحيح. ولكننا دائمًا ما نفعل ذلك. أنا سعيدة لأن أحلامك حملت هذا القدر من القلق تجاهنا».

«وحلمت أن والدة جو هاربر كانت هنا».

«لقد كانت هنا! هل حلمت بشيء آخر؟».

«أوه، لقد حلمت بأشياء كثيرة، لكنها ضبابية الآن جدًّا».

«حسنًا، حاول أن تتذكر، ألا تستطيع؟».

«نوعًا ما، يبدو لي أن الهواء، الهواء دفع الـ.. الـ».

«حاول أكثر يا توم! دفع الهواء شيئًا. هيا!».

ضغط توم بأصابعه على جبهته لدقيقة مفعمة بالترقب، ثم قال:

«لقد تذكرت الآن! لقد تذكرت الآن! لقد أطفأ الهواء الشمعة!».

«يا إلهي! استمر يا توم، استمر!».

«ويبدو لي أنك قلتِ: أعتقد أن هذا الباب..».

«استمر يا توم!».

«أمهليني أركز لحظة، لحظة واحدة فقط. أوه، نعم، لقد قلتِ إنك ظننت أن الباب كان مفتوحًا».

«بينما كنت جالسة هنا، لقد فعلت! أليس كذلك يا ماري! استمر!».

«ثم، ثم، حسنًا لست متأكدًا، لكن يبدو كما لو أنك جعلت سيد يذهب و.. و».

«ماذا؟ ماذا؟ جعلته يفعل ماذا يا توم؟ جعلته يفعل ماذا؟».

«جعلتيه، ممم، أوه، جعلتيه يغلقه».

«حسنًا، بحق الأرض! لقد فاق هذا كل ما سمعته من قبل طوال حياتي! لا تقل لي إن الأحلام لا تظهر شيئًا بعد الآن. ستعرف سيريني هاربر بهذا الأمر قبل أن تنقضي هذه الساعة. أود رؤيتها تجادلني في هذا بهرائها عن الخرافات. استمر يا توم!».

«أوه، لقد أصبح كل شيء واضحًا الآن مثل ضوء النهار. لقد قلت بعد ذلك إنني لم أكن فتى سيئًا، وأنني فقط طائش ومتهور وأنني مثل.. مثل.. أعتقد مهر أو شيء من هذا القبيل».

«إن هذا ما حدث! حسنًا، يا إلهي! استمر يا توم!».

«ثم بدأتِ تبكين».

«فعلًا. فعلًا. لكنها لم تكن المرة الأولى. ثم..».

«ثم بدأت السيدة هاربر في البكاء، وقالت إن جو كان على

نفس الشاكلة، وتمنت لو أنها لم تجلده لأنه أخذ القشدة، في حين أنها هي من تخلصت منها بنفسها...».

«توم! لقد تنزل عليك وحي! لقد كنت تتنبأ، هذا ما حدث! يا إلهي، استمر يا توم!».

«ثم قال سيد، قال..».

قال سيد: «لا أعتقد أنني قلت شيئًا».

قالت ماري: «لقد قلت يا سيد».

«توقفا واتركا توم يُكمل! ماذا قال يا توم؟».

«قال، أعتقد أنه قال إنه تمنى لو كنت بحال أفضل حيثما كنت، ولو أنني كنت أحسنت التصرف في بعض الأحيان..».

«هل تسمعون هذا! لقد كانت هذه بالضبط كلماته!».

«وقد أخرستيه بحدة».

«لقد فعلت! لا بد من أن ملكًا كان هناك. كان هناك ملك في مكان ما!».

«وحكت لك السيدة هاربر عندما أفزعها جو بصاروخ، وأنت قصصتِ عليها حكاية بيتر ومسكن الآلام..».

«صحيح صحة أنني حية!».

«وتحدثتم باستفاضة عن تفقد النهر بحثًا عنا، وعن إقامة الجنازة يوم الأحد، ثم تعانقتِ أنت والسيدة هاربر العجوز وبكيتما، ثم رحلت».

«لقد كان هذا بالضبط ما حدث! لقد كان هذا بالضبط ما حدث، بالضبط مثلما أنا جالسة في مكاني هذا. توم، ما كان بإمكانك أن تحكي ما حدث بهذه الدقة لو كنت هنا! ماذا حدث بعد ذلك؟ استمر يا توم!».

«أعتقد أنك دعوت لي بعد ذلك، واستطعت أن أراك وأن أسمع كل كلمة قلتيها، ومن ثم خلدتِ إلى الفراش، ولقد شعرت بأسف شديد لدرجة أنني كتبت فوق قطعة من لحاء شجرة الجميز: «لم نمت، لقد هربنا من أجل أن نصبح قراصنة فقط»، ووضعتها على الطاولة إلى جانب الشمعة، ثم بدوتِ جيدة جدًّا، وأنت مستلقية هناك نائمة، حتى أنني ظننت أنني ذهبت وانحنيت فوقك وقبلت شفاهك».

«لقد فعلت ذلك يا توم، لقد فعلت ذلك! إنني أسامحك على كل شيء بسبب ذلك!»، وجذبت الفتى وعانقته عناقًا شديدًا جعله يشعر بأنه أكثر الأشرار سوءًا.

قال سيد لنفسه بصوت لا يكاد يكون مسموعًا: «لقد كان أمرًا لطيفًا جدًّا، على الرغم من أنه كان مجرد.. حلم».

«اصمت يا سيد! إن المرء يفعل في الحلم بالضبط مثلما كان ليفعل لو كان مستيقظًا. هذه تفاحة بلدي كبيرة كنت أحتفظ بها حتى أعطيها لك حال عثرنا عليك من جديد، والآن اذهب إلى المدرسة. أنا ممتنة للرب الكريم وأبينا جميعًا الذي طالت معاناته، الرحيم بأولئك الذين يؤمنون به ويحفظون عهده، أنني استعدتك،

رغم أن الله يعلم أنني لا أستحق هذه الرحمة، لكن لو كان هؤلاء الذين يستحقون هم فقط من يحظون ببركاته وعونه في المواقف الصعبة، لكانت حفنة صغيرة فقط هي من ستستبشر هنا أو «تدخل راحته» عندما تأتي الليلة الطويلة. سيد، ماري، توم، اذهبوا، خذوا أنفسكم وارحلوا، لقد أخذتم من وقتي بما فيه الكفاية».

ذهب الأطفال إلى المدرسة، وذهبت السيدة العجوز لتنادي على السيدة هاربر لتقهر واقعيتها، بحلم توم المدهش، ووصل سيد إلى قرار أكثر حكمة من أن يفصح عن الفكرة التي خطرت إليه عند خروجه من المنزل، إذ كانت الفكرة: «دقيق جدًّا، حلم طويل كهذا ولا توجد به أي أخطاء!».

أصبح توم الآن بطلًا، وأي بطل! لم يثب أو يركض؛ مشى مختالًا في وقار. شعر بأن أعين الناس عليه بعد أن أصبح قرصانًا، وقد كانت هذه بالفعل حقيقة الوضع. حاول ألا يبدي أنه يلاحظ نظراتهم أو يسمع تعليقاتهم وهو يمر إلى جانبهم، إلَّا أنها كانت مثل الطعام والشراب بالنسبة إليه. تبعته حشود من الصبيان الأصغر منه، تشعر بالفخر أنها معه في نفس المشهد وأنه يسمح لها بذلك، كما لو كان عازف طبول يتقدم موكب ما أو فيلًا يتقدم حديقة حيوانات إلى داخل البلدة. أما أقرانه، فقد تظاهروا بأنهم لم يعلموا بغيابه من الأساس، إلَّا أن الحسد كان يملؤهم رغم ذلك، كانوا مستعدين أن يدفعوا أي شيء مقابل أن تكون لهم مثل بشرته التي لفحتها الشمس، ومثل شهرته اللامعة، إلَّا أن توم ما كان ليتخلى عن أي من ذلك ولو حتى من أجل السيرك.

في المدرسة، أعاره الأطفال انتباهًا كبيرًا هو وجو، وأخذوا يتطلعون إليهما بإعجاب شديد جدًّا، حتى أن البطلين ما لبثا أن أصبحا «متعاليين» بطريقة لا تحتمل. بدءا يرويان مغامراتهم للمستمعين المتشوقين. إلا أنه بخيال مثل الذي يمتلكانه في سرد التفاصيل، من المرجح أنها كانت بداية بلا نهاية لها. وأخيرًا، عندما أخرجا غليونيهما وذهبا بهدوء يدخنان في الجوار، وصلا إلى أعلى قمة المجد.

أحس توم في قرارة نفسه أن بإمكانه أن يكون مستقلًا عن بيكي ثاتشر الآن، إذ إن المجد كان كافيًا؛ كان ليعيش من أجل المجد، بالإضافة إلى أنها ربما سترغب في «التصالح» معه الآن وقد أصبح مميزًا. حسنًا، فلتفعل ذلك، ينبغي أن ترى أن بإمكانه أن يكون غير مبالٍ مثل بعض الأشخاص الآخرين. وصلت بيكي حينئذ، فتظاهر توم بأنه لا يراها، وابتعد لينضم إلى مجموعة من الفتيان والفتيات وشرع يتحدث، وسرعان ما لاحظ أنها كانت منطلقة في سعادة، تذهب وتعود بوجه مشرق وعيون متراقصة، متظاهرة بأنها منشغلة بمطاردة زملائها في المدرسة. وعندما كانت تمسك أحدًا ممن تطاردهم، كانت تصرخ وتضحك في نفس الوقت. ولاحظ أنها دائمًا ما كانت تمسك برفاقها بالقرب منه وتنظر إليه على استحياء في أثناء ذلك، وقد أرضى هذا ما بداخله من غرور مذموم، وزاده ذلك «ترفعًا»، بدلًا من أن يجعله ذلك يعود إليها، وجعله الأكثر ثباتًا على تفادي تخليها عنه، الأمر الذي كان يعلم أنها فعلته. في تلك اللحظة، توقفت عن اللعب، وتحركت حولها في تردد، وهي تتنهد مرة أو مرتين وتختلس نظرات حزينة تجاه توم. وحينئذ، لاحظت أن

توم كان يتحدث إلى إيمي لورانس، على نحو خاص أكثر من أي شخص آخر، فشعرت بوخز حاد، وأصابها الانزعاج والاضطراب على الفور. حاولت أن تبتعد، إلَّا أن قدميها غدرت بها وحملتها ناحية المجموعة. بادرت فتاة كانت عند مرفق توم تقريبًا، بحيوية زائفة:

«ماري أوستن! أيتها الفتاة السيئة، لماذا لم تأتِ إلى مدرسة يوم الأحد؟».

«لقد أتيت، ألم تريني؟».

«لا! فعلًا؟ أين كنت تجلسين؟».

«كنت في صف الآنسة بيتر، حيث أذهب دائمًا. لقد رأيتك».

«فعلًا؟ من الغريب أنني لم أرك. لقد أردت أن أخبرك عن النزهة».

«أوه، هذا رائع. من الذي سيرتبها؟».

«سترتب لي أمي نزهة».

«أوه، هذا جيد، أتمنى أن تسمح لي بالقدوم».

«ستسمح لك. النزهة من أجلي، وستسمح لأي أحد أريده أن يأتي، وأنا أريدك أن تأتي».

«هذا لطف كبير منك. متى ستكون النزهة؟».

«قريبًا. ربما قرب الإجازة».

«أوه، ألن يكون هذا ممتعًا! ستقومين بدعوة كل الفتيات والفتيان؟».

«نعم، كل أصدقائي، أو أي شخص يريد أن يصبح صديقًا لي»، ونظرت إلى توم في خلسة شديدة جدًّا، لكنه كان يتحدث إلى إيمي لورانس عن العاصفة المروعة التي ضربت الجزيرة وكيف أن شجرة الجميز الكبيرة مزقت «كل شيء إربًا» بينما كان هو «يقف على بعد ثلاثة أقدام منها».

قالت جريس ميللر: «أوه، هل يمكنني القدوم؟».

«نعم».

قالت سالي روجرز: «وأنا؟».

«نعم».

قالت سوزي هاربر: «وأنا أيضًا؟ وجو؟».

«نعم».

واستمر الوضع هكذا، مصحوبًا بتصفيق يعبرون به عن فرحتهم، حتى طلبت المجموعة كلها، باستثناء توم وإيمي، دعوات. ومن ثم، ابتعد توم ببرود، وهو لا يزال يتحدث، وأخذ إيمي معه. ارتشعت شفتا بيكي واغرورقت عيناها بالدموع، إلَّا أنها أخفت هذه البوادر بمرح متصنع واستأنفت حديثها. لم تعد الحياة تدور حول النزهة أو حول أي شيء آخر في تلك اللحظة، فابتعدت فور أن تمكنت من ذلك، واختبأت ثم انهمرت فيما تسميه الفتيات «سحًا». جلست حزينة، بكبرياء مجروح، حتى دق الجرس، ثم نهضت وفي عينيها نظرة انتقامية، وهزت ضفيرتها وقالت إنها تعرف ماذا ستفعل.

في استراحة الظهيرة، واصل توم تحببه إلى إيمي برضا نفس غامر، وظل يتسكع باحثًا عن بيكي من أجل أن يحطمها بتمثيليته. وجدها في نهاية الأمر، ولكنه تفاجأ، إذ كانت تجلس بأريحية، فوق مقعد صغير وراء مبنى المدرسة، تنظر في كتاب مصور مع ألفريد تمبل، وكانا مستغرقين جدًّا، وكانت رأساهما متقاربتين جدًّا من بعض، فوق الكتاب، لدرجة أنهما بديا غير منتبهين لأي شيء آخر في العالم. تدفقت الغيرة ملتهبة في عروق توم. بدأ يكره نفسه لأنه ضيع الفرصة التي أتاحتها بيكي للتصالح. نعت نفسه بالأحمق، وكل الأسماء الصعبة التي استطاع أن يفكر فيها، وأراد أن يصرخ بغضب. ظلت إيمي تتحدث بسعادة، وهما سائران، لأن قلبها كان فرحًا، إلَّا أن لسان توم كان قد تعطلت وظيفته. لم يسمع ما كانت إيمي تقوله، وعندما كانت تسكت مترقبة، لم يستطع سوى أن يتمتم بموافقة غير ملائمة وفي غير موضعها في معظم الأحيان. ظل يعود إلى الجانب الخلفي لمبنى المدرسة، مرارًا وتكرارًا، ويحرق مقلتي عينيه بهذا المشهد البغيض، ولم يستطع منع نفسه.

غضب توم عندما رأى -أو مثلما تخيل أنه رأى- أن بيكي ثاتشر لم تشعر للحظة أنه موجود في الحياة، إلَّا أنها شعرت به، ورأته، وكانت تعرف أيضًا أنها تفوز بالمعركة، وكانت سعيدة بأن تراه يعاني مثلما عانت هي. أمسى حديث إيمي المبهج غير محتمل، فلمح توم إلى أن لديه بعض الأمور التي كان عليه القيام بها؛ أمور يجب إتمامها، وإلى أن الوقت كان يمر. لكن دون جدوى؛ استمرت الفتاة في صريرها. فكر توم: «أوه، يا إلهي، ألن أتخلص منها أبدًا؟».

في النهاية، كان عليه القيام بهذه الأمور، فقالت له بسذاجة إنها ستكون «في الجوار» بعد اليوم الدراسي، إلَّا أنه رحل سريعًا كارهًا ما فعلته.

فكر توم وهو يضغط على أسنانه: «أي فتى آخر! أي فتى في البلدة كلها عدا القديس لويس المتحاذق هذا، الذي يظن أنه رائع الهندام وأنه أرستقراطي! أوه، حسنًا، لقد ضُرِبت في اليوم الأول الذي رأيت فيه هذه البلدة، يا أفندي، وسأضربك مجددًا! انتظر فقط حتى أمسك بك! سأذهب و..».

وأخذ يفكر أنه يضرب فتى من خياله؛ يلكم الهواء، ويركل ويفقأ، بينما يقول: «أوه، فعلًا؟ اكتفيت، أليس كذلك؟ فليعلمك هذا!»، وهكذا انتهى من ضربه في خياله على النحو الذي يرضيه.

هرب توم من المدرسة بحلول الظهيرة، إذ لم يستطع ضميره أن يتحمل المزيد من سعادة إيمي الممزوجة بالامتنان، ولم تستطع غيرته أن تتحمل المزيد من تلك الضائقة الأخرى. استأنفت بيكي مطالعة الصور مع ألفريد، لكن مع مرور الدقائق دون أن يأتي توم ليتألم، بدأ انتصارها يتلاشى وفقدت الاهتمام. تلا ذلك شعور بالثقل والشرود، ثم الحزن. أطرقت مرتين أو ثلاث مرات باحثة عن وطأ قدم، إلَّا أنه كان أملًا كاذبًا؛ لم يأت توم. في النهاية، تملكها الحزن، وتمنت لو أنها لم تتمادى إلى هذا الحد. عندما رأى ألفريد المسكين أنه كان يفقدها، لم يعرف كيف حدث هذا، ظل يصيح: «أوه، هذه رائعة! انظري إلى هذه!»، إلَّا أنها فقدت صبرها في النهاية، وقالت:

«أوه، لا تهتم لأمري! أنا غير مهتمة بهم!»، وأجهشت في البكاء، ثم نهضت ومضت بعيدًا.

نهض ألفريد وسار إلى جانبها وكان على وشك أن يحاول تهدئتها، لكنها قالت:

«اذهب بعيدًا واتركني بمفردي، أممكن هذا! أنا أكرهك!»، ومضت باكية.

وهكذا، توقف الفتى متساءلًا ما الذي من الممكن أن يكون قد فعله، لأنها كانت قد قالت له إنها ستطالع معه الصور طوال راحة فترة الظهيرة. سار ألفريد نحو مبنى المدرسة الخالي وهو يفكر؛ كان يشعر بالمهانة والغضب. بسهولة خمن حقيقة الوضع؛ ما حدث ببساطة هو أن الفتاة استخدمته لتفرغ غيظها من توم سوير. كان بعيدًا جدًّا عن كره توم قبل أن تخطر إليه هذه الفكرة.

تمنى لو كانت هناك طريقة ما لتوريط هذا الفتى في مشكلة دون مخاطرة كبيرة على نفسه. في تلك اللحظة، وقعت عيناه على كتاب الإملاء الخاص بتوم، فكانت هذه فرصته. بامتنان، فتح الكتاب على صفحة درس فترة ما بعد الظهيرة، وسكب حبرًا على الصفحة.

كانت بيكي في تلك اللحظة تنظر عبر نافذة خلفه، ورأت فعلته، إلَّا أنها مضت دون أن تكشف نفسها. وفي طريق عودتها، نوت أن تبحث عن توم وتخبره، وكان ذلك من شأنه أن يجعل توم ممتنًا وأن تحل مشاكلهما. إلَّا أنها عدلت عن رأيها قبل أن تمضي نصف الطريق إلى المنزل، إذ عادت فكرة معاملة توم لها، عندما كانت تتحدث

عن نزهتها، تحرقها وملأتها بالخجل، وقررت أن تدعه يُجلد بسبب كتاب الإملاء التالف، وأن تكرهه للأبد، بالمرة.

# ١٩

عاد توم إلى المنزل مكتئبًا، وأول شيء قالته له خالته بيَّن له أنه قد أتى بأحزانه إلى سوق لا يبشر بخير:

«يتراءى لي أن أسلخك حيًّا يا توم!».

«ماذا فعلت يا خالتي؟».

«حسنًا، لقد فعلت ما يكفي، لقد ذهبتُ إلى سيريني هاربر كعجوز سهلة الانقياد، متوقعة أنني سأجعلها تصدق كل ذلك الهراء المتعلق بذاك الحلم، ويا إلهي لقد علمتْ من جو أنك كنتَ هنا وسمعتَ كلَّ الحديث الذي دار تلك الليلة. توم، لا أدري إلى ماذا يصير فتى يتصرف على هذا النحو. إنني أشعر باستياء شديد من التفكير في أنك تركتني أذهب إلى سيريني هاربر وأبدو مثل الحمقاء دون أن تقول لي شيئًا».

كان هذا جانبًا آخر للمسألة؛ قبل ذلك الحين، كان ذكاء توم في الصباح يبدو له مزحة جيدة ودهاءً كبيرًا. أما الآن فيبدو نذالة وخسة. دلدل توم رأسه ولم يستطع أن يفكر في أي شيء يقوله للحظة، ثم قال:

«خالتي، أتمنى لو أنني لم أفعل ذلك، ولكنني لم أفكر».

«يا صغيري، أنت لا تفكر أبدًا. أنت لا تفكر في أي شيء باستثناء أنانيتك. لقد فكرت في أن تقطع كل هذا الطريق من جزيرة جاكسون إلى هنا في الليل لتضحك مما يؤرقنا، وفكرت في أن تخدعني بكذبة عن حلم، لكنك لم تفكر أبدًا في أن تشفق علينا وتنتشلنا من الحزن».

«خالتي، لقد عرفت الآن أنها كانت نذالة، لكنني لم أقصد أن أكون نذلًا. لم أقصد، بأمانة. فضلًا عن أنني لم آت إلى هنا لأضحك منكم تلك الليلة».

«لماذا أتيت إذًا؟».

«لأخبرك ألَّا تقلقي علينا، لأننا لم نغرق».

«توم، توم، سأكون الشخص الأكثر امتنانًا في هذا العالم إذا كان بإمكاني تصديق أنك فكرت في شيء جيد مثل هذا، لكنك تعرف أنك لم تفكر في هذا وأنا أعلم ذلك يا توم».

«لقد فكرت في ذلك حقًّا يا خالتي، فعلًا، فلأصاب بالشلل إن لم أكن قد فكرت».

«أوه، توم، لا تكذب، لا تفعل ذلك. إن هذا يزيد الأمور سوءًا وحسب».

«إنها ليست كذبة يا خالتي، إنها الحقيقة. لقد أردتُ أن أنتشلك من الحزن، لقد كان هذا كل ما جعلني آت».

«إنني مستعدة أن أدفع أي شيء لتصديق هذا، كان هذا ليمحو

ذنوبًا كثيرة يا توم. كنت لأصبح سعيدة أنك هربت وتصرفت بهذا السوء. إلَّا أن هذا غير معقول، لأن، لماذا لم تخبرني يا صغيري؟».

«لأنه عندما بدأتِ تتحدثين عن الجنازة، تملكتني فكرة عودتنا واختبائنا في الكنيسة، وبطريقة ما لم أستطع تحمل إفسادها، ولذلك أعدتُ اللحاء إلى جيبي والتزمتُ الصمت».

«أي لحاء؟».

«اللحاء الذي كنتُ قد كتبتُه لأخبرك فيه أننا ذهبنا للقرصنة. أتمنى الآن لو أنك كنت استيقظت عندما قبلتك، أتمنى ذلك بأمانة».

ارتخت تقطيبة وجه خالته ولاح في عينيها حنان مفاجئ.

«هل قبلتني يا توم؟».

«نعم، قبلتك».

«هل أنت متأكد من أنك فعلت ذلك يا توم؟».

«نعم، لقد فعلت ذلك يا خالتي، أنا متأكد».

«لماذا قبلتني يا توم؟».

«لأنني أحبك جدًّا؛ لقد كنتِ مستلقية هناك تتأوهين وكنت أشعر بأسف شديد».

بدت الكلمات حقيقية، فلم تتمكن السيدة العجوز من إخفاء رعشة في صوتها عندما قالت:

«قبلني مجددًا يا توم! واذهب إلى المدرسة الآن، ولا تزعجني مجددًا».

فور أن رحل، ذهبت إلى خزانة ملابس وأخرجت بقايا سترة كان توم قد ذهب بها لممارسة القرصنة. ثم توقفت، والسترة في يدها، وقالت لنفسها:

«لا، لا أجرؤ. الفتى المسكين، أعتقد أنه كذب بشأن هذا، لكنها كذبة مباركة جدًّا؛ تبعث راحة كبيرة. أتمنى لو أن الرب، بل أوقن أن الرب سيسامحه، لأن افتراءه هذه الكذبة ينطوي على طيبة قلب كبيرة. لكنني لا أريد أن أكتشف أنها كذبة؛ لن أبحث».

وضعت السترة جانبًا، ووقفت تتأملها دقيقة. مدت يدها مرتين لتلتقط السترة مجددًا، وتراجعت في المرتين. تجاسرت على الفعل مرة أخرى، وفي هذه المرة حصنت نفسها بفكرة: «إنها كذبة جيدة، إنها كذبة جيدة، لن أدعها تحزنني»، وعليه بحثت في جيب السترة. بعد لحظة، كانت تقرأ قطعة اللحاء وهي تزرف الدموع وتقول: «يمكنني أن أسامح الصبي الآن، ولو اقترف مليون خطيئة!».

# ٢٠

كان هناك شيء في الطريقة التي قبلت بها الخالة بولي، توم، مما أذهب همه ورفع معنوياته المنخفضة وجعله سعيدًا من جديد. في طريقه إلى المدرسة، التقى بيكي ثاتشر صدفة عند رأس ميدو لين، ولأن مزاجه كان دائمًا ما يحدد تصرفاته، ركض إليها دون أن يتردد لحظة واحدة قائلًا:

«لقد تصرفتُ بنذالة شديدة اليوم يا بيكي، وأنا آسف جدًّا. لن أفعل هذا مجددًا أبدًا طالما حييت، هل لك أن تقبلي التصالح معي من فضلك؟».

توقفت الفتاة ونظرت إلى وجهه باحتقار:

«سأكون شاكرة إذا انشغلت بأمورك يا سيد توماس سوير. لن أتحدث إليك مجددًا»، ثم هزت رأسها ومضت.

صُدِمَ توم لدرجة أن ذهنه لم يسعفه أن يقول: «ومن يهتم أيتها الآنسة المتحاذقة؟»، حتى ضاعت اللحظة المناسبة لأن يقول تلك الجملة، ومن ثم لم يقل شيئًا، لكنه غضب بدرجة لا بأس بها رغم

ذلك. مضى تجاه باحة المدرسة وهو يتمنى لو كانت صبيًّا ويتخيل كيف كان سينكل بها حينئذ. ومن ثم، واجهها وألقى إليها تعليقًا لاذعًا وهو يمر، فردت عليه بمثله، وهكذا اكتمل الاعتداء الغاضب. في أوج استيائها، شعرت بيكي أنها لا تكاد تستطيع انتظار بدء المدرسة، إذ كانت متعجلة لأن ترى توم وهو يُجلد عقابًا على كتاب الإملاء الجريح، ذلك أنه إذا سبق وأن كان لديها أي نية مبيتة أن تفضح ألفريد تمبل، فقد ضيعها توم تمامًا بهجومه العدواني.

لم تكن تعلم الفتاة المسكينة أنها تقترب من المشاكل بسرعة هي الأخرى؛ كان معلمهم السيد دوبنز قد بلغ منتصف العمر بطموح لم يتحقق، إذ كانت أكبر رغباته أن يصبح طبيبًا، إلَّا أن الفقر قضى بأنه لا ينبغي أن يكون أكثر من أستاذ في مدرسة بالأرياف، وكان كل يوم يخرج كتابًا غامضًا من مكتبه، ويستغرق في قراءته، خلال الأوقات التي لا يكون فيها تسميعُ دروس، وكان يغلق على هذا الكتاب بالقفل والمفتاح، ولم يكن هناك قنفذ في المدرسة إلَّا ويتشوق أن يلقي نظرة عليه، ومع ذلك لم تسنح الفرصة أبدًا. كان جميع الفتيان والفتيات لديهم تصورات عن طبيعة ذلك الكتاب، إلَّا أنه لم يكن هناك تصوران متماثلين، ولم تكن هناك ثمة طريقة للوصول إلى الحقيقة. وفي ذلك الحين، مرت بيكي من جانب المكتب، الذي كان قريبًا من الباب، ولاحظت أن المفتاح كان في القفل!، وقد كانت هذه لحظة ثمينة.

ومن ثم، نظرت حولها، فوجدت نفسها بمفردها، فأمسكت بالكتاب في يدها على الفور. لم تحمل صفحة العنوان، الذي كان

«علم تشريح الأستاذ فلان»، أية معلومات إلى ذهنها، وعليه بدأت في تقليب الصفحات، فوجدت نفسها على الفور أمام الصورة الرئيسية الملونة المنقوشة بشكل رائع في صدر الكتاب، بمواجهة العنوان الداخلي، والتي كانت لجسد بشري عار تمامًا. ظهر ظل توم سوير على الصفحة في تلك اللحظة، ودخل من الباب ولمح الصورة.

أسرعت بيكي تغلق الكتب، ولحظها العاثر قطعت الصفحة المصورة إلى نصفين حتى منتصفها، فأعادت الكتاب إلى المكتب، وأدارت المفتاح، ثم أجهشت في البكاء وهي تشعر بالخزي والاستياء.

«توم سوير، إنك نذل إلى أقصى درجة، بتجسسك على شخص والنظر إلى ما ينظر إليه».

«كيف لي أن أعرف أنك كنت تنظرين إلى شيء؟».

«يجب أن تخجل من نفسك، يا توم سوير، أنت ستشي بي، وماذا سأفعل أنا، ماذا سيحدث لي! سأجلد، وأنا لم أجلد أبدًا في المدرسة».

ثم ضربت الأرض بقدمها الصغيرة وقالت:

«فلتكن نذلًا كما تشاء! أنا على علم بشيء سيحدث؛ انتظر فقط وسترى! حقود، حقود، حقود!»، وانطلقت خارج المبنى وقد انفجرت في البكاء مرة ثانية..

وقف توم ساكنًا، في حيرة شديدة بسبب هذا الهجوم العنيف. وقال لنفسه في تلك اللحظة:

«يا لها من فتاة فضولية حمقاء! لم تُضرب في المدرسة! يا إلهي!

وماذا في الضرب! هكذا هن الفتيات، حساسات، وجبانات. بالطبع لن أقول لدوبنز العجوز عن هذه الحمقاء الصغيرة، لأن هناك طرقًا أخرى للانتقام ليست بهذه الخسة، لكن ماذا بعد؟ سيسأل العجوز دوبنز مَن شق كتابه، ولن يجيب أحد. ثم سيفعل مثلما يفعل دائمًا؛ يسأل واحدًا تلو الآخر، وعندما يصل إلى الفتاة التي يبحث عنها، سيعرفها دون أن يقول أحد أي شيء، لأن الفتيات دائمًا ما تفضحهن وجوههن وليس لديهن أي قوة شخصية، ومن ثم سيضربها. إنه موقف صعب نوعًا ما على بيكي ثاتشر، لأنه لا مفر منه بأي طريقة». ظل توم يفكر في الأمر لحظة أخرى، ثم أضاف: «ومع ذلك، فلا بأس، إذ إنها كانت لتود أن تراني في مثل هذا المأزق، فلتتحمل ما تلقى!».

لحق توم بالتلاميذ الذين يلعبون في الخارج، وفي غضون دقائق قليلة وصل المدرس واستؤنف اليوم الدراسي، لم يشعر توم برغبة شديدة في المذاكرة، وكان ينزعج من وجه بيكي كلما اختلس نظرة إلى الجانب المخصص للفتيات من الحجرة. أخذ يفكر في كل شيء، ورغم أنه لم يكن يريد أن يشعر بالشفقة تجاهها، فقد كان هذا كل ما استطاع أن يفعله، ولم يستطع أن يشعر بما يمكن أن يرقى حقًّا إلى أن يوصف بأنه سعادة. في تلك اللحظة، كُشف أمر كتاب الإملاء، وانشغل توم كليًّا بشؤونه لفترة من الوقت.

أفاقت بيكي من استغراقها في الحزن، وأبدت اهتمامًا كبيرًا في متابعة ما يحدث. لم تتوقع أن يفلت توم من مأزقه بإنكار أنه من سكب الحبر على الكتاب بنفسه، وقد كانت محقة، وبدا أن

الإنكار يزيد الأمر سوءًا لتوم وحسب. تخيلت بيكي أنها ستكون مسرورة بذلك، وحاولت أن تقنع نفسها بأنها كانت مسرورة بما حدث، ولكنها لم تكن متأكدة، وعندما ازدادت الأمور سوءًا، شعرت بحافز يحثها على النهوض والوشاية بألفريد تمبل، إلَّا أنها قاومت وأجبرت نفسها على أن تبقى ساكنة، قائلة لنفسها: «قطعًا سيقول إنني قطعت الصورة. لن أقول كلمة، ليس من أجل إنقاذ حياته!».

ضُرِب توم، وعاد إلى مقعده دون أن يشعر بأي حزن على الإطلاق، إذ فكر في أنه ربما سكب الحبر على كتاب الإملاء، بحركة عبثية، دون أن ينتبه. وقد أنكر القيام بذلك حفاظًا على مظهره، ولأنها كانت عادة. ومن ثم ثبت على مبدأ الإنكار.

مرت ساعة كاملة، جلس فيها المدرس على عرشه ناعسًا، إذ كان الهواء يبعث على النعاس وسط همهمات الاستذكار، وبعد قليل اعتدل السيد دوبنز وتثاءت ثم فتح مكتبه ومد يده ليأخذ الكتاب، إلَّا أنه بدا مترددًا بين أن يخرجه وأن يتركه. تطلع أغلب التلاميذ في فتور، إلَّا أن اثنين من بينهم كانا يراقبان حركاته بعينين منتبهتين. وضع الأستاذ دوبنز أصابعه على الكتاب بذهن شارد لوهلة، ثم أخرجه واعتدل في جلسته ليقرأ! ألقى توم نظرة على بيكي، فوجدها تنظر مثل أرنب عاجز مطارد تم تصويب مسدس تجاه رأسه -كان قد رآه من قبل-، فنسي مشاجرته معها على الفور، وأخذ يفكر؛ أسرِع، يجب أن يحدث شيء! وأن يحدث في لمح البصر أيضًا! إلَّا أن سرعة وقوع الأمر فجأة قد شلت تفكيره. جيد، لقد خطرت إليه

فكرة! سيركض وينتشل الكتاب، ثم يخرج من الباب وينطلق. إلا أنه تردد في قراره للحظة قصيرة، وضاعت الفرصة بأن فتح المدرس الكتاب. لو كان بإمكان توم أن يستعيد الفرصة الضائعة من جديد! لكن فات الأوان. قال إن بيكي قد أصبحت دون عون الآن. بعد لحظة، واجه الأستاذ المدرسة، وأصبحت كل العيون غائرة تحت نظرته، إذ كان فيها ما يملأ حتى البريء بالخوف. سادت فترة صمت امتدت عشر ثواني، كان يستجمع فيها المدرس غضبه، قبل أن يقول: «من شق الكتاب؟».

لم يكن هناك صوت؛ كان باستطاعة المرء أن يسمع الإبرة ترن. استمر السكون، دقق المدرس في الوجوه واحدًا تلو الآخر بحثًا عن أي إشارات لإحساس بالذنب.

«بنجامين روجرز، هل قطعت الكتاب؟».

إنكار. فترة صمت أخرى.

«جوزيف هاربر، هل فعلتها؟».

إنكار آخر. أخذ قلق توم يتزايد شيئًا فشيئًا تحت العذاب البطيء لهذا الإجراء، دقق المدرس في صفوف الطلاب، مفكرًا لوهلة، ثم التفت إلى الفتيات:

«إيمي لورانس؟».

هزة رأس.

«جرايسي ميللر؟».

نفس الإيماءة.

«سوزان هاربر، هل فعلت هذا؟».

نفي آخر. كانت الفتاة التالية هي بيكي ثاتشر. كان توم يرتجف من رأسه إلى أخمص قدميه من الاضطراب والإحساس بفقدان الأمل تجاه الوضع.

«ريبيكا ثاتشر» [نظر توم إلى وجهها، فوجده شاحبًا من الرعب] «هل قطعتِ- لا انظري إلى وجهي» [رفعت يديها في استعطاف]، «هل قطعتِ هذا الكتاب؟».

مثل البرق، خطرت إلى توم فكرة، فوقف على قدميه وصاح: «أنا من قطعه!».

حدق الجميع في حيرة إلى هذا الأحمق الذي لا يُصدَّق، ثم وقف توم لحظة، يلملم شتات نفسه، وعندما تقدم ليتلقى عقابه، بدت المفاجأة والعرفان والافتنان الذين ظهروا في عيني بيكي المسكينة مردودًا كافيًا لمئة جلدة، وعليه تلقى ضربات الأستاذ دوبنز الأكثر قسوة على الإطلاق، دون أن تخرج عنه صيحة، وهو ملهم بروعة ما فعل. ثم تلقى العقاب الإضافي بأن يبقى ساعتين بعد انقضاء وقت المدرسة، بفتور، لأنه كان يعلم من سيكون بانتظاره في الخارج حين ينفك أسره، ولا يعتبر الوقت الممل ضائعًا.

خلد توم إلى النوم في تلك الليلة، وهو يخطط للانتقام من ألفريد تمبل، بعد أن تابت بيكي وصارحته بكل شيء وهي تشعر

بالخزي، دون نسيان أنها خانته أيضًا، فتح توقُّه للانتقام المجالَ لتأملات ممتعة جدًّا. في النهاية، غلبه النوم وقد علقت كلمات بيكي الأخيرة في أذنه بطريقة حالمة:

«توم، كيف لك أن تكون بهذا النبل!».

# ٢١

كانت الإجازة تقترب، وأمسى ناظر المدرسة، الذي كان دائمًا صارمًا، أكثر صرامة وتشددًا أكثر من ذي قبل، إذ أراد أن تظهر المدرسة بمظهر حسن يوم «الفحص»، وأصبحت عصاه وخيزرانته عديمة النفع تقريبًا في تلك الفترة؛ على الأقل بين الطلبة الأصغر. ولم يفلت من الضرب سوى الصبية الأكبر والشابات البالغات من العمر ثمانية عشر وعشرين عامًا. كان السيد دوبنز يضرب ضربات قوية أيضًا، إذ على الرغم من أن رأسه كانت تلمع من الصلع، تحت شعره المستعار، كان لا يزال في منتصف عمره، ولم تكن هناك أية علامة على وهن في عضلاته. ومع اقتراب اليوم الجليل، ظهر كل التعسف الذي كان يكنه بداخله، إذ بدا أن العقاب على أقل الأخطاء كان يشعره بلذة الانتقام. وكانت النتيجة أن الصبيان الأصغر قضوا أيامهم في رعب ومعاناة، وأمضوا لياليهم في التخطيط للانتقام، ولم يفوتوا فرصة للعبث مع المدرس، ومع ذلك فقد ظل يكشف خططهم طوال الوقت، وكان العقاب الذي يلي كل عملية انتقام ناجحة، ساحقًا ومهيبًا، ويصير الصبيان في حالة شديدة السوء. في النهاية، تآمروا

معًا واتفقوا على خطة كانت تبشر بنجاح باهر. جعلوا ابن الخطاط يقسم، وأخبروه بالمخطط، وطلبوا مساعدته. كان عنده أسبابه التي تجعله مسرورًا بذلك، لأن المدرس كان يتطفل على عائلة والده، وقد أعطى ذلك الفتى دافعًا كافيًا لأن يكرهه. كانت زوجة المدرس ستذهب في زيارة إلى البلد في غضون أيام قليلة، ولم يكن هناك ما سيعيق الخطة. كان المدرس دائمًا ما يستعد للمناسبات الضخمة بأن يكثر من الشرب، وقال ابن الخطاط إنه سينتظر حتى يصل المعلم إلى الحالة المناسبة في مساء يوم الفحص، وبعد ذلك «سيتدبر الأمر» عندما ينعس المدرس فوق كرسيه، ثم سيوقظه في الوقت المناسب ويهرول عائدًا إلى المدرسة.

حانت المناسبة المشوقة في موعدها المضبوط، وفي الثامنة مساءً، كان مبنى المدرسة براقًا بالأنوار، ومزينًا بأكاليل الزهور وأوراق الشجر. جلس المدرس متوجًا في كرسيه العظيم فوق منبر مرتفع، والسبورة السوداء وراءه.

كان يبدو لينًا إلى حد ما، وكان أعيان البلدة وأولياء أمور الطلبة يشغلون ثلاثة صفوف من المقاعد على كلا الجانبين، وستة صفوف في المنتصف. وإلى يساره، خلف صفوف الحضور، كان هناك منبر متحرك كبير، جلس فوقه الطلبة الذين كان من المفترض أن يشاركوا في أنشطة المساء، وكان هناك صفوف من الصبية الصغار، المغتسلين والمتأنقين بدرجة تفرض عليهم عدم أريحية غير محتملة، وصفوف من الصبية الكبار البلهاء، ومنحدرات ثلجية من الفتيات والشابات، اللاتي ارتدين الكتان والموسلين وكان يبدو عليهن

الخجل بسبب أذرعهن المكشوفة، وحلي جداتهن الرخيصة القديمة، وأشرطتهن الزرقاء والوردية، والأزهار التي تزين شعورهن. أما باقي المبنى، فقد كان مملوءًا بطلبة غير مشاركين.

بدأت الأنشطة، ونهض فتى صغير جدًّا يقول في خجل: «من الصعب أن تتوقعوا من فتى في مثل سني أن يتحدث أمام الناس من على المنصة»، إلخ. وكان يومئ إيماءات متقطعة، أشبه بحركات يمكن لماكينة أن تقوم بها، هذا إن افترضنا أن الماكينة معطلة لا قيمة لها، ورغم أنه كان خائفًا بدرجة كبيرة، فقد تمكن من إتمام الأمر في سلام، ولاقى تصفيقًا حارًا عندما انحنى انحناءته الآلية واختفى.

تلته فتاة صغيرة تشعر بالخجل، ألقت قصيدة «كان عند ماري حَمَلٌ صغير»، وهي تلثغ. وانحنت انحناءة ألهبت مشاعرهم، وجعلتهم يكافئونها مصفقين، ومن ثم جلست سعيدة متوردة الخدين.

تقدم توم سوير بثقة مفعمة بالغرور، واندمج في خطبته الخالدة الجامحة «أعطني الحرية أو أعطني الموت»، وقد انفعل بشدة وأومئ إيماءات محمومة، إلَّا أنه انهار في منتصف الخطبة، إذ سيطرت عليه رهبة المسرح، واهتزت قدماه، وبدا وكأنه سيختنق، ورغم أن توم قد كسب حقًّا تعاطف المدرسة الواضح، فقد حظي بصمتهم أيضًا، وقد كان هذا أسوأ من التعاطف، ثم عبس المدرس، فاكتملت الكارثة. جاهد توم، إلَّا أنه انسحب مهزومًا تمامًا. كانت هناك محاولة ضعيفة للتصفيق، إلَّا أنها أحبطت سريعًا.

تلا ذلك قصيدة «وقف الولد على ظهر المركب المحترق» وأيضًا «هبط الأشوريّ» وغيرها من درر الحديث. ثم كانت هناك أنشطة قراءة، ومسابقة تهجئة. قام فصل اللغة اللاتينية الصغير بالتسميع بفخر. ثم حان موعد الحدث الرئيسي في الأمسية، وهو «المؤلفات» الأصلية للفتيات الشابات، اللائي كنَّ يتقدمن إلى المنبر، كل في دورها، ثم تتنحنح، وترفع مخطوطتها (المربوطة بشريط أنيق)، وتشرع في القراءة، مولية عناية قصوى بـ«الأداء» والوقفات، وكانت الموضوعات المطروحة هي نفسها التي تم إلقاء الضوء عليها في مناسبات مشابهة، من قِبل أمهاتهن فيما سبق، وجداتهن، ودون شك جميع أسالفهن في سلسال النساء الذي يعود إلى الحملات الصليبية، وقد كان من بينها «الصداقة»، و«ذكريات الأيام الأخرى»، و«الدين في التاريخ»، و«أرض الأحلام»، و«مزايا الثقافة»، و«أنماط الحكومات السياسية، والمقارنة بينها وإظهار الاختلافات»، و«الحزن»، و«حب الأبناء لآبائهم»، و«أهواء القلوب»، إلخ، إلخ.

وكانت السمة الغالبة على هذه المؤلفات هي الحزن الذي يتم مداواته والتعامل معه بلطف، وكان التدفق الغزير والمفرط لـ«اللغة البليغة» سمة أخرى، وكان الميل إلى إلقاء الكلمات والعبارات الودودة على الآذان حتى تُستهلك تمامًا سمةً أخرى، وكانت العظة الثابتة وغير المحتملة، التي كانت تهز ذيلها المشلول في ختام كل من هذه المؤلفات، تضفي عليهم غرابة تبرزهم وتفسدهم بوضوح، إذ إن مجهودًا مضنيًا كان يُبذَل من أجل أن يحتوي الموضوع المطروح، أيًّا كان هو، بشكل أو آخر ما يمكن للعقلية المتدينة والملتزمة

بالأخلاقيات أن تفكر فيه بطريقة مهذبة، ولم يكن النفاق الصارخ لهذه الخطب كافيًا أن يكون دافعًا لإلغاء هذا الأسلوب من المدارس، وإن لم يكن كافيًا اليوم، فربما لن يكون كافيًا أبدًا يوم تقوم الساعة، إذ إنه لا توجد مدرسة على أرضنا كلها لا تشعر فيها الفتيات الشابات بأنهن ملتزمات باختتام مؤلفاتهن بعظة، وستجد أن عظة الفتيات الأقل تدينًا والأكثر تفاهة في المدرسة دائمًا ما تكون الأطول والأكثر ورعًا دون هوادة، لكن دعنا من هذا، الحقيقة القبيحة غير مستساغة.

دعونا نعود إلى «الفحص»؛ كان أول ما قرئ من مؤلفات بعنوان «هل هذه هي الحياة إذًا؟». ربما يمكن للقارئ أن يتحمل مقتطفًا منها:

«في طرائق الحياة الشائعة، يتطلع العقل الشاب، تحت تأثير العواطف الجياشة، إلى مشهد مرتقب من العربدة! ينشغل الخيال برسم صور وردية من الفرح، وفي الخيال، ترى متبعة الشهوات نفسها وسط حشد احتفالي: «المُراقَب من بين جميع المراقِبين». تدور مرتدية ثيابًا ثلجية، عبر متاهات الرقصة البهيجة، عيناها الأكثر إشراقًا، خطوتها الأخف وسط الحشد المبتهج. ووسط هذه التخيلات اللذيذة، يمر الوقت سريعًا، ويحين وقت الترحيب بدخولها إلى عالم النعيم، الذي كانت تراودها بشأنه أحلام شديدة الإشراق. كيف يبدو لها كل شيء في رؤياها الساحرة مثل الخيال! كل مشهد جديد أكثر سحرًا مما سبقه. لكن بعد فترة، تجد أن تحت هذا المظهر الخارجي

الجيد، كل شيء باطل، التودد الذي سحر روحها آنفًا، أصبح الآن مصدر إزعاج شديد على أذنها، قاعة الرقص فقدت جاذبيتها، فتبتعد بصحة منهكة وقلب متألم، وهي مقتنعة بأن الملذات الدنيوية لا يمكن أن تلبي رغبات الروح!».

وهكذا دواليك. كانت تلقى علامات استحسان من وقت إلى آخر في أثناء القراءة، مصحوبة بهمسات إعجاب تقول: «ياللعذوبة!» «ياللفصاحة!» «حقيقي جدًّا!»، إلخ، وبعد أن اختتمت بعظة متمثلة في شكل ابتلاء غريب، كان التصفيق حارًا.

ثم نهضت فتاة حزينة نحيفة، يظهر على وجهها الشحوب «المثير للاهتمام» الذي يأتي من أثر الحبوب وسوء الهضم، وقرأت «قصيدة». سيكون مقطعان شعريان منها كافيين:

**«وداع عذراء ميزوري لـ«ألاباما»**

وداعًا ألاباما! أنا أحبك جدًّا!
لكنني سأتركك الآن لفترة!
حزينة، نعم، حزينة هي أفكاري عنك وجعلت قلبي يضطرب،
وتتكاثر الذكريات الموجعة في رأسي!
لأنني تجولت عبر الغابات المزهرة،
وجبت وقرأت بالقرب من نهر تالابوسا،
وأنصتُّ إلى سيول تالاسي المتلاطمة،

وبحثت عن الحب على ضفة نهر كوسا مع شعاع الفجر.

إني لأستحي لأنه ليس لي أن أتحمل قلبًا مفعمًا،
أو أن أتورد وراء عيناي الدامعتين،
عليَّ الآن أن أفارق بلدًا ليس غريبًا،
وليسوا بغرباء من أظهر تنهداتي هذه لهم.
في هذه الولاية، كان لي بيت وكنت أحظى بترحيب،
التي أرحل عن وديانها، التي تخبو قممها سريعًا مني
وحتمًا أحست عيناي وقلبي بالبرد وكذلك رأسي
عندما، يا ألاباما العزيزة! يعطونك ظهورهم!»

لم يعرف سوى القليل معنى «رأس»، إلَّا أن القصيدة لاقت استحسانًا رغم ذلك.

بعد ذلك، جاءت فتاة شابة ذات شعر أسود وعيون سوداء وبشرة داكنة، ووقفت صامتة لوهلة في تأثر، ورسمت تعبيرًا تراجيديًّا، وشرعت في القراءة بنبرة رصينة موزونة:

**رؤية**

كان الليل مظلمًا وعاصفًا. حول العرش في الأعالي، لم تهتز نجمة واحدة، إلَّا أن وقع الأصوات العميقة للرعد القوي على الأذن كان دائمًا يهزها، وضرب البرق المروع بغضب من بين الحجرات

السحابية في السماء، حتى بدا أنه يستهزئ بالسلطة التي يمارسها فرانكلين المشهور فوق أهواله! حتى أن الريح العاصفة قد خرجت معًا من مكامنها الصوفية، وهبت مهددة، كما لو أنها تزيد بهبوبها ضراوة المشهد. في مثل هذه الأوقات المظلمة الموحشة، تنهدت روحي في تعاطف إنساني، لكن بدلًا من ذلك:

«صديقتي الأقرب، مستشارتي، مصدر راحتي ومرشدتي

فرحتي وقت الحزن، نعيمي الثاني في الفرحة» جاءت إلى جانبي.

تحركت كأنها واحدة من تلك الكائنات البراقة التي يتم تصويرها وهي تمشي تحت الشمس في عدن، ويتخيلها الحالم والشاب، ملكة جمال بسيطة إلَّا من حسنها الفائق، شديدة النعومة في خطواتها، عجزت حتى عن أن تحدث صوتًا، ولولا السحر الأخاذ المكتسب من لمستها اللطيفة، مثل غيرها من الحسنوات المتواريات عن الأنظار، لكانت ابتعدت دون أن يشعر بها أحد أو يبحث عنها. كسا حزن غريب ملامحها، كدموع ثلجية على ثياب شهر ديسمبر، بينما كانت تشير إلى العناصر المتنازعة خارجًا، وطلبت إليَّ أن أتأمل الشخصين المتواجدين.

بلغ هذا الكابوس حوالي تسع صفحات مكتوبة، وانتهى الأمر بعظة محطمة لكل آمال من هم ليسوا من أعضاء الكنيسة المشيخية إلى درجة أنها حصلت على الجائزة الأولى، وتم اعتبار أن الجهد الأفضل الذي بُذِل طوال الأمسية كان في تلك المقطوعة. وألقى عمدة القرية، وهو يقدم الجائزة لمؤلفتها، خطابًا احتفائيًّا قال فيه

إن هذا كان أكثر شيء «فصيح» سمعه على الإطلاق، وأن دانيال ويبستر نفسه كان ليفخر به جدًّا.

ربما تجدر الإشارة، بصورة عرضية، إلى أن عدد العبارات الإنشائية التي تم فيها استخدام كلمة «جميل» كان مبالغًا فيه، أما استخدام تعبير «صفحة الحياة» للإشارة إلى الخبرة الإنسانية فقد وصل إلى المتوسط المعتاد.

في ذلك الحين، وضع المدرس كرسيه جانبًا، وقد كان ثملًا بدرجة كادت تجعله لينًا. أدار ظهره إلى الحضور، وبدأ يرسم خريطة لأمريكا على السبورة السوداء، ليتمرن عليها صف الجغرافيا، إلَّا أنه رسمها بشكل مؤسف، نظرًا إلى أن يده لم تكن ثابتة، وسرت عبر المدرسة ضحكات مكتومة كان يعرف سببها، واستعد لأن يصلح الأمر، فمسح بعض الخطوط وأعاد رسمها مرة أخرى، إلَّا أنه أفسدها أكثر مما كانت، وارتفع صوت الضحكات المكتومة، فصب انتباهه كله على ما يفعل، كما لو أنه قد عزم أمره على ألَّا تحط الضحكات من قدره. شعر بأن كل العيون كانت مثبتة عليه، تخيل أنه كان ينجح في مهمته، إلَّا أن الضحكات استمرت، حتى أنها تزايدت. حسنًا، ربما قد تزايدت بالفعل، إذ كانت هناك حجرة علوية فوقه، قد ثُقِبت بفتحة فوق رأسه، وكانت هناك قطة فوقه في هذه الحجرة، مربوطة من فخذيها بخيط، وتم ربط خرقة حول رأسها وفكيها لمنعها من المواء، وبينما كانت تنزل ببطء، تقوست إلى أعلى وأمسكت في الخيط بمخالبها، وتأرجحت إلى أسفل وتشبثت بالهواء غير الملموس.

ارتفع صوت الضحكات أكثر فأكثر، وكانت القطة على ارتفاع ست بوصات من رأس المدرس المستغرق، أخذت تنزل وتنزل إلى أسفل قليلًا، حتى أمسكت بشعره المستعار بمخالبها اليائسة، وتشبثت بها، وعلى الفور جذبها أحد إلى الغرفة العلوية، بينما لا تزال غنيمتها في حوزتها! وياللضوء الذي سطع من رأس المدرس الصلعاء، إذ إن ابن الخطاط كان قد طلاها باللون الذهبي!

وبذلك انتهى الاجتماع، وانتقم الفتيان، وبدأت الإجازة.

ملاحظة: «المقطوعات» المقتبسة في هذا الفصل مأخوذة دون تحريف من كتاب بعنوان «النثر والشعر، بقلم سيدة غربية»، إلَّا أنها على شاكلة طالبات المدارس بالضبط وحرفيًّا، ومن ثم فهنَّ أفضل من أي تقليد محض يمكن أن يتم.

# ٢٢

انضم توم إلى جماعة «الطلاب الوسطيين»، بعد أن أعجبته الهيئة المتفاخرة المتمثلة في «ملابسهم»، وتعهد بأن يقلع عن التدخين ومضغ التبغ والتلفظ طالما ظل عضوًا بالجماعة. وجعله ذلك يكتشف شيئًا جديدًا، وهو أن التعهد بعدم فعل شيء هو الطريقة الأفضل لجعل ذلك الشيء الأكثر إغراءً لفعله، إذ سرعان ما تملكت توم رغبة أليمة في أن يشرب ويسب، وازدادت الرغبة بشدة، ولم يمنعه من الانسحاب من الجماعة سوى أمل أن يحظى بفرصة لأن يظهر مرتديًّا وشاحه الأحمر. كان عيد الاستقلال يقترب، إلَّا أنه سرعان ما فقد حماسه به، فقد حماسه به قبل أن يرتدي أصفاده لأكثر من ثماني وأربعين ساعة، وعلق آماله على القاضي العجوز فريزر، قاضي الصلح، الذي كان من الواضح أنه على فراش الموت ومن المرجح أن يشيع في جنازة عامة كبيرة، نظرًا لكونه مسؤولًا رفيعًا جدًّا. على مدار ثلاثة أيام، كان توم مهتمًا جدًّا بوضع القاضي ومتعطشًا لأخباره. وأحيانًا كانت ترتفع آماله جدًّا جدًّا لدرجة أنه كان يغامر بأن يُخرج حلته ويتدرب أمام المرآة، إلَّا أن القاضي كان

متذبذبًا على نحو يبعث على إحباط شديد. في النهاية، أعلنوا أنه في حالة تحسن، ثم في فترة نقاهة. شعر توم بالاشمئزاز، وأحس أنه مجروح أيضًا، ومن ثم قدم استقالته على الفور، وفي تلك الليلة تعرض القاضي لانتكاسة ووافته المنية، وقرر توم أنه لن يثق برجل مثل هذا مجددًا.

كانت الجنازة مهيبة، وسار طلبة الجماعة في موكب بطريقة يُراد بها قتل العضو المستقيل من الحسد. أصبح توم فتى حرًا من جديد، ومع ذلك فقد كان هناك خطب في الأمر: كان بإمكانه في ذلك الحين أن يشرب ويسب، ومع ذلك فقد فوجئ بنفسه غير راغبٍ في الأمر، ذلك أن الحقيقة البسيطة التي تقول إن بإمكانه القيام بالأمر أفقدته الرغبة فيه وجعلت الأمر يفقد سحره.

تعجب توم بعد ذلك من أن إجازته التي كان يتطلع إليها ما لبثت أن أصبحت ثقيلة نوعًا ما عليه.

شرع في كتابة يومياته، إلَّا أن شيئًا لم يحدث على مدار ثلاثة أيام، فتخلى عن الفكرة.

في البداية، وفدت إلى البلدة عروض السود الكوميدية، وأحدثت حسًا، وذهب توم وجو إلى فرقة استعراضية، وظلوا سعداء ليومين.

حتى أن «الرابع المجيد» كان مخيبًا للآمال نوعًا ما، إذ إنه كان يومًا ممطرًا بغزارة، وبالتالي لم يكن هناك موكب، وقد كان أعظم رجل في العالم (حسبما افترض توم)، وهو السيد بنتون، عضو

مجلس شيوخ أمريكي حقيقي، مخيبًا للآمال بدرجة هائلة، إذ إن طوله لم يكن ٢٥ قدمًا، ولا حتى أي طول يقترب من ذلك.

ثم وفد سيرك، ولعب الفتيان في السيرك على مدار ثلاثة أيام بعد ذلك، في خيم مصنوعة من سجاد قديم، وكان رسم الدخول ثلاثة تعريفة للفتيان وتعريفتين للفتيات. ثم نسوا أمر السيرك.

وفد عالم بفراسة الدماغ ومنوم مغناطيسي، وذهبا مجددًا وتركا القرية أكثر مللًا وكآبة من ذي قبل.

كانت هناك بعض الحفلات التي تقام للفتيات والفتيان، لكنها كانت قليلة جدًّا ومبهجة جدًّا على نحو يجعل الفجوات المؤلمة بينها أصعب.

وكانت بيكي ثاتشر قد ذهبت إلى بيتها في القسطنطينية لتمضي فيه الإجازة مع والديها، ومن ثم لم يكن هناك جانب مشرق للحياة في أي مكان.

كان السر المهيب المتعلق بالقاتل يتسبب في معاناة متواصلة، كان مثل سرطان دائم ومؤلم بالضبط.

ثم أصيب بالحصبة.

على مدار أسبوعين طويلين، وقع توم أسيرًا، ميتًا في نظر العالم وما يحدث فيه. كان مريضًا جدًّا، ولم يثر اهتمامه شيء. عندما وقف على قدميه أخيرًا وتوجه إلى وسط البلدة بوهن، وجد أن تغيرًا محزنًا قد وطأ على كل شيء وكل مخلوق. لقد حدث «إحياء للدين»،

وأصبح الجميع «متدينًا»، ليس فقط الكبار، لكن حتى الفتيان والفتيات. ذهب توم يتجول بأمل ضئيل أن يلمح وجهًا واحدًا آثمًا مباركًا، إلَّا أن الإحباط ملأه تمامًا، إذ وجد جو هاربر يدرس في الإنجيل، فابتعد في حزن عن هذا المشهد المحبط، ثم بحث عن بن روجرز، ووجده يزور الفقراء ومعه سلة بها أوراق عليها أذكار. ثم لحق بجو هوليز، الذي أشار إلى أن الهبة الغالية المتمثلة في إصابته مؤخرًا بالحصبة هي عظة. وكان كل فتى يلتقي به يزيد إلى إحباطه طنًا من الإحباط، وعندما ركض في النهاية، وهو مكتئب، باحثًا عن ملاذ في حضن هكلبري فن، تلقاه الأخير باقتباس من الكتاب المقدس، فانفطر قلبه وعاد زاحفًا إلى المنزل ثم إلى الفراش، مدركًا أنه الوحيد الذي كان ضالًا في البلدة كلها، إلى أبد الآبدين.

في تلك الليلة، هبت عاصفة شديدة، وأمطار غزيرة، وهزيم رعد مروع، وصعقات برق تعمي الأبصار، فغطى رأسه بأغطية الفراش وانتظر موته، في رعب من الترقب، إذ لم يكن لديه أدنى شك أن كل هذه الجلبة كانت من أجله.

ظن أنه قد جعل صبر القوى العليا ينفد وأن التحمل قد وصل إلى أقصاه وأن هذه كانت النتيجة. ربما رأى أن من الإهدار للهيبة والذخيرة أن تقتل بعوضة ببطارية مدفعية، ومع ذلك لم ير شيئًا غير ملائم في تسخير مثل هذه العاصفة الرعدية الشديدة لأن تضرب الأرض من أجل حشرة مثله.

رويدًا رويدًا، أفرغت العاصفة ما في جعبتها وهدأت دون

تحقيق هدفها. وكان أول ما خطر للفتى أن يفعله هو أن يكون شاكرًا ويصلح من نفسه. وكان ثاني ما فكر فيه هو أن ينتظر، حتى يتأكد أنه لن تكون هناك المزيد من العواصف.

في اليوم التالي، عاد الأطباء من جديد، إذ انتكس توم. وبدت الثلاثة أسابيع التي قضاها على ظهره في تلك المرة كأنها عمر كامل. عندما خرج في النهاية، كان شاكرًا لأنه تحرر، متذكرًا كيف كان وحيدًا دون صحبة وقد تعرض للهجر، وتسكع بفتور في الشارع ووجد جيم هوليز يلعب دور القاضي في محكمة جديدة كانت تحاكم قطة بتهمة القتل، في حضور ضحيتها، التي كانت طائرًا، ووجد جو هاربر وهاك فِن في زقاق يأكلان شمامًا مسروقًا. يا للمساكين! إنهم مثل توم، تعرضوا لانتكاسة.

# ٢٣

في النهاية، تم تنشيط هذا المناخ الناعس، وبقوة، إذ أحيلت قضية القتل إلى المحكمة، وأصبحت على الفور الموضوع الشاغل لحديث القرية، ولم يستطع توم أن يتحاشاه. كان قلبه يرتجف في كل مرة يذكر فيها القاتل، لأن مخاوفه وضميره الذي يؤرقه أقنعاه تقريبًا بأن هذه التعليقات كانت تلقى على مسامعه كـ«مجسات نبض»، لم يكن يعرف كيف يمكن أن يكون موضع شك بشأن بمعرفة أي شيء عن القاتل، ومع ذلك فلم يكن يشعر بارتياح وسط هذه الثرثرات، وجعلته يرتجف بردًا طوال الوقت، ثم أخذ هاك إلى مكان مهجور ليتحدث معه، إذ كان من الباعث على الراحة، نوعًا ما، أن يتحدث بهذا السر، ولو قليلًا، وأن يقسم الحمل مع أحد غيره يعيش نفس المعاناة. فضلًا عن ذلك، فقد أراد أن يطمئن نفسه بأن هاك لم يفش السر.

«هل أخبرت أحدًا بهذا الشأن يا هاك؟».

«أي شأن؟».

«أنت تعرف عن ماذا أتحدث».

«أوه، بالطبع لا».

«ولا كلمة؟».

«ولا كلمة واحدة، لكن قل لي لماذا تسأل؟».

«لقد كنت خائفًا».

«لن نبقى على قيد الحياة يومين إذا تم اكتشاف هذا الأمر يا توم سوير، أنت تعرف ذلك».

شعر توم براحة أكبر. وبعد فترة صمت، قال:

«لا يمكن لأي أحد أن يجبرك على أن تحكي ما حدث، أليس كذلك يا هاك؟».

«يجبرني أن أحكي؟ إذا أردت أن أجعل هذا الشيطان الهجين يغرقني، حينها سيجبرونني على الحكي. لا توجد طريقة أخرى».

«حسنًا إذًا، أعتقد أننا بأمان طالما أبقينا على الأمر سرًا، لكن دعنا نقسم مرة ثانية على أي حال، هكذا أضمن».

«أوافق».

وهكذا أقسما ثانية بجدية مخيفة.

«عن ماذا يدور الحديث يا هاك؟ لقد سمعت جزءًا منه».

«الحديث؟ حسنًا، إنه يدور طوال الوقت حول ماف بوتر، ماف بوتر، ماف بوتر. يجعلني هذا الأمر أتصبب عرقًا على الدوام، لذلك أريد أن أختبئ في مكان ما».

«الأمر نفسه يحدث حولي، أعتقد أنه هالك، ألا تشعر تجاهه بالأسف أحيانًا؟».

«معظم الوقت تقريبًا، معظم الوقت تقريبًا. ليس له ذنب، ولم يفعل أي شيء مؤذ لأي أحد أبدًا، إنه يصطاد قليلًا من أجل أن يحصل على المال ليسكر، ويتسكع كثيرًا دون فائدة، لكن يا إلهي جميعنا يفعل ذلك، على الأقل معظمنا، باستثناء الواعظين ومن شابههم. لكنه شخص جيد نوعًا ما، لقد أعطاني نصف سمكة ذات مرة لم تكن لتكفي اثنين، ووقف إلى جانبي مرات كثيرة نوعًا ما، عندما تعثر حظي».

«وأصلح لي طائرات ورقية يا هاك، وربط خطاطيف في سنارتي، أود لو كان بإمكاننا أن نخرجه من هناك».

«يا إلهي، لا يمكن أن نخرجه يا توم، فضلًا عن أنه لن تكون هناك فائدة من الأمر، وسيقبضون عليه مجددًا».

«صحيح، سيقبضون عليه. لكنني أكره أن أسمع أنهم يعذبونه كأنه شيطان وهو لم يفعل شيئًا».

«وأنا أيضًا أكره ذلك يا توم. يا إلهي، إنني أسمعهم يقولون إنه الشرير الأكثر دموية من حيث الشكل في البلدة، ويتعجبون من أنه لم يشنق حتى الآن».

«صحيح، إنهم يقولون هذا طوال الوقت، وسمعتهم يقولون إنه لو أصبح حرًا فسيقتلونه».

«وسيفعلونها».

ظل الفتيان يتحدثان كثيرًا، إلَّا أن ذلك بعث فيهما قليل من الراحة. وعندما بدأ الظلام يحل، وجدا نفسيهما يتسكعان بالقرب من الحي المتواجد فيه السجن المعزول الصغير، بأمل غير محدد المعالم أن شيئًا ما سيحدث، ربما من الممكن أن تذهب معه مشاكلهما، إلَّا أن شيئًا لم يحدث، ولم يبد أن هناك ملائكة أو جنيات مهتمة بالأسير سيء الحظ.

فعل الصبيان ما فعلاه كثيرًا من قبل، ذهبا إلى الزنزانة منزعجين وأعطيا بوتر بعض التبغ والثقاب. كان في الطابق الأرضي ولم يكن هناك حراس.

كان امتنانه لهداياهما دائمًا ما يؤرق ضميريهما، وقد أرقهما هذه المرة بشكل أعمق من ذي قبل، لأنهما شعرا بالجبن والخيانة إلى أقصى درجة عندما قال بوتر:

«لقد أحسنتما إليَّ جدًّا يا فتيان، أكثر من أي شخص آخر في البلدة، وأنا لا أنسى هذا، لا أنسى. كثيرًا ما أقول لنفسي، أقول إنني، إنني اعتدت أن أصلح كل أشياء الصبيان وطائراتهم الورقية، وأطلعهم على أماكن الصيد الجيدة، وأكون صديقًا لهم قدر استطاعتي، والآن نسوا جميعًا العجوز ماف بعد أن وقع في مشكلة، إلَّا أن توم لم ينس، وهاك لم ينس، إنهما لا ينسيانه، وأقول إنني لا أنساهما. حسنًا يا فتيان، لقد فعلت شيئًا فظيعًا، لأنني كنت سكرانًا وغير واعٍ في ذلك الوقت، هذا هو الشيء الوحيد الذي أذنبت فيه، والآن عليَّ أن أعاقب عليه، ولا بأس. هذا صحيح، وهذا هو الأفضل أيضًا حسبما

أعتقد، آمل ذلك على أي حال. حسنًا، لن نتحدث عن ذلك. لا أريد أن تشعرا بالاستياء، لقد صرتما أصدقائي. لكن ما أريد أن أقوله هو ألَّا تسكرا أبدًا، ولن ينتهي بكما الحال هنا. قفا إلى اليسار قليلًا، هكذا بالضبط، يا لها من راحة كبيرة أن يرى المرء وجوهًا ودودة عندما يكون في مثل هذا المأزق الموحل، ولا يأتي أحد هنا سواكما. وجهان ودودان طيبان، وجهان ودودان طيبان. اصعدا فوق ظهر أحدكما الآخر ودعوني ألمس هذين الوجهين. هكذا. صافحاني، ستدخل أيديكما من بين القضبان، لكن يداي كبيرتان جدًّا. أياد صغيرة وضعيفة، لكنها ساعدت ماف بوتر كثيرًا، وستساعده أكثر إذا كان باستطاعتها».

ذهب توم إلى المنزل حزينًا، وامتلأت أحلامه في تلك الليلة بأشياء مرعبة. في اليوم التالي وما تلاه، تسكع بالقرب من قاعة المحكمة، مدفوعًا برغبة في الدخول تكاد تكون مقاومتها غير ممكنة، مجبرًا نفسه أن يبقى خارجًا. وكان هاك يمر بنفس الشيء. وقد حرصا على أن يتجنب أحدهما الأخر. كل يتجول بعيدًا، من وقت إلى آخر، ومن ثم يعيدهما الانجذاب الكئيب نفسه دائمًا إلى بعضهما البعض. أبقى توم أذنيه مفتوحتين عند خروج المتعطلين من قاعة المحكمة، لكنه كان دائمًا ما يسمع أخبارًا محزنة، كان الشرك يغلق أكثر فأكثر بلا هوادة حول المسكين بوتر. في نهاية اليوم الثاني، كان حديث البلدة مفاده أن شهادة إنجون جو بقيت صامدة دون أن تتزحزح، ولم يكن هناك أدنى شك بشأن القرار الذي ستصل إليه هيئة المحلفين.

ظل توم في الخارج حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وعاد إلى غرفته عبر النافذة. كان في حالة شديدة من الحماس، ولم ينم إلى بعد ساعات. توافدت القرية إلى قاعة المحكمة في صباح اليوم التالي، إذ كان من المُقرر أن يكون هذا هو اليوم العظيم. وكان تمثيل الحضور من كلا الجنسين متساويًا تقريبًا. بعد فترة انتظار طويلة، تقدمت هيئة المحلفين واتخذوا مقاعدهم، وبعد ذلك بفترة قصيرة، أحضروا بوتر، وقد كان شاحب الوجه ومنهكًا وخائفًا وفاقدًا للأمل، والسلاسل تتدلى فوقه، وجلس حيث يمكن لكل العيون الفضولية أن تحدق إليه، ولم يكن إنجون جو أقل ظهورًا منه، وكان مثلما كان دائمًا؛ متبلد الإحساس. سادت فترة صمت أخرى، ثم وصل القاضي وأعلن رئيس الشرطة بدء المحاكمة، وتلا ذلك الهمسات المعتادة بين المحامين وتجميع الأوراق معًا. ساهمت هذه التفاصيل والتأخيرات المصاحبة في تهيئة مناخ من التحضيرات؛ كان مبهرًا بقدر ما كان آسرًا.

بعد ذلك، نودي على شاهد أفاد بأنه وجد ماف بوتر يغتسل في جدول صغير، في ساعة مبكرة من صباح اليوم الذي تم اكتشاف جريمة القتل فيه، وأنه انسل بعيدًا على الفور. وبعد المزيد من الأسئلة، قال محامي الادعاء:

«الشاهد لك».

رفع السجين عينيه لوهلة، ثم أنزلهما مجددًا عندما قال محاميه:

«ليس لدي أسئلة أوجهها له».

أفاد الشاهد التالي بالعثور على السكين بالقرب من الجثة. قال محامي الادعاء:

«الشاهد لك».

رد محامي بوتر: «ليس لدي أسئلة أوجهها له».

أقسم شاهد ثالث أنه كثيرًا ما رأى السكين في حوزة بوتر.

«الشاهد لك».

امتنع محامي بوتر عن استجوابه، فبدأت وجوه الحضور تبدي انزعاجًا. هل يتعمد هذا المحامي إهدار حياة موكله دون جهد؟

أشار العديد من الشهود إلى سلوك بوتر المقلق، الذي كان ينطوي على إحساس بالذنب، عندما وصل إلى مسرح الجريمة، ومن ثم سُمِح لهم بمغادرة المنصة دون أن توجه إليهم أسئلة من الطرف الآخر.

سرد شهود موثوقون كل تفاصيل الملابسات المزعجة التي وقعت في المقابر في صباح ذلك اليوم التي كان جميع الحضور يتذكرونها جيدًا، إلَّا أن محامي بوتر لم يوجه لأي منهم أسئلة، فظهرت حيرة وعدم ارتياح القاعة في شكل همهمات، ما دفع منصة القضاة إلى زجرهم. ومن ثم قال محامي الادعاء:

«بقسم المواطنين الذين ترقى كلماتهم فوق الشبهات، ألقينا بهذه الجريمة الشنعاء، بعيدًا عن كل مواطن الشك، على عاتق السجين التعس المتواجد خلف القضبان. وبذلك أنهي عرض قضيتنا».

تأوه بوتر المسكين، ووضع وجه في يديه وهز جسده بهدوء للأمام والخلف، بينما ساد صمت أليم في قاعدة المحكمة. تأثر العديد من الرجال، وظهر تعاطف العديد من النساء في دموعهن. ثم نهض محامي الدفاع وقال:

«سيادة القاضي، في دفاعنا عند بداية هذه المحاكمة، أشرنا إلى أن غرضنا كان إثبات أن موكلنا قام بهذا الفعل الشنيع وهو تحت تأثير الهذيان غير المسؤول والأعمى الذي تسبب فيه الشراب، وقد عدلنا عن رأينا، ولن نتقدم بهذا الالتماس». [ثم قال إلى الكاتب:] «فلتدعو توماس سوير!».

بدت الدهشة المشوبة بالحيرة على وجوه جميع من في القاعة، ولا يستثنى من ذلك حتى بوتر. تمسمرت العيون بتوم، في اهتمام مملوء بالحيرة، بينما نهض توم واتخذ مكانه فوق المنصة. بدا الفتى مضطربًا بما فيه الكفاية، لأنه كان خائفًا بدرجة سيئة، ثم أدى اليمين.

«توماس سوير، أين كنت في السابع عشر من يونيو، قرب منتصف الليل؟».

نظر توم إلى وجه إنجون جو الحديدي، وانعقد لسانه. أنصت الحضور وهو منقطع الأنفاس، إلَّا أن الكلمات رفضت أن تخرج. ومع ذلك، استعاد الصبي بعضًا من قوته بعد لحظات قليلة، وتمكن من أن يحمل بعضًا من هذه القوة إلى صوته حتى يجعل جانبًا من القاعة يسمعه:

«في المقبرة!».

«بصوت أعلى قليلًا من فضلك، لا تخف، كنت..».

«في المقبرة».

علت وجه إنجون جو ابتسامة متهكمة.

«هل كنت في أي مكان بالقرب من مقبرة هورس ويليامز؟».

«نعم يا سيدي».

«ارفع صوتك قليلًا. بأي قدر كنت قريبًا؟».

«كنت قريبًا مثل قربي منك».

«هل كنت مختبئًا أم ماذا؟».

«كنت مختبئًا».

«أين؟».

«وراء شجرة الدردار الموجودة عند حافة القبر».

تحرك إنجون جو بشكل لا يكاد يكون ملحوظًا.

«هل كان معك أحد؟».

«نعم، يا سيدي. لقد كنت هناك مع..».

«انتظر، انتظر لحظة. لا داعي أن تذكر اسم رفيقك، سنذكره في الوقت المناسب. هل كنت تحمل أي شيء معك وأنت هناك».

تردد توم قليلًا وبدا مرتبكًا.

«تحدث يا فتى، لا تخجل. الحقيقة دائمًا تلقى احترامًا. ماذا أخذت معك إلى هناك؟».

«فقط.. آآ.. آآ.. قطة ميتة».

امتلأت القاعة ضحكًا أسكتته المحكمة.

«سنعرض جثة تلك القطة. والآن يا بني أخبرنا بكل ما حدث، أخبرنا بطريقتك الخاصة، ولا تغفل ذكر أي شيء، ولا تخف».

بدأ توم، مترددًا في البداية، لكن عندما اندمج في موضوعه، تدفقت كلماته بسهولة أكبر فأكبر، وبعد فترة قصيرة اختفت كل الأصوات عدا صوته، وكانت كل العيون مثبتة عليه، وتعلق الحضور بكلماته بأفواه مشدوهة وأنفاس مقطوعة، دون انتباه إلى الوقت، وقد استغرقوا في الألغاز المرعبة للحكاية. ووصل توتر المشاعر المكبوتة إلى أوجِه عندما قال الصبي:

«.. وبينما أمسك الطبيب باللوح وسقط ماف بوتر، قفز إنجون جو ومعه السكين و..».

وفجأة! بسرعة البرق، ركض الخلاسي نحو نافذة، وشق طريقه وسط كل من اعترضوه، واختفى!

# ٢٤

عاد توم بطلًا لامعًا من جديد، وموضع تدليل الكبير وحسد الصغير. حتى أن اسمه أصبح خالدًا في المطبوعات، بعد أن مجدته صحيفة القرية، وفكر البعض في أنه سيكون رئيسًا، هذا حال أفلت من الشنق.

كالعادة، أخذ العالم غير المنطقي، المتبدل، ماف بوتر في أحضانه ودلـله بنفس الإفراط الذي أساء إليه به من قبل، ولأن هذا النوع من السلوك في صالح العالم، فمن غير الجيد أن تجد فيه عيبًا.

كانت أيام توم تألقًا وفرحًا نهارًا، ولياليه مواسم رعب، إذ غزا إنجون جو، كل أحلامه، والموت يطل من عينيه دائمًا، وكان من الصعب على أي إغراء أن ينجح في إقناع الصبي أن يخرج بعد حلول الليل. وكان المسكين هاك في نفس الحالة من البؤس والرعب، إذ إن توم كان قد حكى القصة كاملة إلى المحامي في الليلة التي سبقت يوم المحاكمة العظيم، وكان هاك خائفًا بدرجة رهيبة من أن يتسرب أمر تورطه في المسألة، وذلك بصرف النظر عن أن هروب إنجون جو

قد أنقذه من معاناة الإدلاء بشهادته في المحكمة. كان الفتى المسكين قد جعل المحامي يعده بالسرية، لكن ما فائدة هذا؟ طالما أن ضمير توم، الذي أرقه، استطاع أن يدفعه إلى منزل المحامي ليلًا وينتزع قصة مروعة من بين شفتيه، اللتين كانتا مطبقتين التزامًا بأكثر قسم مهيب ومشؤوم، فقد انمحت ثقة هاك في الجنس البشري تقريبًا.

جعل امتنان ماف بوتر اليومي توم سعيدًا أنه تحدث، إلَّا أنه كان يتمنى ليلًا لو أنه أبقى لسانه معقودًا.

كان توم خائفًا نصف الوقت من ألَّا يتم القبض على إنجون جو مطلقًا، وكان في النصف الآخر خائفًا من أن يُقبض عليه، كان يشعر بثقة أنه لن يتمكن من أن يخرج نفسًا آمنًا من جديد حتى يموت هذا الرجل ويرى الجثة.

خصصت جوائز وانقلبت البلدة، دون أثر لإنجون جو. وجاء من سانت لويس أحد هؤلاء العجاب المذهلين العليمين بكل شيء، ممن يطلق عليهم محققين، وظل يتجول ويهز رأسه ويُبد الحكمة، ثم حقق هذا النوع من النجاح المبهر الذي عادة ما يحققه أفراد هذه المهنة، وهو أن يقول إنه «وجد خيط الحل». لكنك لا يمكن أن تتشبث بـ«خيط» في جريمة قتل، وعليه بعد أن انتهى هذا المحقق ورحل عائدًا، شعر توم بنفس القدر من عدم الأمان الذي كان يشعر به من قبل.

أخذت الأيام البطئية تمضي، يخلف كل منها وراءه حملًا أخف ثقلًا من المخاوف.

# ٢٥

يأتي وقت على كل فتى تسير حياته على نحو مرتب صحيح، وتتملكه رغبة جياشة في أن يذهب إلى مكان ما ويبحث عن كنز مخبئ، وقد شعر توم بهذه الرغبة في أحد الأيام، فخرج يبحث عن جو هاربر، فلم يجده، فبحث عن بن روجرز، فوجد أنه قد ذهب للصيد. فتعثر في «هاك فن، أحمر اليدين»، فاستجاب له هاك، فأخذه توم إلى مكان قصي وفاتحه في الموضوع في سرية، فأبدى هاك استعداده، وقد كان هاك دائم الاستعداد لأن يشارك في أي مشروع يمنحه المتعة ولا يتطلب منه رأس مال، إذ كان لديه فيض كبير من الوقت، وهو ما لم يكن مالًا.

قال هاك: «أين سنحفر؟».

«أوه، في أي مكان غالبًا».

«لماذا، هل هو مخبأ في كل مكان؟».

«لا، ليس كذلك. إنه مخبأ في أماكن محددة جدًّا يا هاك، في بعض الأحيان على الجزر، في بعض الأحيان داخل صناديق متعفنة تحت

نهاية طرف شجرة قديمة ذابلة، ويكون بالضبط في المكان الذي يقع فيه الظل عند منتصف الليل، ولكنه يتواجد على نحو خاص أسفل أرضية المنازل المسكونة».

«من يخبؤه؟».

«اللصوص بالطبع، من تعتقد في رأيك؟ مشرفو مدرسة يوم الأحد؟».

«لا أدري. إذا كان ملكي، ما كنت لأخبئه، كنت لأنفقه وأستمتع».

«وأنا أيضًا. لكن اللصوص لا يتبعون هذه الطريقة، دائمًا ما يخبئونه ويتركونه هناك».

«ألَّا يأتون من أجله أبدًا؟».

«لا، يكون لديهم ظن أنهم سيأتون، لكن عادة ما ينسون العلامات أو يموتون. إنه مدفون هناك منذ زمن طويل وبدأ يصدأ، ورويدًا رويدًا سيعثر شخص على ورقة صفراء قديمة تشرح كيفية العثور على العلامات، ويستغرق فك شفرة هذه الورقة أسبوعًا، لأن أغلبها علامات وهيروغليفية».

«هيرو ماذا؟».

«هيروغليفية، صور وأشياء لا يبدو أنها تعني شيئًا».

«هل لديك إحدى هذه الأوراق يا توم؟».

«لا».

«إذًا كيف ستجد العلامات؟».

«لا أريد أي علامات، هم دائمًا ما يدفنونها تحت منزل مسكون أو على جزيرة، أو تحت شجرة ذابلة أحد أطرافها بارز إلى الخارج، وقد جربنا جزيرة جاكسون قليلًا، ويمكننا تجربة الأمر مجددًا لبعض الوقت، ويوجد البيت القديم المسكون بالقرب من فرع مصنع تقطير الكحول، وتوجد العديد من الأشجار ذات الأطراف الذابلة، الكثير منها ذابل».

«هل الكنز تحتها جميعًا؟».

«ما هذا الذي تقوله! لا!».

«إذًا كيف ستعرف أي واحدة هي المطلوبة؟».

«نجربهم جميعًا!».

«يا إلهي، سيستغرق هذا الصيف كله».

«حسنًا، وماذا في ذلك؟ افترض أنك وجدت وعاء من النحاس صدئًا وتربًا تمامًا وبه مئة دولار، أو صندوقًا متعفنًا مملوءًا بالألماس. ما رأيك بهذا؟».

لمعت عينا هاك.

«هذا عظيم. عظيم جدًّا بدرجة كافية بالنسبة لي، أعطني فقط المئة دولار ولا أريد الألماس».

«حسنًا. لكن أراهنك أنني ما كنت لأتخلى عن الألماس، بعضه تصل قيمته إلى ٢٠ دولارًا للقطعة الواحدة، ولكن هذا النوع لا يكاد يكون موجودًا، أما الباقي فقيمته تصل إلى ٧٥ سنتًا أو دولارًا واحدًا».

«لا! أحقًا هذا؟».

«بالطبع، أي شخص سيخبرك بهذا. ألم تر أي ألماسة من قبل يا هاك؟».

«لا أتذكر أنني فعلت».

«أوه، لدى الملوك الكثير منهم».

«حسنًا، أنا لا أعرف أي ملوك يا توم».

«أظن أنك لا تعرف، لكن إذا حدث وأن ذهبت إلى أوروبا، سترى الكثير منهم يتواثبون حولك في كل مكان».

«هل يثبون؟».

«يثبون؟ أيها الساذج! لا!».

«حسنًا، لماذا قلت إنهم يفعلون ذلك؟».

«يا إلهي، لقد قصدت فقط أنك ستراهم، دون أن يثبوا بالطبع، لماذا سيثبون؟ لكنني قصدت أنك فقط ستراهم، منتشرين في كل مكان، أقصد، على نحو اعتيادي. مثل ذلك العجوز الأحدب ريتشارد».

«ريتشارد؟ ما اسمه الآخر؟».

«ليس لديه أي اسم آخر، الملوك ليس لديهم غير اسمهم الشخصي».

«لا؟».

«ليس لديهم».

«حسنًا، إذا كانوا يرضون بذلك يا توم فلا بأس، لكني لا أريد أن أصبح ملكًا وأن يكون لي اسم شخصي فقط مثل الزنوج، لكن قل لي، أين ستحفر أولًا؟».

«حسنًا، لا أدري. أعتقد أن نبدأ بتلك الشجرة العجوزة ذات الطرف الذابل فوق التلة المتواجدة عند الجانب الآخر من فرع مصنع تقطير الكحول؟».

«أوافق».

وعليه، أحضرا بلطة وجاروفًا وانطلقا في رحلتهما البالغ طولها ثلاثة أميال. وصلا مبللين بالعرق لاهثين، وألقيا بنفسيهما تحت ظل شجرة دردار قريبة، ليرتاحا ويدخنا.

قال توم: «يعجبني الأمر».

«وأنا أيضًا».

«قل لي يا هاك، إذا عثرنا على كنز هنا، ماذا ستفعل بحصتك؟».

«حسنًا، سأتناول فطيرة وأشرب كأسًا من الصودا كل يوم، وسأحضر كل عروض السيرك التي تأتي. أراهن أنني سأقضي وقتًا سعيدًا».

«مهلك، ألن تحتفظ بأي منه؟».

«أحتفظ به؟ لماذا؟».

«من أجل أن يكون لديك ما تعيش منه، مع مرور الوقت».

«أوه، لا فائدة من ذلك، لأن أبي سيعود كمصيبة مفاجئة يومًا

ما، ويقبض بمخالبه على كل أموالي إذا لم أسرع، وأقول لك إنه سيقضي عليه سريعًا جدًّا. ماذا ستفعل أنتِ بحصتك يا توم؟».

«سأذهب لشراء طبلة جديدة، وسيفًا جيدًا، ورباط عنق أحمر، وكلبًا، وأتزوج».

«تتزوج!».

«بالضبط».

«توم، أنت.. أنت لست في رشدك».

«انتظر وسترى».

«حسنًا، إن هذا أغبى شيء يمكن لك أن تفعله. انظر إلى أبي وأمي، يتشاجران! لقد اعتادا على الشجار طوال الوقت. أتذكر جيدًا».

«هذا لا يعني شيئًا، الفتاة التي سأتزوجها لن تتشاجر».

«توم، أعتقد أن كلهن على شاكلة واحدة؛ مزعجات. والآن من الأفضل أن تفكر في هذا الأمر مليًّا. أقول لك إنه من الأفضل لك أن تفعل ذلك. ما اسم هذه الصبية؟».

«إنها ليست صبية على الإطلاق، إنها فتاة».

«كلا الكلمتين سواء على ما أعتقد، البعض يقول صبية والبعض يقول فتاة، كلاهما صحيح بما يكفي. على أي حال، ما اسمها يا توم؟»

«سأقول لك في وقت ما، لكن ليس الآن».

«حسنًا، لا بأس. الأمر فقط أنه إذا تزوجت سأكون وحيدًا أكثر من قبل».

«لا، لن تكون وحيدًا. ستأتي وتعيش معي. والآن دعك من هذا ولنذهب إلى الحفر».

بدءا في العمل لمدة نصف ساعة، وتصببا عرقًا، دون نتيجة، ثم ثابرا لنصف ساعة أخرى، دون نتيجة أيضًا. فقال هاك:

«هل دائمًا ما يحفرونها بهذا العمق؟».

«في بعض الأحيان، ليس دائمًا. ليس بشكل عام، أعتقد أننا لم نحفر في المكان الصحيح».

وعليه اختارا بقعة جديدة وبدءا من جديد، أصبح العمل متعبًا قليلًا، إلَّا أنهما أحرزا تقدمًا رغم ذلك، وظلا يعملان في صمت لبعض الوقت.

في النهاية، اتكأ هاك إلى جاروفه، ومسح القطرات، التي كانت تشبه شكل الحبوب، من على حاجبه بكمه، وقال:

«أين ستحفر بعد ذلك، بعد أن ننتهي من الحفر هنا؟».

«أعتقد ربما نجرب الشجرة القديمة المتواجدة هناك فوق تلة «كارديف» في ظهر بيت الأرملة».

«أعتقد أن هذه ستكون بقعة جيدة. لكن ألن تأخذه منا الأرملة يا توم؟ إنها على أرضها».

«تأخذه منا! ربما سترغب في أن تحاول القيام بذلك مرة، إلَّا أن أيًا من يعثر على أي من تلك الكنوز المخبأة تصبح ملكه، ولا يغير في الأمر شيء على أرض مَن تواجد ذلك الكنز».

وقد كان ذلك كافيًا لأن يستؤنف العمل، ورويدًا رويدًا قال هاك:

«بئسًا، لقد بحثنا حتمًا في المكان الخاطئ مجددًا، ما رأيك؟».

«الأمر غريب جدًّا يا هاك، لا أفهمه، في بعض الأحيان تتدخل الساحرات، أعتقد أن هذه هي المشكلة الآن».

«لا! الساحرات ليس لهن سلطان في وقت النهار».

«حسنًا، هذا صحيح. لم أفكر في هذا. أوه، لقد عرفت ما هي المشكلة! كم نحن حمقى! يجب أن نحدد مكان وقوع ظل طرف الشجرة عند منتصف الليل، ونقوم بالحفر في ذلك المكان!».

«يا إلهي، تكبدنا كل هذا العناء دون فائدة، فلنوقف كل شيء الآن، يجب أن نعود ليلًا، إنه طريق طويل جدًّا، هل ستستطيع الخروج؟».

«أعتقد أن بإمكاني ذلك، وعلينا أن نفعل ذلك الليلة أيضًا، لأنه إذا رأى شخص هذا الحفر، فسيعرفون في دقيقة ماذا يجري وسيسعون وراءه».

«حسنًا، سآتي إليك الليلة وأقلد صوت القطة».

«حسنًا، دعنا نخبئ الأدوات في الأجمة».

ذهب الفتيان هناك في تلك الليلة، قرب الموعد المحدد، وجلسا ينتظران في الظل. كان مكانًا مهجورًا، وكانت ساعة مشؤومة بحكم العادة. همست الأرواح بين أوراق الأشجار التي أحدثت حفيفًا، وكمنت الأشباح في الأركان المعتمة، وسُمِع صوت العواء

المكتوم لكلاب الصيد من بعيد، وردَّت بومة بكلام كئيب، وبقي الفتيان هادئين على أثر هذه الأشياء المهيبة، ولم يتحدثا سوى قليلًا. بعد قليل، أحسا أن الساعة قد أصبحت الثانية عشرة، وحددا موضع سقوط الظل، وبدءا في الحفر. بدأت آمالهما ترتفع، وازداد حماسهما، وبالتبعية اتسق مجهودهما مع الأمر، فازداد عمق الحفرة، وظل يزداد. ومع كل مرة كان يقفز قلباهما لدى سماع البلطة وهي ترتطم بشي، كانت خيبة أمل تصيبهما لدى اكتشافهما أنها لم تكن سوى حجر أو صخرة. وفي النهاية، قال توم:

«لا فائدة من ذلك يا هاك، لقد أخطأنا من جديد».

«حسنًا، لكن لا يمكن أن نكون قد أخطأنا. لقد حددنا الظل بنقطة».

«أعلم ذلك، لكن هناك أمر آخر».

«ما هو؟».

«لقد قمنا بتخمين الوقت فقط، من المحتمل جدًّا أن يكون متأخرًا جدًّا أو مبكرًا جدًّا».

فألقى هاك بجاروفه، وقال:

«يكفي هذا، هذه هي المشكلة بالضبط، يجب أن ننسى أمر هذه البقعة، لا يمكننا أبدًا أن نحدد الوقت الصحيح، فضلًا عن أن هذا الأمر مخيف جدًّا، نحن هنا في هذا الوقت من الليل والساحرات والأشباح يحومون حولنا، أشعر كما لو أن شيئًا خلفي طوال الوقت،

وأخاف أن ألتفت ورائي، لأنه ربما يكون هناك آخرون ينتظرون فرصة، وأنا خائف كليًّا منذ أن أتيت إلى هنا».

«حسنًا، وأنا أيضًا يا هاك، لأنهم غالبًا عندما يدفنون كنزًا تحت شجرة، يضعون رجلًا ميتًا لحراسته».

«يا إلهي!».

«نعم، يفعلون ذلك، لقد سمعت هذا مرارًا».

«توم، أنا لا أحب أن أعبث كثيرًا في المكان الذي يكون فيه ميتون، إذ من المحتم أن يقع المرء في مشاكل معهم بالتأكيد».

«أنا لا أحب أن أزعجهم أيضًا، اِفترض أن ذلك المدفون هنا أخرج رأسه وقال شيئًا!».

«لا تفعل ذلك يا توم! إنه أمر مخيف».

«بالضبط. هاك، أنا لست مرتاحًا بالمرة».

«ما رأيك يا توم أن نترك هذه البقعة ونحاول في مكان آخر».

«حسنًا، أعتقد أنه من الأفضل أن نفعل ذلك».

«وما هو ذلك المكان؟».

فكر توم قليلًا، ثم قال:

«البيت المسكون، هذا هو المكان!».

«بئسًا، أنا لا أحب البيوت المسكونة يا توم. إن منظرها مرعب أكثر من الميتين؛ ربما من الممكن أن يتحدث الميتون، لكنهم لا يأتون يتسحبون في كفن، في غفلة منك، ويتلصصون من فوق كتفك على

حين غرة، ويجزون على أسنانهم مثلما تفعل الأشباح. لا يمكنني تحمل مثل هذا الأمر يا توم، لا أحد يستطيع».

«نعم، لكن، يا هاك، الأشباح تتجول فقط في الليل، ولن يشكلوا عائقًا إذا حفرنا هناك في النهار».

«حسنًا، هذا صحيح. لكنك تعرف جيدًا جدًّا أن الناس لا تقترب من هذا المنزل المسكون، لا ليلًا ولا نهارًا».

«حسنًا، على الأغلب لأنهم لا يحبون بأي حال أن يذهبوا إلى مكان قُتِل فيه شخص، لكن لم يُر شيء أبدًا بالقرب من هذا المنزل في أي وقت باستثناء الليل، مجرد أضواء زرقاء تتسلل بالقرب من النوافذ، وليس أشباحًا عادية».

«حسنًا، عندما ترى أحد تلك الأضواء الزرقاء ينير في المكان يا توم، يمكنك أن تتأكد من أن هناك شبحًا قريبًا جدًّا وراء هذا الضوء، وهناك سبب لذلك، وهو أن هذه الأضواء لا تدع أحدًا يستخدمها سوى الأشباح».

«نعم، هذا صحيح. لكن على أية حال، هم لا يسيرون نهارًا، وعليه ما فائدة خوفنا؟».

«حسنًا، لا بأس. سنجرب المنزل المسكون إذا كان هذا قولك، لكن أعتقد أننا نخاطر».

وعليه، سارا ناحية التل في ذلك الوقت، وهناك في منتصف الوادي، الذي يضيؤه القمر، ظهر البيت «المسكون»، معزولًا تمامًا، وقد اختفت أسواره منذ وقت طويل، واعتلت حشائش طويلة عتبة

الباب، وتحولت المدخنة إلى حطام، وأصبحت النوافذ فارغة، وانهار جانب من السقف. حدق الأطفال لوهلة، متوقعين بدرجة ما أن يروا ضوءًا أزرق يتمايل أمام نافذة، ثم وهما يتحدثان بصوت خفيض، بما يتناسب مع الوقت والظروف، اتخذا الجانب البعيد ناحية اليمين، ليعطيا المنزل المسكون مساحة واسعة، ومضيا في طريقهما نحو المنزل عبر الغابات، التي زينت الجانب الخلفي من تلة كارديف.

# ٢٦

قرب ظهيرة اليوم التالي، وصل الصبية عند الشجرة الذابلة، لاستعادة أدواتها، وكان توم متعجلًا لأن يذهب إلى المنزل المسكون، وكان هاك على نفس النحو أيضًا، لكنه قال فجأة:

«توم، هل تعرف أي يوم هذا؟».

أحصى توم أيام الأسبوع في ذهنه، ثم رفع عينيه بسرعة وعلى وجهه نظرة ذهول، وقال:

«يا إلهي! لم أفكر في هذا أبدًا يا هاك!».

«حسنًا، ولا أنا، لكن اكتشفت فجأة أن اليوم هو الجمعة».

«بئسًا، يجب أن نكون حذرين يا هاك، يمكن أن نقع في مأزق رهيب ونحن نقوم بمثل هذا الشيء في يوم جمعة».

«يمكن! بل حتمًا! ربما تكون هناك أيام حظ، لكن الجمعة ليس واحدًا منها».

«أي أحمق يعرف هذا، لكنني لا أعتقد أنك أول من اكتشفت الأمر يا هاك».

«حسنًا، أنا لم أقل أبدًا أنني من اكتشفته، أليس كذلك؟ ومسألة يوم الجمعة هذه ليس كل ما في الأمر أيضًا. لقد رأيت حلمًا سيئًا مفزعًا الليلة الماضية، لقد حلمت بفئران».

«لا! إنها علامة على المشاكل بالطبع، هل تشاجروا؟».

«لا».

«حسنًا، هذا جيد يا هاك. عدم تشاجرهم علامة فقط على وجود مشكلة ما.، كما تعرف. كل ما علينا فعله هو أن نكون أذكياء جدًّا ونتفاداها. سوف نتخلى عن هذه الفكرة اليوم ونذهب لنلعب، هل تعرف روبن هود يا هاك؟».

«لا، من هو روبن هود؟».

«لقد كان أحد أعظم الرجال الذين كانوا في إنجلترا على الإطلاق، وأفضلهم. لقد كان لصًا».

«عظيم، يا ليتني كنت لصًا. من سرق؟».

«كان يسرق فقط رؤوساء الشرطة والأساقفة والأغنياء والملوك، وأمثالهم، إلَّا أنه لم يضايق الفقراء أبدًا؛ كان يحبهم، وكان دائمًا ما يقتسم معهم بعدل تام».

«حسنًا، لقد كان حتمًا كريمًا».

«أراهن أنه كان كذلك يا هاك. أوه، لقد كان الرجل الأكثر نبلًا على الإطلاق. لا يوجد رجال مثله الآن، يمكنني أن أقول لك ذلك. كان بإمكانه أن يضرب أي رجل في إنجلترا وإحدى يديه مربوطة خلفه، وكان بإمكانه أن يأخذ قوسه المصنوع من

الطقسوس ويصيب به عملة العشر سنتات في كل مرة، من على بعد ميل ونصف».

«ما هو القوس المصنوع من الطقسوس؟».

«لا أدري، إنه نوع من الأقواس بالطبع. وعندما كان يصيب هذه العملة بالكاد من عند حافتها، كان يجلس ويبكي ويلعن. ونحن سنلعب روبن هود. إنها ممتعة جدًّا، سأعلمك».

«موافق».

وعليه، ظلا يلعبان روبن هود فترة بعد الظهيرة كلها، وبين الحين والآخر كانا ينظران بشوق إلى المنزل المسكون ويتبادلان التعليقات عن آفاق واحتمالات الغد هناك. وعندما بدأت الشمس تختفي غربًا، مضيا في طريقهما تجاه المنزل، سائرين بعرض الظلال الطويلة للشجر، حتى اختفيا سريعًا عن مرمى البصر داخل غابات تلة كارديف.

يوم السبت، بعد الظهيرة بوقت قليل، كان الصبيان عند الشجرة الذابلة مجددًا، دخنا وتحادثا في الظل، ثم حفرا قليلًا في حفرتهما الأخيرة دون أمل كبير، وإنما فقط لأن توم حكى عن حالات عديدة يأس فيها أشخاص من الكنز بعد أن كانوا على بعد ست بوصات منه ثم جاء شخص آخر وأخرجها بضربة جاروف واحدة، إلَّا أن الأمر فشل هذه المرة رغم ذلك، وعليه حمل الصبيان أدواتهما فوق أكتافهما ومضيا بعيدًا وهما يشعران بأنهما لم يتعاملا مع الثروة باستهزاء، وإنما استوفيا جميع المتطلبات المتعلقة بمسألة البحث عن الكنوز.

عندما وصلا إلى البيت المسكون، كان هناك شيء غريب جدًّا ومخيف بشأن الصمت المميت الذي كان مطبقًا هناك تحت الشمس الحارقة، وكان هناك شيء محبط جدًّا بشأن الانعزال والوحشة المحيطة بالمكان، جعلهما خائفين للحظة من المخاطرة بالدخول، إلَّا أنهما تسللا عبر الباب واختلسا نظرة وهما يرتجفان، فرأيا غرفة؛ لا أرضية لها، غير ممحرة، نمت فيها الأعشاب؛ ومدفأة قديمة؛ ونوافذ فارغة؛ وسلالم متهدمة، وتدلت هنا وهناك وفي كل مكان أنسجة عنكبوت مهجورة ومهترئة. دخلا بهدوء وبنبض متسارع، وهما يتحدثان في همس، وآذانهما منتبهة لأن تلتقط أخفت الأصوات، وعضلاتهما متشنجة ومستعدة لتراجع فوري.

بعد فترة قصيرة، بدل التآلف مخاوفهما، وتفحصا المكان باهتمام ونقد، كانا بالأحرى معجبين بجرأتهما ومتعجبين منها أيضًا. ومن ثم، أرادا أن يريا الطابق العلوي، وقد كان ذلك بمثابة قطع طريق الانسحاب، إلَّا أنهما تجاسرا على بعضهما البعض، وبالطبع ما كان لينتج عن ذلك سوى شيء واحد، وهو أن ألقيا بعدتهما إلى ركن، وصعدا. كان هناك في الطابق العلوي نفس مظاهر الخراب، ووجدا في أحد الأركان خزانة بدت لغزًا واعدًا، إلَّا أن ذلك الوعد كان مضللًا، ولم يكن بها شيء. ازدادت شجاعتهما في تلك اللحظة، وأصبحت تحت السيطرة، وكانا على وشك النزول وبدأ العمل عندما..

قال توم: «صه!».

همس هاك وقد شحب من الخوف: «ما هذا؟».

«صه!.. هناك!.. اسمع؟».

«نعم!.. يا إلهي! لنركض!».

«اثبت مكانك! لا تتحرك! إنهم قادمون تجاه الباب بالضبط».

تمدد الفتيان على الأرض وعيونهما تنظر عبر ثقوب في الألواح الخشبية، واستلقيا ينتظران في خوف بائس.

«لقد توقفوا... لا.. إنهم قادمون... ها هم. لا تهمس بكلمة أخرى يا هاك. يا إلهي، يا ليتني لم أكن هنا!».

دخل رجلان، وحدَّث كل فتى نفسه قائلًا: «إنه الإسباني العجوز الأصم الأبكم الذي كان في البلدة مرة أو مرتين مؤخرًا، لم أر هذا الرجل الآخر من قبل».

كان ذلك «الآخر» شخصًا رثًا وأشعث، ليس في وجهه ما يبعث على السرور، وكان الإسباني متلفحًا بشال، وكان له شارب أبيض كث، وشعر أبيض طويل ينسدل من تحت قبعته المكسيكية، وكانت عيناه حقودتين. عندما دخلا، كان «الآخر» يتحدث بصوت منخفض، جلسا على الأرض في مواجهة الباب، وظهراهما إلى الحائط. استأنف المتحدث حديثه، إلَّا أن طريقته أصبحت أقل حذرًا وكلماته أمست أكثر وضوحًا وهو يستكمل قائلًا:

«لا، لقد فكرت في المسألة كلها ولا تعجبني، الأمر خطير».

تذمر الإسباني «الأصم الأبكم» قائلًا: «خطير، أيها المخنث!»، وهو ما تسبب في دهشة كبيرة للصبية.

جعل الصوت الصبيين يشهقان ويرتجفان، إذ كان ذلك صوت إنجون جو! ساد الصمت لفترة. ثم قال جو:

«ما هو أخطر من تلك العملية التي كانت هناك، ولم يكن هناك طائل من ورائها».

«هذا مختلف، كان المكان بعيدًا عند النهر، ولا يوجد هناك منزل آخر قريب، ولن تنكشف محاولتنا أبدًا على أية حال، طالما لم ننجح».

«حسنًا، ما هو أخطر من القدوم هنا نهارًا! أي شخص يرانا سيشك فينا».

«أنا أعرف ذلك. لكن لم يكن هناك أي مكان آخر متاح بعد تلك العملية الحمقاء، أود أن أترك هذا الكوخ، أردت أن أفعل ذلك بالأمس، لكن لم تكن هناك فائدة من محاولة الخروج من هنا، وهذان الصبيان الملعونان يلعبان هناك فوق التل على مرأى واضح».

جعلهما تعليقه «هذان الصبيان الملعونان» يرتجفان مجددًا تحت تأثيرها، وفكرا كم كانا محظوظين أن تذكرا أن ذلك اليوم كان الجمعة وخلصا إلى أن ينتظرا يومًا، وتمنيا من قلبيهما لو كانا انتظرا عامًا.

أخرج الرجلان بعض الطعام وقاما بتحضير الغداء، وبعد صمت طويل مفعم بالتفكير، قال إنجون جو:

«انتظر هنا يا رفيق، عد إلى النهر حيث تنتمي، وانتظر هناك حتى أبعث إليك، سأخاطر بالذهاب إلى تلك البلدة مرة واحدة

أخرى فقط لألقي نظرة. سنفعل تلك العملية «الخطيرة» بعد أن استطلع الأمور قليلًا وأتأكد من أن الأمور تبدو جيدة بالنسبة إليَّ، ومن ثم نذهب إلى تكساس! سنذهب إليها معًا!».

كان ذلك مرضيًا، ومن ثم أخذ الرجلان يتثاءبان وقال إنجون جو:

«أريد أن أنام بشدة! اليوم دورك في المراقبة».

والتف حول نفسه وسط الحشائش وسرعان ما بدأ يغط في النوم، هزه رفيقه مرة أو مرتين ثم توقف، ثم ما لبث الحارس أن نعس وتدلى رأسه أكثر فأكثر، ثم أخذ الرجلان يغطان في نومهما.

تنفس الصبيان الصعداء، وهمس توم:

«ها قد أتت فرصتنا، تعال!».

قال هاك:

«لا أستطيع، سأموت إن حدث واستيقظا».

أصر توم، وتراجع هاك، وفي النهاية، نهض توم ببطء وهدوء، وتحرك بمفرده، إلَّا أن الخطوة الأولى التي خطاها أحدثت صريرًا شنيعًا بسبب الأرضية المتهالكة، فانخفض وقد مات تقريبًا من الخوف، ولم يكرر المحاولة. استلقى الفتيان هناك يحصيان اللحظات المنقضية حتى بدا لهما أن الزمن قد انتهى والأبدية بدأت تشيب، ثم شعرا بالامتنان لأن يجدا أن الشمس بدأت تغيب.

وفي تلك اللحظة، خفت غطيط أحد الرجلين، ووقف إنجون

جو ونظر حوله، وابتسم ابتسامة مروعة فوق رفيقه، الذي تدلت رأسه فوق ركبتيه، ثم أوقظه بقدمه، قائلًا:

«أنت! أنت الحارس، أليس كذلك! لم يحدث شيء على أي حال».

«يا إلهي! هل كنت نائمًا؟».

«أوه، تقريبًا، تقريبًا، حان الوقت لأن نتحرك يا رفيق، ماذا سنفعل بما تبقى لدينا من غنيمة قليلة؟».

«لا أعرف، أعتقد أن نتركه هنا كما نفعل دائمًا، لا فائدة من أن نأخذه حتى نتحرك جنوبًا، لأن ستمئة وخمسين قطعة فضة حمولة كبيرة».

«حسنًا، لا بأس. لا بأس أن نأتي إلى هنا مرة أخرى».

«لا، لكن أقترح أن نأتي ليلًا كما اعتدنا، فهذا أفضل».

«نعم، لكن من الممكن أن يستغرق الأمر وقتًا قبل أن تواتيني فرصة مناسبة للقيام بتلك العملية، من الممكن أن تحدث أمور، إنها ليست في مكان جيد جدًّا، سندفنها فقط بنظام، وندفنها على عمق».

قال رفيقه، الذي كان يسير بطول الغرفة: «فكرة جيدة»، ثم انحنى، ورفع واحدة من أحجار المدفأة الخلفية، وأخرج حقيبة أحدثت قعقعة باعثة على السرور، أخرج منها عشرين أو ثلاثين دولارًا لنفسه، وأخرج نفس الحصة لإنجون جو، ثم مرر الحقيبة إلى الأخير، الذي كان على ركبتيه في أحد الأركان الآن، يحفر بسكين «باوي» الخاص به.

نسي الصبيان كل مخاوفهما وكل أحزانهما في لحظة، وتأملا كل حركة بعيون تملؤها فرحة خبيثة؛ إنه الحظ! كان جمالها يفوق كل التخيلات! كان ستمئة دولار مالًا كافيًا لإثراء نصف دستة صبيان! ها هو استخراج الكنوز في أسعد الظروف، لن يكون هناك شك مزعج بشأن مكان الحفر. لكز أحدهما الآخر، في كل لحظة، لكزًا له مغزى يسهل فهمه، يقصدان به ببساطة: «أوه، لكن ألست مسرورًا أننا هنا الآن!».

ارتطم سكين جو بشيء.

قال: «أهلًا!».

قال رفيقه: «ما هذا؟».

«لوح خشبي شبه متعفن، لا، إنه صندوق على ما أعتقد، امدد يدك وسنرى ماذا يوجد هنا، لا عليك، لقد أحدثت ثقبًا».

مد يده إلى الداخل ثم أخرجها..

«يا للهول، إنها نقود!».

تأمل الرجلان مجموعة العملات، التي كانت ذهبًا، وكان الفتيان في الطابق العلوي متحمسين ومسرورين بنفس الدرجة.

قال رفيق جو:

«سنفتحه بسرعة، توجد بلطة صدئة قديمة بين الحشائش في ركن عند الجانب الآخر من المدخنة؛ لقد رأيتها منذ دقيقة».

ثم هرول وأحضر بلطة الصبية وجاروفهما. أخذ إنجون جو

البلطة، ونظر إليها متفحصًا، ثم هز رأسه وتمتم بشيء إلى نفسه، ثم شرع في العمل، وسرعان ما أخرجا الصندوق؛ لم يكن كبيرًا جدًّا، وكان مكبلًا بالحديد، وقبل أن تنال منه السنوات البطيئة كان متينًا جدًّا. تأمل الرجلان الكنز لفترة اكتنفهما صمت امتلأ بالفرحة.

قال إنجون جو: «توجد الآلاف من الدولارت هنا يا رفيق».

لاحظ الغريب: «قيل دائمًا إن عصابة مارل كانت قريبة من هنا ذات صيف».

قال إنجون جو: «أعلم ذلك، وعليَّ القول إن الوضع يبدو كذلك».

«لست الآن بحاجة إلى القيام بتلك العملية».

عبس الخلاسي، قائلًا:

«أنت لا تعرفني، على الأقل لا تعرف كل شيء عن هذا الأمر، إنها ليست سرقة في مجملها، وإنما انتقام!»، ثم برقت في عينيه التماعة شريرة، واستأنف: «سأكون بحاجة إلى مساعدتك في هذا الأمر، وعندما ينتهي سنذهب إلى تكساس. عد للمنزل إلى نانسي وإلى أطفالك، وانتظر حتى يأتيك مني خبر».

«حسنًا، مثلما تقول، ماذا سنفعل بهذا، ندفنه مجددًا؟».

«نعم. [فرحة عارمة في الطابق العلوي.] لا! باسم ساشيم العظيم، لا! [قلق عميق في الطابق العلوي.] لقد كدت أنسى. كان يوجد طين رطب على البلطة! [امتلأ الصبيان رعبًا في لحظة.] ما

الذي أتى ببلطة وجاروف إلى هنا؟ ما شأن الطين الرطب الموجود عليهما؟ من أتى بهما إلى هنا، وأين ذهبا؟ هل سمعت أحدًا؟ رأيت أحدًا؟ ماذا! ندفنه مجددًا ونتركهم يأتون ويرون الأرض منبوشة؟ لا، لا، سنأخذه إلى وكري».

«بالطبع! ربما خطر ذلك إلى بالي، تعني رقم واحد؟».

«لا، رقم اثنان، تحت الصليب. المكان الآخر سيء؛ مطروق جدًّا».

«حسنًا. لقد ساد الظلام بدرجة كافية لأن نتحرك».

نهض إنجون جو وأخذ يتنقل من نافذة إلى نافذة، ويختلس النظر إلى الخارج بحرص. ثم قال:

«من يُحتمل أن يكون قد أحضر هذه الأدوات إلى هنا؟ هل تعتقد أنهما من الممكن أن يكونا في الطابق العلوي؟».

انقطعت أنفاس الصبية. وضع إنجون جو يده على سكينه، وتوقف لحظة، حائرًا، ثم اتجه ناحية السلالم. فكر الصبية في أن يلجئا إلى الخزانة، إلَّا أن قوتهما تخلت عنهما. أحدثت خطواته وهو يصعد السلالم صريرًا، وأيقظ القلق المفرط الذي اكتنف الموقف قرار الصبية المشلول، وعندما كانا على وشك الركض ناحية الخزانة، تحطمت الألواح الخشبية المتعفنة وسقط إنجون جو على الأرض وسط أنقاض درجات السلم المتحطمة، ثم لملم نفسه ووقف وهو يسب، فقال رفيقه:

«ما فائدة كل هذا الآن؟ إذا كان هناك أحد، وكانوا في الطابق

العلوي، دعهم يبقون هناك، من يهتم؟ إذا كانا يريدان أن يقفزا إلى أسفل الآن وأن يوقعها نفسيهما في المشاكل، من يعترض؟ سيحل الظلام بعد خمس عشرة دقيقة، دعهم يلحقوا بنا إن أرادوا ذلك؛ أنا مستعد. في رأيي، فإن أيًّا من أتى بهذه الأشياء إلى هنا قد لمحنا وظن أننا أشباح أو شياطين أو شيء من هذا القبيل، وأراهن أنهم يركضون حتى الآن».

تذمر جو قليلًا، ثم وافق مع صديقه على أن ما تبقى من ضوء النهار يجب أن يتم استغلاله في تحضير الأشياء من أجل الرحيل.

بعد فترة قصيرة، تسللا خارج المنزل تحت الشفق المتزايد، وتحركا تجاه النهر بصندوقهما الثمين.

نهض توم وهاك في وهن، ولكن بارتياح كبير، وأخذا يراقبانهما عبر الشقوق الموجودة بين جذوع المنزل، أيتبعانهما؟ ليس هما من يفعلان ذلك؛ لقد كانا راضيين بأن يعودا إلى الأرض مجددًا دون أن ينكسر عنقاهما وأن يسلكا طريق العودة إلى البلدة من فوق التل. لم يتحدثا كثيرًا، إذ كانا مستغرقين في كره نفسيهما، وكره الحظ العاثر الذي جعلهما يأخذان الجاروف والبلطة إلى هناك؛ لولا ذلك، ما كان لإنجون جو أن يشك أبدًا، وكان ليخبئ الفضة مع الذهب ويتركهما هناك حتى يُنفذ «انتقامه»، ومن ثم كان سيلاقي مصيبته ويجد أن تلك النقود قد فُقِدت. كان إحضار الأدوات إلى هناك حظًا عاثرًا؛ عاثرًا!

قررا أن يُبقيا عينيهما على ذلك الإسباني عندما يأتي إلى البلدة

من أجل التجسس، بحثًا عن فرصة لتنفيذ انتقامه، وأن يتبعاه إلى «رقم اثنين»، أينما يكون هذا، ثم خطرت إلى توم فكرة مخيفة.

«انتقام؟ ماذا لو كان يقصدنا بذلك يا هاك!».

قال هاك وهو على وشك أن يفقد وعيه: «أوه، لا!».

تحادثا في الأمر كله، وعند دخولهما البلدة، كانا قد اتفقا على أن يستقرا على أن من الممكن أنه يقصد شخصًا آخر، ربما على الأقل لا يقصد أي شخص باستثناء توم، بما أن توم هو فقط من أدلى بشهادته.

أن يكون توم بمفرده في الخطر لم يكن أمرًا سارًا جدًّا! فكر في أن الصحبة في الخطر ربما تكون مطمئنة قليلًا.

# ٢٧

تسببت المغامرة التي خاضها توم نهارًا في إصابته بالكوابيس تلك الليلة، إذ رأى أنه يضع يده على ذلك الكنز أربع مرات ومن ثم يضيع من بين يديه أربع مرات، حتى تركه النوم وأعادت اليقظة التامة حقيقة حظه التعس الصعبة إليه، وبينما كان مستلقيًا في الصباح الباكر يتذكر وقائع مغامرته العظيمة، لاحظ أنها بدت خافتة وبعيدة بشكل غريب، بطريقة بدت كما لو أنها وقعت في عالم آخر، أو في زمن انتهى منذ وقت طويل. ثم خطر إليه أن المغامرة العظيمة نفسها حتمًا كانت حلمًا! كانت هناك حجة قوية جدًّا في صالح هذه الفكرة، ألا وهي أن كمية العملات التي رأها كانت كبيرة جدًّا على أن تكون حقيقية. لم ير هذا الكم من خمسينات الدولارات دفعة واحدة أبدًا من قبل، وكان مثل كل الصبية ممن هم في مثل سنه وموقعه من الحياة، كان يتخيل أن كل الحديث عن «المئات» و«الآلاف» هو بالأحرى من أشكال التعبير الخيالية، وأنه في الحقيقة لا توجد مثل هذه الكميات من الأموال في العالم. لم يفكر للحظة من قبل أن هذا الكم الضخم مثل مئة دولار كان من الممكن

العثور عليه في شكل نقود حقيقية بحوزة أي شخص. إذا تم تحليل تصوراته عن كنز مخبئ، سنجد أنها عبارة عن حفنة من عشرات السنتات وبوشل من دولارات رائعة مبهمة لا يستوعبها عقله.

لكن بعد تفكير مضن، أضحت وقائع مغامراته أكثر وضوحًا ونقاءً على نحو ملموس، وعليه وجد نفسه يميل إلى انبطاع أن ما حدث من الممكن ألَّا يكون حلمًا في نهاية المطاف. يجب أن يزول هذا الشك. سيتناول فطورًا سريعًا ويذهب للبحث عن هاك. كان هاك جالسًا على حافة طوافة، وقدماه تتدليان بهمة فاترة في الماء، والحزن باد عليه. قرر توم أن يدع هاك يفتح الموضوع، وإن لم يفعل، فسيكون ذلك إثباتًا على أن المغامرة كانت مجرد حلم.

«مرحبًا يا هاك!».

«مرحبًا بك».

ساد صمت لدقيقة.

«كنا سنحظى بالنقود، إذا كنا تركنا الأدوات الملعونة عند الشجرة الذابلة يا توم. أوه، أليس أمرًا بشعًا!».

«لم يكن حلمًا إذًا، لم يكن حلمًا! تمنيت لو أن الأمر كان حلمًا بطريقة ما. لقد تمنيت ذلك حقًا يا هاك».

«ما هو ذلك الذي لم يكن حلمًا؟».

«أوه، ما حدث بالأمس. ظننت بدرجة ما أنه كان حلمًا».

«حلم! إذا لم تكن السلالم قد انكسرت، كنت لترى إلى أي

درجة كان ذلك حلمًا! لقد حلمت بما فيه الكفاية طوال الليل، كان ذلك الشيطان الإسباني الذي يرتدي عصابة عين يطاردني فيها جميعًا، فليمت وليتعفن!».

«لا، لا نريده أن يموت ويتعفن.. لنعثر عليه! نتتبع المال!».

«توم، لن نعثر عليه أبدًا. المرء لا يحظى سوى بفرصة واحدة فقط لمثل هذه الكمية، وقد ضاعت هذه الفرصة، وسترتعد فرائسي إذا قدر لي أن أراه على أي حال».

«حسنًا، وأنا أيضًا، لكنني أود رؤيته على أي حال، وألحق به إلى «رقم اثنين» الخاص به».

«رقم اثنان، نعم، هذا هو. لقد ظللت أفكر في هذا، لكنني لم أستطع التوصل إلى أي شيء، ما هذا الشيء في اعتقادك؟».

«لا أعلم، إنه معقد جدًّا. انظر يا هاك، ربما يكون رقم منزل!».

«يا إلهي!... لا يا توم، الأمر ليس هكذا. وإذا كان، فلن يكون في هذه البلدة الصغيرة. لا توجد أرقام هنا».

«حسنًا، هذا حقيقي. دعني أفكر دقيقة. إنه رقم غرفة، في فندق!».

«أوه، هذه هي الخدعة! يوجد فندقان فقط، يمكننا اكتشافه بسرعة».

«اجلس هنا يا هاك حتى أعود».

انطلق توم على الفور؛ لم يهتم بأن يكون هاك بصحبته في الأماكن العامة، فذهب لمدة نصف ساعة، ووجد أن الغرفة رقم

٢ في الفندق الأفضل، كان يسكنها لفترة طويلة محام شاب، وكانت لا تزال مشغولة، وكان هناك لغز في الغرفة رقم ٢ في النزل الأقل فخامة، إذ قال ابن حارس الفندق الشاب إنها تبقى مغلقة طوال الوقت، وأنه لم ير أي شخص يدخل إليها أو يخرج منها إلَّا ليلًا، ولم يكن يعرف أي سبب محدد لهذا الوضع، وكان عنده بعض الفضول، ولكنه على الأحرى كان فضولًا بسيطًا، وقد حل أغلب اللغز بإقناع نفسه بفكرة أن تلك الغرفة كانت «مسكونة»، وأضاف أنه لاحظ أن ضوءًا كان بداخل الغرفة الليلة الماضية.

«هذا ما توصلت إليه يا هاك، أعتقد أن الغرفة رقم ٢ هذه بالتحديد هي ما نبحث عنه».

«أعتقد ذلك يا توم، والآن ماذا ستفعل؟».

«دعني أفكر».

فكر توم طويلًا، ثم قال:

«سأخبرك. الباب الخلفي لهذه الغرفة رقم ٢ يؤدي إلي ذلك الزقاق الضيق بين الفندق وعربة متجر الطوب القديمة، والآن أحضِر كل مفاتيح الأبواب التي تستطيع العثور عليها، وأنا سأنتشل كل مفاتيح خالتي، ومع أول ليلة مظلمة سنذهب إلى هناك ونجربهم، وإن لم عندك مانع، أبق عينيك مفتوحتين على إنجون جو، لأنه قال إنه سيأتي إلى البلدة ويستطلع الأمر مرة أخرى من أجل فرصة ينفذ فيها انتقامه. إذا رأيته، اتبعه فقط، وإذا لم يذهب إلى تلك الغرفة رقم ٢، إذًا فهذا ليس المكان».

«يا إلهي، لا أريد أن أتبعه بنفسي!».

«لماذا، سيكون الوقت ليلًا بالطبع، ومن الممكن ألا يراك أبدًا، وإذا رآك، فربما لن يشك في أي شيء».

«حسنًا، إذا كان الظلام كالحًا جدًّا، أعتقد أنني سأتبعه. لا أعرف، لا أعرف. سأحاول».

«أراهنك أني كنت لألاحقه إذا كان الوقت مظلمًا يا هاك، ربما اكتشف أنه لن يستطع تنفيذ انتقامه وقرر أن يذهب مباشرة وراء ذلك المال».

«صحيح يا توم، صحيح. سأتبعه، أقسم أنني سأفعل ذلك!».

«هذا هو الكلام الصحيح! لا تضعف أبدًا يا هاك، وأنا لن أضعف».

# ٢٨

كان توم وهاك مستعدين لمغامرتهما تلك الليلة، وظلا يتسكعان بالقرب من الحي الذي تواجد فيه الفندق حتى تجاوزت الساعة التاسعة، وكان أحدهما يراقب الزقاق عن بعد، بينما أخذ الآخر يراقب باب الفندق. لم يدخل أحد الزقاق أو يغادره، ولم يدخل أي شخص يشبه الإسباني من باب الفندق أو يخرج، ومنحتهما الليلة أملًا بأنها ستكون جيدة، وعليه ذهب توم إلى المنزل، على أساس أنه إذا حلكت العتمة، فإن هاك من المفترض أن يأتي ويقلد صوت القطة، وحينها سيتسلل خارجًا ويجرب المفاتيح، إلَّا أن الليلة ظلت هادئة، وأنهى هاك مراقبته وخلد إلى فراشه في برميل سكر خالٍ حوالي الساعة الثانية عشرة.

لقي الصبية نفس الحظ العاثر ليلة الثلاثاء، وكذلك الأربعاء، إلَّا أن ليلة الخميس بدت مبشرة بدرجة أفضل. تسلل توم خارجًا في مزاج جيد ومعه مصباح خالته القديم المصنوع من القصدير، ومنشفة كبيرة ليخبئه بها. خبأ المصباح في برميل السكر الخاص بهاك

وبدأت المراقبة. قبل منتصف الليل بساعة، أُغلِق الفندق وأُطفِئت أضواؤه (الوحيدة في المنطقة). لم يُرَ أي إسباني، ولم يدخل أو يخرج أحد من الزقاق، وكان كل شيء مبشرًا؛ خيمت عتمة الظلمة، ولم يخترق السكون التام سوى تمتمات متفرقة لرعد آت من بعيد.

أحضر توم مصباحه، وأضاءه داخل البرميل، ولفه بإحكام في المنشفة، ثم تسلل المغامران في الظلام متجهين إلى الفندق. وقف هاك للحراسة وتحسس توم طريقه إلى الزقاق، ثم سادت فترة انتظار قلق أثقلت قلب هاك كأنها جبل، وبدأ يتمنى لو أن بإمكانه رؤية بريق من المصباح؛ كان الأمر ليخيفه، لكنه على الأقل سيخبره بأن توم لا يزال حيًّا.

بدا كما لو أن ساعات قد مرت منذ اختفاء توم؛ لقد فقد وعيه حتمًا بالتأكيد، ربما مات، ربما انفجر قلبه تحت وطأة الرعب والاضطراب. وفي غمرة قلقه، وجد هاك نفسه يقترب أكثر فأكثر من الزقاق، متخوفًا من كافة أنواع الأمور المخيفة، متوقعًا في أي لحظة أن كارثة ما ستقع وتقطع نفسه، رغم أنه لم يكن هناك الكثير لتقطعه، إذ بدا أنه غير قادر إلَّا على أن يلتقط أنفاسه بمقدار ضئيل جدًّا، وكان قلبه سرعان ما سيُنهك، بالطريقة التي كان يدق بها، ثم فجاة ظهر بريق نور ومر به توم كالبرق، قائلًا: «اركض! انفد بحياتك!».

لم يكن بحاجة إلى أن يكرر كلامه، مرة واحدة كانت كافية، لم يحتج أن يكررها له (لا توجد هذه الجملة في النص الأصلي). ركض

هاك ثلاثين أو أربعين ميلًا لمدة ساعة قبل أن يكرر توم قوله مرة ثانية، ولم يتوقف الصبية على الإطلاق، حتى وصلا إلى مبنى محل جزارة مهجور في الطرف السفلي للقرية، وفور أن آويا إليه، هبت عاصفة وهطل المطر، وحالما التقط أنفاسه، قال توم:

«هاك، لقد كان الأمر مروعًا! لقد جربت مفتاحين، وقد فعلت ذلك بقدر ما استطعت من خفة، إلَّا أن الأمر بدا وأنه يحدث ضجة كبيرة جدًّا لدرجة أنني بالكاد كنت أستطيع التقاط أنفاسي، وكنت خائفًا جدًّا، فضلًا عن أنهما لم يدورا في القفل، ثم دون أن أدرك ما كنت أفعل، أمسكت بمقبض الباب، وانفتح الباب! لم يكن مغلقًا! وثبتُ إلى الداخل، ونزعت المنشفة، ويا لشبح قيصر العظيم!».

«ماذا! ماذا رأيت يا توم؟».

«لقد وقفت غالبًا على يد إنجون جو يا توم!».

«لا!».

«بلى! لقد كان مستلقيًا هناك، وكان نائمًا نومًا عميقًا على الأرض، وعصابته القديمة على عينه ويداه مبسوطتان».

«يا إلهي، ماذا فعلت؟ هل استيقظ؟».

«لا، لم يتزحزح. أعتقد أنه كان سكرانًا. لقد التقطت تلك المنشفة فقط وركضت!».

«أراهن أنني ما كنت لأفكر في المنشفة!».

«حسنًا، أنا كنت لأفكر. كانت خالتي لتعاقبني بشدة إذا فقدتها».

«قل لي يا توم، هل رأيت ذلك الصندوق؟».

«لم أتمهل لأنظر حولي يا هاك؛ لم أر الصندوق، ولم أر الصليب، ولم أر شيئًا سوى زجاجة وكوب من القصدير على الأرض إلى جانب إنجون جو. ونعم، رأيت ماسورتي بندقية والمزيد من الزجاجات في الغرفة، أفهمت الآن ما خطب تلك الغرفة المسكونة؟».

«ماذا؟».

«إنها مسكونة بالويسكي! ربما جميع الفنادق التي تحظر الخمور بها غرفة مسكونة، أليس كذلك يا هاك؟».

«حسنًا، أعتقد أن الأمر ربما يكون كذلك. من كان ليفكر في أمر مثل هذا؟ لكن اسمع يا توم، الآن وقت مناسب جدًّا لأن نحصل على ذلك الصندوق، إذا كان إنجون جو سكرانًا».

«إذا كان الأمر كذلك، فلتجرب أنت!».

ارتجف هاك.

«حسنًا، لا، لا أعتقد ذلك».

«وأنا لا أعتقد ذلك يا هاك؛ زجاجة واحدة فقط إلى جانب إنجون جو ليست كافية، إذا كان إلى جانبه ثلاث، كان سيصبح سكرانًا بما يكفي وكنت لأفعلها».

ساد صمت طويل وهما مستغرقان في التفكير، ثم قال توم:

«اسمعني يا هاك، دعنا لا نجرب هذا الأمر مرة أخرى حتى نكون على علم بأن إنجون جو ليس هناك، إن الأمر مخيف جدًّا،

لكن إذا قمنا بالمراقبة كل ليلة، فسنكون متيقنين تمامًا عندما نراه وهو يخرج، في أي وقت، ومن ثم ننتشل ذلك الصندوق بسرعة أكبر من البرق».

«حسنًا، موافق، سأقوم بالمراقبة طوال الليل، وسأفعل ذلك كل ليلة أيضًا إذا كنت ستؤدي أنت الجزء الآخر من المهمة».

«حسنًا، سأفعل ذلك، كل ما عليك فعله هو أن تركض ناحية شارع هوبر عند الحي وتقلد صوت القطة، وإذا كنتُ نائمًا، ألق بعض الحصى على النافذة وسيفي ذلك بالغرض».

«موافق، هذا رائع مثل القمح!».

«والآن يا هاك، لقد انتهت العاصفة وسأذهب إلى المنزل. سيسطع ضوء النهار خلال ساعتين. عد وقم بالحراسة هذه الفترة، هل ستفعل ذلك؟».

«لقد قلت إنني سأفعل يا توم، وسأفعل. سأراقب ذلك الفندق كل ليلة لعام! سأنام طوال النهار وأقف للمراقبة طوال الليل».

«هذا حسن. والآن، أين ستنام؟».

«في مخزن التبن الخاص ببن روجرز؛ هو يسمح لي بذلك، وكذلك الزنجي الذي يعمل عند والده العم جيك. أحمل عن العم جيك الماء، وقتما يريدني أن أفعل ذلك، وفي أي وقت أطلب إليه، يعطيني شيئًا صغيرًا لأتناوله إذا تسنى له توفيره. إنه زنجي طيب جدًّا يا توم. إنه يحبني، لأنني لا أتصرف أبدًا وكأنني أعلى منه. ذات مرة جلست وأكلت معه، لكن لا حاجة لأن تقول ذلك، لأنه عندما

يكون المرء جائعًا بشدة، يضطر إلى أن يفعل أمورًا لا يرغب في فعلها بشكل مستمر».

«حسنًا، إن لم أحتج إليك نهارًا، سأدعك تنام، ولن آت وأضايقك، وأنت تعال مباشرة وقلد صوت القطة، فور أن ترى أن شيئًا ما قد طرأ ليلًا».

# ٢٩

كان أول شيء سمعه توم صباح الجمعة هو خبر سعيد؛ عادت عائلة القاضي ثاتشر إلى البلدة في الليلة الفائتة، فتراجعت أهمية كل من إنجون جو والكنز إلى مرتبة ثانوية، للحظة، واحتلت بيكي المرتبة الأساسية من اهتمامات الفتى؛ لقد رآها وقضيا وقتًا ممتعًا في لعب «خمن من» و«القطة العمياء» مع حشد من زملائهم في المدرسة، ثم اكتمل اليوم وتكلل على نحو مرض بصورة متميزة، إذ ألحت بيكي على والدتها من أجل أن يكون اليوم التالي هو موعد الرحلة التي طال تأجيلها وانتظارها، فوافقت.

فرحة الأطفال لا حدود لها، وتوم كان جامحًا. تم إرسال الدعوات قبل غروب الشمس، وعلى الفور انشغل صغار القرية في حمى من التحضيرات والترقب الممتع. أبقى الحماس توم مستيقظًا حتى ساعة متأخرة جدًّا، وارتفعت آماله أن يسمع مواء هاك ويحظى بكنزه من أجل إبهار بيكي ومن سيذهب معهما إلى الرحلة في اليوم التالي، إلَّا أن أمله قد خاب، ولم تأته إشارة في تلك الليلة.

حل الصباح في النهاية، وبحلول الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، كان حشد صاخب ومتحمس بدرجة زائدة قد تجمع عند منزل القاضي ثاتشر، وكان كل شيء معدًا لبدء الرحلة. لم يكن من عادة كبار السن أن يفسدوا الرحلات بمرافقتهم، وكانوا يعتبرون أن الأطفال سيكونوا آمنين بدرجة كفاية في كنف بضع سيدات شابات في عمر الثامنة عشر وبضعة رجال شباب في عمر الثالثة والعشرين أو ما إلى ذلك. تم تأجير السفينة البخارية القديمة من أجل هذه المناسبة، ومن ثم اصطف الحشد السعيد في الشارع الرئيسي محملًا بسلال المؤونة. كان سيد مريضًا واضطر إلى أن يتغيب عن هذا المرح، وبقيت ماري في المنزل لتسليه. كان الشيء الأخير الذي قالته السيدة ثاتشر إلى بيكي هو:

«سيكون الوقت متأخرًا عندما تعودين. ربما من الأفضل أن تقضي الليلة عند بعض الفتيات اللاتي يعشن بالقرب من مرسى السفينة يا طفلتي».

«إذًا سأبقى مع سوزي هاربر يا ماما».

«حسن جدًّا. انتبهي لنفسك وأحسني التصرف ولا تتسببي في أي إزعاج».

ثم، وبينما هم سائرون، قال توم لبيكي:

«اسمعي، سأقول لك ماذا سنفعل. بدلًا من الذهاب إلى منزل جو هاربر، سنصعد التل ونمر على الأرملة دوجلاس، سيكون عندها أيس كريم! عندها منه كل يوم تقريبًا، وبكميات كبيرة، وستكون مسرورة للغاية بضيافتنا».

«أوه، سيكون هذا ممتعًا!».

ثم فكرت بيكي لحظة وقالت:

«لكن ماذا ستقول ماما؟».

«كيف ستعرف من الأساس؟».

أدارت الفتاة الفكرة في رأسها، وقالت ممانعة:

«أعتقد أنه هذا خطأ، لكن..».

«لكن ماذا! لن تعرف والدتك، وعليه فما الضرر؟ كل ما تريده هو أن تبقي آمنة، وأراهنك أنها كانت لتسمح لك بالذهاب إذا فكرت في الأمر، أنا أعرف أنها كانت لتفعل ذلك!».

كانت ضيافة الأرملة دوجلاس الرائعة إغواءً مغريًا، واستطاعت مع قدرة توم على الإقناع أن تجعل اليوم ناجحًا، وعليه تقرر ألا يتم إخبار أي أحد بأي شيء بخصوص برنامج الليلة، ثم خطر لتوم أنه ربما يأتي هاك تلك الليلة بالتحديد ويعطي الإشارة، وأخذت الفكرة جزءًا من حماسه بشأن ما كان يتطلع إليه، إلَّا أنه لم يستطع تحمل التخلي عن مرح بيت الأرملة دوجلاس، وتساءل لماذا عليه أن يعدل عن الفكرة طالما أن الإشارة لم تأت ليلة أمس، وعليه فلماذا تكون الليلة أكثر ترجيحاً؟ وعليه، رجحت كفة أمسية المرح المؤكد أمام الكنز غير المؤكد، وكأي صبي، عقد عزمه على أن يذعن لرغبته الأقوى وألا يسمح لنفسه بأن يفكر في صندوق النقود في أي وقت ذلك اليوم.

على بعد ثلاثة أميال من البلدة، توقفت السفينة عند مدخل غابة عميقة، ورُبِطت، وتزاحم الحشد على الشاطئ وسرعان ما أحدثت الفراغات في الغابة والمرتفعات المنحدرة صدى صوت بعيد وقريب لأصوات الصياح والضحك؛ قاموا بجميع الأمور التي تتسبب في التعرق والتعب، ورويدًا رويدًا عاد الجوالة إلى المخيم مكللين بشهيات مفتوحة، ومن ثم بدأ تدمير الطعام الطيب. بعد الوليمة، كانت هناك فترة منعشة من الراحة والثرثرة تحت ظل شجر البلوط المنتشر. ثم بعد قليل صاح أحدهم:

«من مستعد لدخول الكهف؟».

كان الجميع مستعدًا، فتم تزويدهم بحزم من الشموع، وعلى الفور صعدوا راكضين إلى أعلى التل؛ كان مدخل الكهف أعلى جانب التل، وكان على شكل حرف A، وكان بابه الضخم المصنوع من البلوط غير مغلق. بالداخل، كانت هناك حجرة صغيرة باردة كبيت جليدي؛ حوائطها مغطاة، بفعل الطبيعة، بالحجر الجيري الصلب، الذي كان نديًّا بفعل الرطوبة الباردة. كان من الرومانسية والغموض أن تقف هناك في هذه الظلمة العميقة، وتنظر إلى الخارج فوق الوادي الأخضر الذي يلمع في الشمس، إلَّا أن إبهار الموقف سرعان ما زال، وعاودوا من جديد اللعب، الذي كان متمثلًا في هجوم عام يقع على الفور ضد صاحب الشمعة المضاءة، متبوع بمقاومة ودفاع شجاع، وعليه سرعان ما تقع الشمعة على الأرض أو تنطفئ، فيعقب ذلك صخب مبهج من الضحك ثم مطاردة جديدة. إلَّا أن كل شيء له نهاية، ورويدًا رويدًا أخذ

الحشد ينزل الجرف المنحدر تجاه الطريق الرئيسي، بينما تكشف صفوف الأضواء المتأرجحة، بخفوت، عن الحوائط الصخرية العالية، تقريبًا حتى نقطة التقاءهم عند ارتفاع ستين قدمًا فوقهم. لم يكن اتساع الطريق الرئيسي يزيد عن ثمانية أو عشرة أقدام، ومع كل بضع خطوات، كانت تتفرع منه شقوق أضيق وأكثر ارتفاعًا على كلا الجانبين، إذ إن كهف ماكدوجال لم يكن سوى متاهة شاسعة من الممرات الملتوية التي تداخلت مع بعضها وتفرقت عن بعضها من جديد دون أن تؤدي إلى أي مكان، وكان يُقال إن المرء يمكن له أن يتجول أيامًا وليال عبر ضفائر الشقوق والفجوات المتشابكة، ولا يجد أبدًا نهاية الكهف، وأنه ربما ينزل إلى أسفل وأسفل وإلى أسفل من جديد، إلى باطن الأرض، ويكون الوضع هو نفسه؛ متاهة تحت متاهة، ولا نهاية لأي منها. لم يكن أي رجل «يعرف» الكهف، لقد كان أمرًا مستحيلًا. كان أغلب الشباب يعرفون جزءًا منه، ولم يكن من المعتاد أن تغامر أكثر بعيدًا عن هذا الجزء المعروف، وكان توم سوير يعرف من الكهف قدر ما يعرف أي شخص آخر.

استمر الحشد في السير بطول الطريق الرئيسي حوالي ثلاثة أرباع ميل، ومن ثم بدأت مجموعات وأزواج منهم تتسلل جانبًا داخل الشقوق المتفرعة، وتسير بطول الممرات الموحشة، ثم يفاجئون بعضهم البعض عند نقاط تجتمع فيها الممرات من جديد. كان باستطاعتهم أن يفلتوا من بعضهم البعض لفترة من الوقت قدرها نصف ساعة، دون تجاوز المنطقة «المعروفة».

رويدًا رويدًا، بدأت مجموعة تلو الأخرى تخرج عائدة عند مدخل الكهف؛ لاهثة فرحة وملطخة من رأسها حتى قدمها بقطرات الشحم ومدهونة بالطين ومسرورة تمامًا بنجاح اليوم. كانوا مندهشين لأنهم اكتشفوا أنهم لم ينتبهوا إلى الوقت وأن الليل قد أوشك على أن يحل. كان الجرس الرنان يدق منذ نصف ساعة، ومع ذلك كان انتهاء مغامرات اليوم على هذا النحو رومانسيًّا ومن ثم مرضيًا، وعندما أبحرت السفينة في الماء هي وما عليها من حمولة هائجة، لم يكن أحد سوى قائد السفينة مهتمًا ولو بنصف شلن بالوقت الضائع.

كان هاك بالفعل في نوبة حراسته عندما أخذت أضواء السفينة تومض أمام المرفأ، إلَّا أنه لم يسمع أي ضوضاء على متنها، لأن الشباب كانوا هادئين وساكنين مثلما يكون الناس عادة عند شعورهم أنهم على وشك الموت من التعب. تساءل أي سفينة هذه، ولماذا لم تتوقف عند المرفأ، ثم أسقطها من تفكيره وصب انتباهه على عمله. كانت ضبابية وظلمة الليل تتزايدان، وعندما أصبحت الساعة العاشرة، توقفت ضوضاء العربات، وبدأت الأضواء المتفرقة تتلاشى، واختفى كل السائرين المتسكعين، وآوت البلدة إلى النوم وتركت الحارس الصغير وحده مع الصمت والأشباح، وعندما أصبحت الساعة الحادية عشرة، انطفأت أضواء الفندق، وحل الظلام كل مكان، وانتظر هاك ما بدا أنه وقت طويل مرهق، إلَّا أن شيئًا لم يحدث، وبدأ إيمانه يضعف؛ هل كانت هناك أي فائدة؟

هل هناك أي جدوى حقًّا؟ لماذا لا أتخلى عن الأمر وأنام؟

ثم هفا إلى سمعه صوت ضوضاء، فانتبه تمامًا في لحظة. أُغلِق باب الزقاق بنعومة، فركض إلى أحد أركان متجر الطوب، وفي اللحظة التالية، اقترب منه رجلان، وبدا أن أحدهما يحمل شيئًا تحت ذراعه، إنه حتمًا ذلك الصندوق! إذًا، فإنهما ذاهبان لنقل الكنز. لماذا أنادي على توم الآن؟ سيكون أمرًا منافيًا للمنطق، إذ إن الرجلان سيهربان بالصندوق ولن نعثر عليهما مجددًا. لا، سينتهز فرصة استيقاظهما ويتبعهما، وسيثق في أن الظلمة ستؤمنه من أن ينكشف، وهكذا مقنعًا نفسه، خرج هاك، وتسحب وراء الرجلين مثل القطة، حافي القدمين، تاركًا مسافة كافية أمامه بحيث لا يختفيان عن نظره.

مرا على ثلاثة أحياء في شارع النهر، ثم انعطفا يسارًا عند تقاطع طريق، ثم توجها مباشرة إلى الأمام، حتى وصلا إلى الطريق الذي يؤدي إلى تلة كارديف، وسلكاه. مرا بمنزل الويلزي العجوز، بمنتصف الطريق المؤدي إلى التل، دون تردد، واستمرا في الصعود إلى أعلى، رأى هاك أن ذلك أمر جيد، وأنهما سيدفنانه في المحجر القديم، إلَّا أنهما لم يتوقفا عند المحجر، ومضيا في طريقهما إلى أعلى القمة.

دخلا في الممر الضيق بين أجمة السماق الطويلة، واختفيا على الفور في الظلام. اقترب هاك وقصر المسافة، لأنه كان من المستحيل عليهم أن يروه. هرول، ثم أبطأ خطوته، خوفًا من أن يكون قد بالغ في سرعته، فمشى مترويًا، ثم توقف تمامًا وأطرق. لم يكن هناك

صوت؛ لا شيء، ناهيك عن أنه أحس أنه يسمع صوت دقات قلبه. أتى نعيب بومة من فوق التل؛ يا له من صوت مشؤوم! لكن لا صوت لخطوات أقدام. يا للهول، هل ضاع كل شيء! كان على وشك أن يركض بأقدام مجنحة، عندما تنحنح رجل على بعد لا يزيد عن أربعة أقدام منه! قفز قلب هاك إلى حلقه، إلَّا أنه ابتلعه من جديد، ثم وقف هناك يرتجف كما لو أن عشرات الرعشات أصابته مرة واحدة، وشعر بوهن شديد جعله يظن أنه حتمًا يجب أن يسقط على الأرض. كان يعرف أين هو، وكان يعرف أنه على بعد خمس خطوات من السلم المؤدي إلى أرض الأرملة دوجلاس، ورأى أن ذلك أمر جيد جدًّا، فليدفنونه هناك؛ لن يكون العثور عليه صعبًا.

والآن كان هناك صوت، صوت خفيض جدًّا، كان صوت إنجون جو:

«اللعنة عليها، ربما برفقتها أحد، هناك أضواء في هذا الوقت المتأخر».

«لا يمكنني رؤية شيء».

كان هذا هو صوت ذلك الرجل الغريب، الغريب الذي كان في المنزل المسكون. سرت برودة إلى قلب هاك، هذه إذًا كانت العملية «الانتقامية»! كان يفكر في أن يطير، ثم تذكر أن العجوز دوجلاس كانت طيبة معه أكثر من مرة، وربما كان هذان الرجلان ينويان قتلها. تمنى أن يتجرأ على المغامرة بأن يحذرها، لكنه كان يعلم أنه لن يجرؤ، فربما يأتيان ويمسكان به. لقد فكر في كل هذا وأكثر

في اللحظة التي انقضت بين تعليق الغريب والتعليق التالي لإنجون جو، الذي كان:

«لأن الأجمة أمامك، الآن، هذا الاتجاه، الآن ترى، أليس كذلك؟».

«نعم. حسنًا، برفقتها أحد على ما أعتقد. من الأفضل أن نتخلى عن الفكرة».

«نتخلى عن الفكرة وأنا راحل عن هذه البلد إلى الأبد! نتخلى عن الفكرة وربما لا أحظى بفرصة أخرى. أقول لك ثانية، مثلما أخبرتك من قبل، لا يهمني غنيمتها، يمكنك أن تأخذها. إلَّا أن زوجها كان قاسيًا عليَّ، قسا عليَّ مرات عديدة، وأهم ما في ذلك أنه كان قاضي الصلح الذي حبسني لكوني متشردًا. وهذا ليس كل ما في الأمر. إنه ليس جزء في المليون من الأمر! لقد جعلني أُجلَد بسوط الحصان! جُلِدتُ بسوط الحصان أمام السجن، كأنني زنجي! والبلدة كلها تشاهدني! جُلِدتُ بسوط الحصان! أتفهم؟ لقد استغلني ومات. لكنني سأنتقهم منها».

«أوه، لا تقتلها! لا تفعل ذلك!».

«أقتلها؟ من ذكر أي شيء عن القتل؟ كنت لأقتله هو لو كان هنا، لكن ليس هي. عندما تريد الانتقام من امرأة، فأنت لا تقتلها، فهذا هراء! وإنما تستهدف مظهرها؛ تشق منخارها، تقطع أذنيها مثل الخنزيرة!».

«لكن يا إلهي، هذا..».

«احتفظ برأيك لنفسك! سيكون هذا أأمن لك، سأربطها في الفراش، وإذا نزفت حتى الموت، فهل سيكون هذا خطأي؟ لن أبكي، إذا حدث ذلك، وستساعدني في هذا الأمر يا صديقي؛ من أجلي، هذا هو ما أنت هنا لأجله، إذ من الممكن ألا أستطيع القيام بذلك بمفردي، وإذا تراجعت فسأقتلك، هل تفهم ذلك؟ وإذا كان سيتحتم علي قتلك، فسأقتلها، ومن ثم أعتقد أن أحدًا لن يعرف كثيرًا عمن فعل هذا الأمر أبدًا».

«حسنًا، إذا كان لازمًا أن نفعل الأمر، فلنفعله. كلما أسرعنا كان أفضل، فأنا أرتجف تمامًا».

«نفعل ذلك الآن؟ وبرفقتها أشخاص؟ أول ما ينبغي عليك معرفته هو أنني سأبدأ أشك فيك. لا، سننتظر حتى تُطفأ الأضواء، لا عجلة».

أحس هاك أن صمتًا سيحل، وقد كان ذلك أمرًا أكثر بشاعة من أي قدر من الحديث عن القتل، وعليه حبس أنفاسه وتراجع بحذر إلى الوراء، ووضع قدمه بحرص وثبات، بعد أن استعاد توازنه على قدم واحدة، بطريقة محفوفة بالمخاطر أوشكت على أن توقعه، أولًا على أحد الجانبين ثم على الجانب الآخر، ثم تراجع خطوة أخرى للوراء، على نفس الوضع وبنفس المخاطر، ثم مرة أخرى وأخرى، حتى انكسر غصن تحت قدمه! انقطع نفسه وأطرق، لم يكن هناك صوت؛ كان السكون تامًا وكان امتنانه لا يُقدر. ومن ثم، استدار بين حواف أجمة السماق، وعدل مساره بحرص شديد كما لو كان

سفينة، ثم تقدم مسرعًا إلى الأمام لكن بحرص، وعندما خرج عند المحجر، شعر بالأمان، وعليه أمسك ذيله بأسنانه وطار. أسرع إلى أسفل وأسفل، حتى وصل إلى منزل الويلزي، ثم دق على الباب، فأطلت رؤوس الرجل العجوز وابنيه الشجاعين من النوافذ.

«ما هذا الصخب؟ من يطرق؟ ماذا تريد؟».

«دعوني أدخل.. بسرعة! سأخبركم بكل شيء».

«من أنت؟».

«هكلبري فن، بسرعة أدخلوني!».

«هكلبري فن حقًّا! إنه اسم لا يفتح أبوابًا كثيرة حسبما أعتقد! لكن دعوه يدخل يا فتيان، ودعونا نرى ما المشكلة».

«من فضلكم لا تقولوا أبدًا إنني حكيت لكم» كانت أولى كلمات هاك عندما دخل. «من فضلكم لا تقولوا ذلك، سأُقتل حتمًا، لكن الأرملة كانت صديقة جيدة لي في بعض الأوقات، وأريد أن أحكي، سأحكي إذا تعهدتم بأن لا تقولوا إنني من حكيت».

صاح الرجل العجوز: «بحق سانت جورج أن لديه شيئًا يريد أن يقوله، وإلَّا ما كان ليتصرف على هذا النحو! أخرج ما في جعبتك ولن يقول أي شخص هنا شيئًا أبدًا يا رفيق».

بعد ثلاث دقائق، كان الرجل العجوز وابناه قد أصبحوا فوق التل، بعد أن تسلحوا جيدًا، ودخلوا ممر السماق على أطراف أصابعهم، وأسلحتهم في أيديهم. وعندئذ لم يستكمل هاك مرافقته

لهم، واختفى وراء صخرة كبيرة وأطرق؛ كان هناك صمت ثقيل مقلق، ثم فجأة كان هناك انفجار أسلحة وصرخة.

لم يتمهل هاك من أجل التفاصيل، وانطلق يركض بعيدًا إلى أسفل التل بأقصى سرعة استطاعت قدمه أن تحمله بها.

# ٣٠

مع أول ظهور لخيط الفجر صبيحة الأحد، ذهب هاك يتلمس طريقه أعلى التل، وقرع باب الويلزي العجوز بهدوء. كان أصحاب المنزل نائمين، لكنه كان نومًا مضبوطًا على حالة التأهب القصوى، على أثر الوقائع المشوقة التي حدثت الليلة الفائتة. جاء نداء من النافذة يقول:

«من هناك!».

أجاب صوت «هاك» الخائف، بنبرة منخفضة:

«من فضلك دعني أدخل! أنا هاك فن!».

«إنه اسم يستطيع أن يفتح هذا الباب ليلًا أو نهارًا يا رفيق! ومرحبًا!».

كانت هذه الكلمات غريبة على مسامع الصبي المتشرد، وكانت هذه هي الكلمات الأكثر إسعادًا التي سمعها على الإطلاق، ولم يستطع أن يستوعب أن الكلمة الأخيرة كانت تنطبق على حالته من

قبل أبدًا. سرعان ما انفتح الباب، ودخل. أُجلِس هاك على مقعد، وارتدى الرجل العجوز وابناه الطويلين ملابسهم سريعًا.

«والآن يا بني، أتمنى أن تكون بخير وأن تكون جائعًا، لأن الإفطار سيكون جاهزًا فور سطوع الشمس، وسيكون ساخنًا جدًّا جدًّا أيضًا، فلتستعد لذلك! تمنيت أنا والصبيان قدومك إلى هنا ليلة أمس».

قال هاك: «لقد كنت خائفًا جدًّا وركضت؛ هربت عندما أُطلِق النار من المسدسات، ولم أتوقف إلا بعد ثلاثة أميال، وقد أتيت الآن لأنني أردت أن أعرف ماذا حدث، وأتيت قبل ضوء النهار لأنني لم أكن أريد أن ألتقي بهذين الشيطانين، حتى لو كانا ميتين».

«حسنًا، أيها الفتى المسكين، يبدو أنك قضيت ليلة صعبة بسبب ذلك، لكن يوجد سرير هنا من أجلك عندما تتناول فطورك. لا، لم يموتا يا رفيق، ونحن نشعر بأسف شديد بسبب ذلك. لقد كنا نعرف بالضبط أين يمكننا أن نضع قبضتنا عليهما استنادًا إلى وصفك، وعليه تسللنا على أطراف أصابعنا حتى أصبحنا على بعد خمسة عشر قدمًا منهما، وقد كان ممر السماق هذا مظلمًا مثل القبو، وعندئذ اكتشفتُ أنني كنت سأعطس، لقد كان ذلك من أتعس ضروب الحظ! حاولت أن أمنعها، لكن لا فائدة، كانت حتمًا ستخرج، وبالفعل خرجت! كنتُ في المقدمة ومسدسي مرفوع، وعندما خرجت العطسة، أحدث هذان الوغدان حفيفًا بخروجهما من الممر، فصحتُ: «أطلقا النيران يا فتيان!»، وانطلقتُ ناحية المكان الذي أتى منه الحفيف، وكذلك

الصبيان. إلَّا أنهما انطلقا في لمح البصر؛ هذان الشريران، ونحن وراءهما، داخل الغابات. أعتقد أننا لم نمسهما أبدًا. أطلق كل منهما عيارًا ناريًّا، وهما يتحركان، إلَّا أن الطلقات مرت من جانبنا ولم تتسبب في أي أذى لنا، وبمجرد أن اختفى صوت أقدامهما، توقفنا عن ملاحقتهما، وعدنا وأيقظنا رجال الشرطة، فحشدوا قوة منهم، وتوجهوا لمراقبة ضفة النهر، وبمجرد أن يسطع النهار، سيدخل رئيس الشرطة وجماعته الغابة، وسيكون ولداي معهم في ذلك الوقت. يا ليت كان عندي وصف من نوع ما لهيئة هذين الوغدين، سيساعد ذلك كثيرًا، لكنك لم تستطع أن ترى كيف كانا في الظلام يا رفيق، أفترض ذلك؟».

«بلى عندي، لقد رأيتهما في وسط المدينة وتتبعتهما».

«رائع، صفهما لي، صفهما يا فتى!».

«أحدهما الإسباني الأبكم الأصم الذي كان هنا مرة أو مرتين، والآخر كان رث الثياب بملامح حادة....».

«هذا يكفي يا فتى، لقد عرفت الرجلين! صادفتهما في الغابة خلف منزل الأرملة ذات يوم، وتسللا هاربين. اذهبا أنتما يا فتيان، وأخبرا رئيس الشرطة، وخذا إفطاركما لصباح الغد!».

رحل أبناء الويلزي على الفور. وبينما كانا يغادران الغرفة، ركض هاك وصاح:

«أوه، من فضلكما لا تخبرا أحدًا أنني من أوقعت بهما! أوه من فضلكما!».

«حسنًا، مثلما تقول يا هاك، لكن يجب أن يُنسب لك الفضل فيما فعلت».

«أوه، لا، لا! من فضلكما لا تقولا!».

عندما ذهب الشابان، قال الويلزي العجوز:

«لن يقولا شيئًا، ولن أقول. ولكن لماذا لا تريد أن يُعرف الأمر؟».

لم يكن هاك ليشرح أكثر من أن يقول إنه كان يعرف بالفعل الكثير عن أحد هذين الرجلين ولن يخاطر بأن يعرف الرجل أنه يعرف أي شيء ضده مهما كان، سيُقتل إذا عرف ذلك بالتأكيد.

وعده الرجل العجوز بالسرية مرة أخرى، وقال:

«ما الذي جعلك تلحق بهذين الشخصين يا فتى؟ هل بديا مثيرين للريبة؟».

صمت هاك حتى يصيغ رده بحرص، على النحو الواجب، ثم قال:

«حسنًا، مثلما تعرف، أنا شخص عركته الحياة نوعًا ما، على الأقل هذا ما يقوله الجميع، ولا أرى عيبًا في ذلك، وفي بعض الأحيان لا أستطيع النوم كثيرًا، جراء التفكير ومحاولة أن أجد طريقة جديدة في الحياة، وهكذا كانت حالتي الليلة الماضية؛ لم أستطع النوم، وعليه خرجت إلى الشارع قرب منتصف الليل، وجبتُ فيه كله، وعندما وصلتُ إلى متجر الطوب القديم المتهالك بالقرب من الفندق الذي

يحظر شرب الخمور، استندت إلى الحائط لأعيد التفكير، وعندئذ جاء هذان الرجلان يتسللان بالقرب مني، ومعهما شيء يخبئانه، فخمنت أنهما سرقاه. كان أحدهما يدخن، وأراد الآخر ثقابًا، وعليه توقفا أمامي مباشرة وأضاءت السجائر وجهيهما، ورأيتُ أن الرجل الكبير هو الإسباني الأصم الأبكم، بشاربه الأبيض وعصابة عينه، أما الآخر فكان الشيطان رث المنظر الشاحب».

«هل تمكنت من رؤية أسماله البالية تحت ضوء السجائر؟».

بُغِت هاك لوهلة، ثم قال:

«حسنًا، لا أعرف، لكن بطريقة ما يبدو أنني رأيتهما».

«ثم مضيا، وأنت..».

«تبعتهما، نعم، هذا ما حدث. أردتُ أن أعرف ماذا يجري، ثم مضى الاثنان يتسللان، وتتبعتُهما حتى سلم الأرملة، ووقفتُ في الظلام وسمعتُ الرثَ يتوسل من أجل الأرملة، وأقسم الإسباني بأنه سيشوه مظهرها مثلما أخبرتك أنت وابنيك..».

«ماذا! الرجل الأصم الأبكم قال كلَ ذلك!».

ارتكب هاك خطأ آخر فظيعًا! كان يبذل قصارى جهده في أن يحجب عن الرجل العجوز أدنى إشارة إلى هوية الإسباني، ومع ذلك بدا أن لسانه قد عزم أمره على أن يوقعه في المشاكل رغم كل ما استطاع فعله. بذل جهدًا كبيرًا لأن يخرج من ورطته، إلَّا أن عين الرجل العجوز كانت عليه، فأخذ يرتكب حماقة تلو الأخرى، حتى قال الويلزي:

«يا بني، لا تخف مني، لن أمس شعرة من رأسك مهما كان. بالعكس، سأحميك، سأحميك. هذا الإسباني ليس أصم ولا أبكم، لقد ذل لسانك دون أن تقصد، لا يمكنك أن تخفي ذلك الآن، أنت تعرف شيئًا عن ذلك الإسباني وتريد أن تبقيه طي الكتمان. ثق بي، وأخبرني ما هو وثق بي، لن أخونك».

نظر هاك إلى عيني الرجل العجوز الصادقتين للحظة، ثم انحنى وهمس في أذنه:

«إنه ليس إسبانيًّا، إنه إنجون جو!».

كاد الويلزي يقفز من على مقعده، وقال على الفور:

«لقد وضح كل شيء الآن بما يكفي، عندما تحدثت عن قطع آذان وشق أنوف، فكرت في أن ذلك زخرفة من عندك، لأن الرجال البيض لا ينتقمون بهذه الطريقة، لكن إنجون! هذه مسألة مختلفة برمتها».

استمر حديثهما خلال الإفطار، وفي أثناء ذلك قال الرجل العجوز إن آخر ما فعله هو وابناه قبل الخلود إلى النوم كان إحضار مصباح وفحص السلم وما حوله بحثًا عن آثار دماء، ولكنهم لم يجدوا شيئًا، ومع ذلك فقد تحفظوا على حزمة ضخمة من..

«من ماذا؟».

إذا كانت الكلمات تضيء، ما كانت لتنطلق من شفاه هاك الشاحبة لامعةً فجائيةً أكثر مما كانت؛ اتسعت عيناه وأخذ يحدق

منقطع الأنفاس انتظارًا للإجابة. حدق الويلزي هو الآخر لمدة ثلاث ثوان، خمس ثوان، عشر، ثم أجاب:

«من عدة اللصوص. لماذا، ما خطبك؟».

تراجع هاك إلى الوراء، وهو يلهث بهدوء لكن بعمق، وقد شعر بالراحة على نحو لا يوصف. نظر إليه الويلزي بقلق بالغ وبفضول، ثم قال:

«نعم، عدة لصوص. يبدو أن هذا أراحك بدرجة كبيرة. لكن ما الذي جعلك تنقلب هكذا؟ ماذا كنت تتوقع أننا سنجد؟».

كان هاك محاصرًا، وكانت العين المتسائلة مصوبة ناحيته، كان ليدفع أي شيء مقابل أن يقول إجابة مقنعة، لكن لم يخطر على باله شيء. كانت العين المتسائلة تخترقه بشكل أعمق وأعمق، وخطر إليه ردٌّ ليس له معنى؛ لم يكن هناك وقت لوزنه، وعليه غامر وقاله بصوت خافت:

«كتب مدرسة يوم الأحد ربما».

كان المسكين هاك مضطربًا جدًّا بدرجة لا تسمح له بأن يبتسم، إلَّا أن الرجل العجوز ضحك بصوت عالٍ جدًّا ضحكة مملوءة بالمرح، واهتز جسمه كله من رأسه إلى قدمه، وانتهى بأن قال إن مثل هذه الضحكة بمثابة نقود في جيب رجل، لأنها تخفض فاتورة الطبيب، ثم أضاف:

«أيها الفتى المسكين، إنك شاحب ومتعب، أنت لست بخير

على الإطلاق، لا عجب أنك غير مقنع قليلًا وفاقد لتوازنك، لكنك ستخرج من هذه الحالة؛ الراحة والنوم سيجعلانك بخير، حسبما أتمنى».

شعر هاك بالاستفزاز، أحس أنه أحمق لأنه عرض نفسه للشك بحماسه هذا، لأنه كان قد استبعد فكرة أن الحزمة التي أحضراها من الفندق كانت هي الكنز فور أن سمع حديثهما عند سلم الأرملة. كان قد استبعد أن تكون الحزمة هي الكنز، إلَّا أنه لم يكن متيقنًا من ذلك، وعليه أثر طرح مسألة العثور على الحزمة كثيرًا على ثباته، لكنه في المجمل شعر بسعادة تجاه الأحداث الصغيرة التي حدثت، لأنه قد تأكد الآن بما لا يدع مجالًا للشك من أن الحزمة لم تكن الحزمة المطلوبة، وعليه فقد ارتاح عقله وهدأ بشكل كبير، وفي الحقيقة، بدا أن كل شيء يسير في الاتجاه الصحيح الآن، إذ إن الكنز حتمًا لا يزال في الغرفة رقم ٢، والرجلان سيتم القبض عليهما ويسجنان في ذلك اليوم، وسيكون بإمكانه هو وتوم الحصول على الذهب تلك الليلة دون أي مشاكل أو أي خوف من عراقيل.

فور انتهاء الإفطار، قُرِع الباب، فانتفض هاك باحثًا عن مكان يختبئ فيه، إذ لم تكن لديه نية أن يكون على صلة، ولو من بعيد، بالحدث الأخير. استقبل الويلزي العديد من السيدات والرجال، من بينهم الأرملة دوجلاس، ولاحظ أن مجموعات من المواطنين كانت تصعد إلى التل من أجل إلقاء نظرة على السلم. إذًا، فقد انتشر الخبر. كان على الويلزي أن يسرد للزائرين الحكاية التي وقعت ليلًا، وعبَّرت الأرملة عن امتنانها لحمايتهم إياها.

«لا شكر على واجب يا سيدتي، هناك شخص آخر ربما تكونين ممتنة له أكثر من امتنانك لي وللصبية، لكنه لا يسمح لي بأن أقول اسمه. لولاه، ما كنا ذهبنا إلى هناك».

وبالطبع أثار ذلك فضولًا كبيرًا جدًّا إلى درجة قللت من الحدث الرئيسي، إلَّا أن الويلزي ترك الفضول يأكل أحشاء زائريه، الذين نقلوا الفضول إلى البلدة بأكملها، لأنه رفض أن يكشف عن سره. وعندما عُرِف كل شيء آخر، قالت الأرملة:

«لقد نمت وأنا أقرأ في الفراش وكنت نائمة وسط كل هذه الضوضاء. لماذا لم تأتوا وتوقظونني؟».

«لقد رأينا أن الأمر لا يستحق، إذ لم يكن من المحتمل أن يأتي هذين الرجلين مجددًا، ولم يكن معهما أي عدة يستطيعان العمل بها، وعليه فما كانت الفائدة من إيقاظك وإخافتك حد الموت؟ ووقف ثلاثة رجال زنوج، يعملون عندي، لحراسة منزلك طوال الليل، وقد عادوا لتوهم».

جاء المزيد من الزوار، وتوجب سرد الحكاية وإعادة سردها لمدة ساعتين أخريين.

لم تكن هناك مدرسة دينية في إجازة الأيام الدراسية، إلَّا أن الجميع كان في الكنيسة في وقت مبكر لأن الحدث المقلق استقطب حشدًا كبيرًا، وتواترت الأخبار بأنه لم يتم اقتفاء أي أثر للشريرين بعد. عندما انتهت الخطبة، سارت زوجة القاضي ثاتشر مع السيدة هاربر، في الممر مع الحشود، وقالت:

«هل ستظل بيكي نائمة طوال النهار؟ لقد توقعت أنها ستكون متعبة حد الموت».

«بيكي؟».

بنظرة اندهاش: «نعم، ألم تبت عندكم ليلة أمس؟».

«لا».

شحبت السيدة ثاتشر وسقطت على أحد المقاعد، في الوقت الذي كانت تمر فيه الخالة بولي وهي تتحدث بحيوية مع صديقة لها. قالت الخالة بولي:

«صباح الخير يا سيدة ثاتشر، صباح الخير يا سيدة هاربر، لدي فتى مفقود، أعتقد أن توم مكث في منزل إحداكما ليلة أمس، ويخشى الآن من القدوم إلى الكنيسة، ويجب أن أسوي الأمر معه».

هزت السيدة ثاتشر رأسها بوهن وأصبحت أكثر شحوبًا من قبل.

قالت السيدة هاربر: «لم يمكث عندنا»، وبدأ القلق يظهر عليها، وبدا على وجه الخالة بولي قلق واضح.

«جو هاربر، هل رأيت توم هذا الصباح؟».

«لا يا سيدتي».

«متى كانت آخر مرة رأيته فيها؟».

حاول جو أن يتذكر، لكنه لم يكن متأكدًا إن كان بإمكانه أن

يجدد. توقف الناس عن الخروج من الكنيسة، وسرت همسات، وسيطر قلق مشؤوم على كل الوجوه. سُئل الأطفال بقلق، وكذلك المدرسون الشباب. قال جميعهم إنهم لم ينتبهوا ما إذا كان توم وبيكي قد صعدا على متن السفينة في رحلة العودة أم لا، لأن المكان كان مظلمًا ولم يفكر أحد في الاستفسار عن ما إذا كان هناك أي شخص مفقود. وأخيرًا زل لسان شاب بالحديث عن تخوفه من أن يكونا قد ظلا في الكهف حتى ذلك الوقت! فقدت السيدة ثاتشر وعيها، وأجهشت الخالة بولي بالبكاء وضغطت على يديها.

انتقل الذعر من شفاه إلى شفاه، ومن مجموعة إلى مجموعة، ومن شارع إلى شارع، وخلال خمس دقائق كانت الأجراس تدق بعنف وكانت البلدة كلها متأهبة! تضاءلت أهمية أحداث تلة كارديف على الفور، ونُسي أمر اللصوص. سُرجت الخيول، وحملت الزوارق، وصدر أمر بخروج السفينة، وقبل أن تمر نصف ساعة على هذا الرعب، كان مئتا رجل يتدفقون إلى الطريق الرئيسي وإلى النهر متجهين إلى الكهف.

طوال فترة ما بعد الظهيرة الطويلة، بدت القرية خالية وميتة، وذهبت العديد من السيدات لزيارة الخالة بولي والسيدة ثاتشر وحاولن تهدئتهن، وبكين معهن أيضًا، الأمر الذي كان أفضل من الكلمات. انتظرت البلدة أخبارًا، طوال هذه الليلة المرهقة، إلَّا أنه عندما سطع فجر الصباح في النهاية، كانت كل الكلمات التي تخرج من الكهف: «أرسلوا المزيد من الشموع، وأرسلوا الطعام».

كادت السيدة ثاتشر أن تجن، وكذلك الخالة بولي. أرسل القاضي ثاتشر رسائل أمل وتشجيع من الكهف، إلَّا أنها لم تبعث أي تشجيع حقيقي.

عاد الويلزي العجوز إلى المنزل قرب ضوء النهار، وقد تناثر عليه شحم الشمع وتلطخ بالطين وأُنهِك، ثم وجد أن هاك لا يزال في الفراش الذي وفره له، وقد أخذ يهذي من حمى. كان جميع الأطباء في الكهف، وعليه جاءت الأرملة دوجلاس وتولت مسؤولية المريض، وقالت إنها ستفعل أفضل ما بوسعها من أجله، لأنه سواء كان جيدًا أو سيئًا أو لا مباليًا، فإنه كان من خلق الله، وأي شيء من خلق الله لا يجب أن يُهمل، فقال الويلزي إن هاك به بعض الحسنات، وقالت الأرملة:

«يمكنك أن تعتمد على تلك الحسنات، فهذه علامة الإله، ولا يضيعها. لا يفعل ذلك أبدًا، يهب مخلوقًا حسنات ويضيعه».

بدأت جماعات من الرجال المنهكة تعود إلى القرية، في وقت مبكر عند الضحى، فيما استمر في البحث من هم أقوى، وكانت كل الأخبار التي أمكن الوصول إليها هي أن بحثًا شاملًا كان يجري في الأجزاء النائية من الكهف التي لم يزرها أحد من قبل، وأن كل ركن وكل تفريعة كان سيتم تفتيشها بشكل كامل، وأنه في أي مكان يتجول فيه شخص داخل متاهة الممرات هذه، كانت الأنوار تُرى مضيئة هنا وهناك من بعيد والصيحات وطلقات المسدسات ترسل أصداءها الجوفاء إلى الآذان عبر الممرات المظلمة. في مكان ما، بعيدًا

عن الجزء الذي عادة ما يزوره السائحون، عُثِر على الاسمين «بيكي & توم» فوق الحائط الصخري مكتوبين بدخان الشمع، وفي مكان قريب عُثِر على جزء من شريطة لطخها الشحم. تعرفت السيدة ثاتشر على الشريطة وبكت عليها، وقالت إن ذلك كان آخر أثر ستحظى به من طفلتها، على الإطلاق، وأنه لا يوجد تذكار آخر منها من الممكن أن يكون أكثر قيمة، لأن هذا التذكار هو آخر ما انفصل عن جسدها الحي قبل أن يأتي الموت البشع. قال البعض إنه من حين إلى آخر، في الكهف، كان طيف بعيد من الضوء يومض، ثم تخرج صيحة عالية تجاهه، ويركض عدد من الرجال تجاه الممر الذي يأتي منه الصدى، ثم يعقب ذلك دائمًا خيبة أمل تثير الاشمئزاز؛ لا يجدون الطفلين هناك، ويكون الضوء لأحد من الباحثين.

مضت ثلاثة أيام وليال مروعة بساعاتهم الشاقة، وغرقت البلدة في فتور مملوء باليأس، فلم يكن هناك أحد لديه حماس لأي شيء.

وجعل الاكتشاف، الذي تم التوصل إليه بالصدفة، بأن مالك الفندق الذي يحظر الخمور، كان يحتفظ بمشروبات كحولية في مبناه، قلوب العامة ترتجف بشدة؛ بقدر هول الحقيقة.

وفي جلسة مصارحة، مهد هاك بهدوء إلى موضوع الفندق، وسأل أخيرًا، وهو يخشى جدًّا من الأسوأ، إذا كان أي شيء قد تم اكتشافه في الفندق الذي يحظر الخمور منذ أن مرض.

قالت الأرملة: «نعم».

نهض هاك في الفراش، متسع العينين، وقال:

«ماذا؟ ما الذي اكتشفوه؟».

«مشروبات كحولية! وتم إغلاق المكان. استلق يا فتى، ما هذا التقلب الذي تظهره لي!».

«فقط أخبرني شيئًا واحدًا فقط، شيئًا واحدًا فقط، من فضلك! هل كان توم سوير هو من وجده؟».

أجهشت الأرملة في البكاء، وقالت: «صه، صه، يا فتى، صه! لقد قلت لك من قبل إنك لا يجب أن تتحدث، فأنت مريض جدًّا جدًّا!».

إذًا، لم يتم العثور على شيء سوى الخمر، كان ليصبح أمرًا جللًا إذا كان ما عثروا عليه هو الذهب. إذًا فقد اختفى الكنز إلى الأبد، اختفى إلى الأبد! لكن ما الذي من الممكن أن يكون قد أبكاها؟ بكاؤها يثير الفضول.

ألفت هذه الأفكار طريقها المظلم في ذهن هاك، وجراء التعب الذي تسببت له فيه، سقط نائمًا، وقالت الأرملة لنفسها:

«ها هو نائم، الخائف المسكين. توم سوير هو من وجده! يا للمأساة، فليجد أحد توم سوير! آه، لم يتبق الكثير الآن ممن عندهم أمل كاف، أو قوة كافية أيضًا، للاستمرار في البحث».

# ٣١

لنعد الآن إلى نصيب توم وبيكي من الرحلة؛ أخذ الاثنان يسيران في المرات المعتمة مع بقية المجموعة، متفقدين المعالم المعهودة للكهف، وهي معالم لها أسماء مبالغٌ في توصيفها غالبًا، مثل «غرفة الرسم»، «الكاتدرائية»، «قصر علاء الدين»، وهكذا. ثم بدأت لعبة القطة العمياء، بالمرح المصاحب لها، واندمج توم وبيكي في اللعب بحماس حتى بدأ المجهود يصبح متعبًا قليلًا، ثم سلكا بعد ذلك طريقًا متعرجًا، ممسكين بشمعتيهما إلى أعلى وهما يقرآن التشبيكات المضفرة من الأسماء والتواريخ وعناوين مكاتب البريد والشعارات التي نُقِشت على الحوائط الصخرية (بدخان الشمع)، وهما مستمران في سيرهما وحديثهما، دون أن ينتبها إلى أنهما قد أصبحا الآن في جزء من الكهف لم تكن جدرانه منقوشة، ثم نقشا اسميهما تحت نتوء صخري بارز، ومضيا.

ثم وصلا بعد ذلك إلى مكان كان فيه مجرى مائي صغير، وكان ذلك المجرى قد شكل عبر الأعوام البطئية، شلالًا عكرًا وسط

حجر براق خالد، بفعل الماء المحمل بالرسوب الجيرية الذي يقطر منه فوق أحد الحواف الناتئة. حشر توم جسده الصغير إلى الخلف، حتى يفتح مجال الرؤية إرضاءً لبيكي، ووجد أنه كان بمثابة ستار يغطي ما يشبه سلالم طبيعية منحدرة ومطوقة بحوائط ضيقة، وعلى الفور تملكه طموح بأن يصبح مكتشفًا.

استجابت بيكي لندائه، أخذا يضعان علامات استرشادية للمستقبل بالدخان، وبدءا مهمتهما. مرا بهذا الطريق وذاك، داخل الأعماق السرية البعيدة للكهف، ثم وضعا علامة أخرى، ثم دلفا يبحثان عن أشياء جديدة يخبران بها العالم الخارجي. وفي مكان ما، وجدا مغارة واسعة تتدلى من سقفها أعمدة لامعة، بطول ومحيط ساق رجل، فتجولا فيها كلها في تأمل وانبهار، ثم خرجا منها عبر أحد الممرات العديدة المؤدية إليها، وسرعان ما قادهم هذا إلى ينبوع خلاب، حوضه مغطى ببلورات لامعة ذات تشكيلات ثلجية. وكان الينبوع وسط مغارة تستند حوائطها إلى العديد من الأعمدة الرائعة، التي تشكلت من اتحاد الأعمدة المتدلية من السقف ونظيرتها المنبثقة من الأرض، التي نشأت عن التقطر المتواصل للماء عبر القرون. تحت السقف، كانت مجموعات كبيرة من الخفافيش قد تجمعت معًا؛ الآلاف منها في مجموعة واحدة، ونظرًا إلى أن الأضواء قد تسببت في إزعاجهم، فقد حلقوا إلى أسفل بالمئات، مصدرين صريرًا وهو يندفعون بعنف تجاه الشمع. كان توم يعرف طبيعتهم والخطر الناجم عن هذا السلوك، فأمسك بيد بيكي وأسرع بها إلى أول ممر ظهر أمامهم، وضرب خفاش سريع ضوء بيكي بجناحه

وهي تخرج من المغارة. لاحقت الخفافيش الطفلين مسافة كبيرة، إلَّا أن الفارين كانا يدخلان في كل ممر جديد يظهر أمامهما، حتى تخلصا في النهاية من هذه المخلوقات الخطيرة. بعد فترة وجيزة، وجد توم بحيرة جوفية امتد طولها الضبابي بعيدًا حتى اختفى شكله تحت الظلال. أراد أن يستكشف حدودها، لكنه رأى أن من الأفضل أن يجلس ويسترخي قليلًا أولًا. والآن، ولأول مرة، وضع السكون العميق للمكان يدًا رطبة على روحي الطفلين، فقالت بيكي:

«لم أنتبه، لكن يبدو أنه قد مر وقت طويل جدًّا منذ آخر مرة سمعت فيها صوت الآخرين».

«فكري في الأمر يا بيكي، إننا بعيدان جدًّا في منطقة منخفضة بالأسفل، ولا أعرف كم نبعد عن الشمال أو الجنوب أو الغرب، أو أيًا كان، ولذلك لا يمكننا سماعهم ونحن هنا».

شعرت بيكي بالخوف.

«أتساءل كم لبثنا هنا يا توم؟ من الأفضل أن نعود».

«نعم، أعتقد أن ذلك سيكون أفضل، ربما من الأفضل أن نفعل ذلك».

«هل يمكنك أن تجد الطريق يا توم؟ يبدو لي كله تعرجًا متشابكًا».

«أعتقد أن بإمكاني أن أجده، لكن هناك خفافيش، وإذا أطفئوا شموعنا فسيكون ذلك مأزقًا رهيبًا. دعينا نجرب طريقًا آخر، حتى لا نسلك ذلك الطريق».

«حسنًا، لكن أتمنى ألا نضل الطريق، وإلَّا فسيكون ذلك أمرًا فظيعًا جدًّا!»، وارتجفت الفتاة من التفكير في الاحتمالات المخيفة.

دخلا في ممر، ومشيا فيه بصمت مسافة طويلة، وهما يتطلعان إلى كل ممر جديد يظهر، ليريا إن كان في شكله أي شيء مألوف، إلَّا أن الممرات جميعًا كانت غريبة، وفي كل مرة كان توم يتفحص إحدى هذه الممرات، كانت بيكي تبحث في وجهه عن علامة تشجيع، وكان يقول مشجعًا:

«أوه، لا بأس. ليس هذا، لكننا سنصل إليه حالًا!».

إلَّا أن أمله بدأ يقل أكثر فأكثر مع كل إخفاق، ثم بدأ يدلف إلى طرق متباينة، بعشوائية مطلقة، في أمل يائس للعثور على الممر الذي كانا يبحثان عنه. ظل يقول «كل شيء على ما يرام»، إلا أن خوفًا ثقيلًا وطأ قلبه وجعل كلماته تفقد رنينها وبدت بالضبط كما لو كان يقول «كل شيء ضاع!». تشبثت بيكي به في خوف شديد، وحاولت جاهدة أن تمنع دموعها لكنها انهمرت، ثم قالت أخيرًا:

«أوه، توم، لا تلق بالًا إلى الخفافيش، دعنا نعود من ذلك الطريق! يبدو أننا نصير إلى الأسوأ فالأسوأ مع مرور الوقت».

قال: «أنصتي!».

كان هناك صمت تام، صمت عميق جدًّا، حتى أن أنفاسهما كانت مسموعة وسط هذا السكون، ثم صاح توم، فأحدث النداء صدى في الممرات الخالية، حتى خفت الصوت بعيدًا وأصبح شبيهًا بموجة ضحكات ساخرة.

«أوه، من فضلك لا تفعل ذلك مجددًا يا توم، إنه مرعب جدًّا».

«إنه مرعب، ولكن من الأفضل أن أفعل ذلك يا بيكي، من الممكن أن يسمعونا»، ثم صاح مجددًا.

أحدثت «من الممكن» تلك رعبًا أبرد من الضحكة الموحشة، إذ إنها كانت اعترافًا بأمل ضائع. وقف الطفلان ساكنين وأطرقا، لكن لم تكن هناك نتيجة، فعاد توم على الفور إلى ممر خلفي، وأسرع خطاه. لم يمر وقت طويل حتى كشف ارتباك معين في طريقته، لبيكي، عن حقيقة مخيفة أخرى، وهي أنه لم يستطع أن يجد طريق العودة!

«أوه، توم، لم تضع أي علامات!».

«بيكي، لقد كنت أحمق! أحمق! لم أفكر أبدًا أننا من الممكن أن نكون بحاجة إلى العودة! لا، لا يمكنني أن أجد الطريق. إنه كله متشابك».

«توم، توم، إننا تائهان! لا يمكننا الخروج من هذا المكان الموحش أبدًا! أوه، لماذا تركنا الآخرين من الأساس!».

وسقطت على الأرض، وانفجرت في موجة هائجة من البكاء حتى أن توم فزع من فكرة أنها من الممكن أن تموت أو تفقد عقلها، فجلس إلى جانبها وطوقها بذراعيه، فدفنت وجهها في صدره، وتشبثت به، وعبَّرت عن مخاوفها، وعن أسفها الذي لا جدوى منه، بينما تُحول الأصداء البعيدة جميع ذلك إلى ضحكة استهزاء. توسل إليها توم أن تتمسك بالأمل من جديد، فأخبرته أنها لا تستطيع،

فأخذ يلوم نفسه ويبكتها، لأنه أوقع بيكي في هذا الوضع المأساوي، وكان لهذا أثر أفضل، إذ قالت بيكي إنها ستحاول أن تأمل من جديد وستنهض وتتبعه أينما يقودها، بشرط ألا يكرر هذا الكلام، لأنه لم يكن ليُلام أكثر منها، حسبما قالت.

ثم تحركا مجددًا، بدون هدف، -ببساطة- في عشوائية، كل ما كان بوسعهما فعله هو أن يتحركا وأن يظلا يتحركان، بُعِث الأمل من جديد لفترة قصيرة، ليس لأي سبب يدعو إلى ذلك، وإنما لأنه من طبيعة الأمل فقط أن يُبعث، ما لم ينل منه العمر والتآلف مع الفشل.

رويدًا رويدًا، أخذ توم شمعة بيكي وأطفأها، كان هذا الاقتصاد يعني كثيرًا جدًّا! لم تكن هناك حاجة إلى الكلمات، ففهمت بيكي ومات أملها من جديد. كانت تعلم أن توم كان معه شمعة كاملة وثلاث أو أربع شمعات أخريات في جيوبه، ومع ذلك فقد كان عليه أن يقتصد.

رويدًا رويدًا، بدأ الإرهاق يؤكد مطالبه، إلَّا أن الطفلين حاولا أن يظلا منتبهين، لأن التفكير في الجلوس يكون مخيفًا عندما تزداد قيمة الوقت بدرجة كبيرة، أما التحرك في اتجاه ما؛ أي اتجاه، كان على الأقل تقدمًا، ومن الممكن أن يؤتي بثماره، إلَّا أن الجلوس كان دعوة للموت وانتظارًا له.

في النهاية، رفضت أطراف بيكي الواهية أن تحملها أكثر من ذلك، فجلست، واستراح توم معها، وتحدثا عن المنزل وعن

الأصدقاء هناك، وعن الأسرّة المريحة، وفوق كل شيء، عن الضوء! بكت بيكي، وحاول توم أن يفكر في طريقة ما للتسرية عنها، إلّا أن كل تشجيعاته فقدت تأثيرها مع كثرة الاستخدام، وبدت كأنها سخرية. ألقى التعب بإرهاقه (هل يمكن أن نجعلها ألقى الإرهاق بثقله؟) على بيكي، فتثاقلت حتى نامت.

شعر توم بالامتنان، وجلس ينظر إلى وجهها المنحوت، ورآه يزداد نعومة وطبيعية تحت تأثير الأحلام السعيدة، ورويدًا رويدًا أشرقت ابتسامة استقرت على وجهها، وعكس الوجه المسالم نوعًا من السلام والشفاء على روحه، وجال خاطره بعيدًا في أوقات انقضت وذكريات حالمة. وبينما كان مستغرقًا في تأملاته، استيقظت بيكي بضحكة صغيرة مبهجة، سرعان ما تلاشت من على شفتيها، متبوعة بأنين.

«أوه، كيف أمكنني النوم! يا ليتني لم أستيقظ أبدًا أبدًا! لا! لا، لم أقصد يا توم! لا تنظر إليّ هكذا! لن أقول ذلك مرة أخرى».

«أنا سعيد لأنك نمت يا بيكي، ستشعرين بالراحة الآن، وسنجد طريق الخروج».

«يمكنك أن تحاول يا توم، لكنني رأيت بلدًا جميلًا في حلمي، وأعتقد أننا ذاهبان إلى هناك».

«ربما لا، ربما لا، تفائلي يا بيكي، ودعينا نذهب للمحاولة».

نهضا وتجولا، يد في يد، فاقدي الأمل. حاولا تقدير الوقت الذي لبثاه في الكهف، لكن كل ما كانا يعرفانه هو أنه بدا أيامًا

وأسابيع، ومع ذلك فقد كان من الواضح أنه من الممكن ألا يكون الأمر كذلك، لأن شموعهما لم تكن قد انتهت بعد. وبعد فترة طويلة، لم يتمكنا من تقديرها، قال توم إنهما يجب أن يسيرا بخفة وأن ينصتا إلى الماء المقطر، ويجب أن يجدا ينبوعًا. وعندما وجدا واحدًا، قال توم إن الوقت قد حان للاستراحة من جديد، كان كلاهما متعبًا جدًّا، ومع ذلك قالت بيكي إنها تعتقد أن بإمكانها السير أبعد قليلًا. وتفاجأت عندما اعترض توم، ولم تستطع أن تفهم الأمر. جلسا، وثبت توم شمعته في الحائط ببعض الطين، لتكون أمامهما. سرعان ما استغرقا في التفكير، ولم يقولا شيئًا لبعض الوقت، ثم كسرت بيكي الصمت، قائلة:

«توم، أنا جائعة جدًّا!».

أخرج توم شيئًا من جيبه.

قال: «أتتذكرين هذا؟».

كادت بيكي تبتسم.

«إنها كعكة زفافنا يا توم».

«نعم، أتمنى لو كانت كبيرة مثل برميل، لأنها كل ما نملك».

«لقد احتفظت بها من الرحلة من أجل أن نحلم بها يا توم، مثلما يفعل الكبار بكعك الزفاف، لكنها ستكون..».

لم تكمل جملتها، وقسم توم الكعكة وأكلت بيكي بشهية جيدة، بينما أخذ توم يقضم نصيبه. كان الماء البارد وافرًا من أجل أن ينهيا

به وليمتهما، وبعد قليل اقترحت بيكي أن يتحركا مجددًا. ظل توم صامتًا لوهلة، ثم قال:

«بيكي، هل يمكنك أن تتحملي إذا أخبرتك شيئًا؟».

شحب وجه بيكي، لكنها رأت أن بإمكانها أن تتحمل.

«حسنًا إذًا يا بيكي، يجب أن نبقى هنا حيث يوجد ماء نشربه، هذه القطعة الصغيرة هي آخر ما لدينا من شمع!».

استسلمت بيكي للدموع والنحيب، وفعل توم ما بوسعه ليواسيها، إلَّا أن ذلك كان تأثيره ضئيلًا، وأخيرًا قالت بيكي:

«توم!».

«نعم يا بيكي؟».

«سيفتقدوننا ويبحثون عنا!».

«نعم، سيفعلون ذلك! بالتأكيد سيفعلون ذلك!».

«ربما يبحثون عنا الآن يا توم».

«أعتقد أنهم ربما يبحثون. أتمنى أنهم يبحثون».

«متى سيلحظون غيابنا يا توم؟».

«عندما يعودون إلى السفينة على ما أعتقد».

«توم، من الممكن أن يكون الوقت قد أظلم حينئذ، هل سيلحظون أننا لم نأت؟».

«لا أعلم. لكن على أي حال، ستلحظ والدتك غيابك بمجرد أن يصلوا إلى المنزل».

أعادت نظرة خائفة في وجه بيكي، توم، إلى رشده، ورأى أنه قد ارتكب خطأ فادحًا. لم تكن بيكي عائدة إلى المنزل تلك الليلة!

غرق الطفلان في الصمت والتفكير، ثم أظهرت دفعة جديدة من الأسى الذي ظهر على بيكي، لتوم، أن الشيء الذي كان يدور في ذهنه كان يدور في ذهنها هي أيضًا، وأن صباح السبت من الممكن أن ينقضي نصفه قبل أن تكتشف السيدة ثاتشر أن بيكي لم تكن عند السيدة هاربر.

ثبَّت الطفلان عينيهما على الجزء الصغير الذي تبقى من شمعتهما، وراقباها وهي تنصهر ببطء وبدون رحمة حتى أصبحت نصف بوصة الذبالة تقف بمفردها، في نهاية الأمر، ثم شاهدا الشعلة الضعيفة وهي ترتفع وتهبط، وتتصاعد على العمود الرفيع من الدخان، وتطيل وقوفها عند قمته للحظة. ثم، حل رعب الظلام الدامس.

لم يستطع أحدهما أن يحدد كم مر من الوقت، بعد ذلك، حتى أدركت بيكي ببطء أنها كانت تبكي بين ذراعي توم. كل ما كانا يعرفانه هو أن كلاهما استيقظ من سبات تام، واستأنفا مآسيهما مرة أخرى، بعد ما بدا أنه تمددٌ كبيرٌ للوقت. قال توم إن اليوم ربما يكون الأحد، وربما يكون الاثنين. حاول أن يجعل بيكي تتحدث، إلَّا أن أحزانها كانت قد غلبتها بشدة، وآمالها كلها قد خابت. قال توم إنهم حتمًا قد التفتوا إلى غيابهما منذ وقت طويل، وأن البحث دائر بلا ريب. كان يريد أن يصيح فربما سيأتي أحد. جرب الأمر، إلَّا

أن صدى الصوت البعيد بدى بشعًا جدًّا لدرجة أنه لم يجربه مرة أخرى.

مضت الساعات سدى، وعاد الجوع ليعذب الأسرى من جديد. كان جزء من نصيب توم من الكعكة لا يزال متبقيًّا، فقسماه وأكلاه.

إلَّا أنهما أحسا بالجوع أكثر من قبل، إذ إن اللقمة الصغيرة من الطعام لم تفعل سوى أنها فتحت شهيتهما وحسب.

رويدًا رويدًا، قال توم:

«صه! هل سمعتِ هذا؟».

كتم كلاهما نفسه وأنصتا. كان هناك صوت أشبه بصيحة بعيدة خافتة لأقصى درجة. على الفور، رد عليها توم وهو يقود بيكي من يدها، بدأ يسير عبر الممر في ذلك الاتجاه. أنصت مجددًا، فسُمِع الصوت من جديد، وكان من الواضح أنه أصبح أقرب قليلًا.

قال توم: «إنهم هم! إنهم قادمون! تعالي يا بيكي، نحن على ما يرام الآن!».

كانت فرحة المسجونين غامرة، ورغم ذلك كانت سرعتهما بطيئة، لأن المزالق كانت كثيرة نوعًا ما، وكان يجب الحذر منها، وسرعان ما وصلا إلى مزلق اضطرهما إلى أن يتوقفا، إذ كان من الممكن أن يكون عمقه ثلاثة أقدام، وربما مئة قدم، لم يكن عبوره ممكنًا بأي حال. انبطح توم على صدره وتلمس بعيدًا إلى أسفل قدر

استطاعته، فلم يجد قاعًا، وعليه وجب عليهما البقاء هناك وانتظار قدوم الباحثين. أنصتا، ومن الواضح أن الصيحات البعيدة أصبحت أكثر بعدًا! وبعد لحظة أو اثنتين، اختفت تمامًا. كانت مأساة أحدثت غصة في القلب!

صاح توم حتى بح صوته، لكن دون فائدة. تحدث إلى بيكي بأمل، إلَّا أن دهرًا من الانتظار القلق مر ولم تُسمع أي أصوات أخرى.

مضى الأطفال في طريق العودة إلى الينبوع، وطال أمد الوقت المرهق، فناما مجددًا، واستيقظا وهما يتضوران جوعًا والحزن يعصف بهما. شعر توم بأن اليوم قد أصبح الثلاثاء، حتمًا بحلول ذلك الوقت.

حينئذ، خطرت إليه فكرة. كانت هناك بعض الممرات الجانبية القريبة، وكان من الأفضل أن يستكشفا بعضًا منها بدلًا من تحمل وطأة الوقت الثقيل في عدم فعل أي شيء، فأخرج خيط طائرة ورقية من جيبه، وربطه في نتوء، وبدأ هو وبيكي المسير، يتقدمها توم وهو يحل الخيط في أثناء سيره. بعد عشرين خطوة، انتهى الممر عند مزلق. جثا توم على ركبتيه وتحسس ما بالأسفل ثم ما كان إلى جانبه، قدر ما استطاعت أن تصل إليه يده بيسر، وجاهد أن يمتد إلى اليمين أكثر قليلًا. في تلك اللحظة، وعلى بعد لا يزيد عن عشرين ياردة، ظهرت يد بشرية تمسك شمعة من وراء صخرة! فأطلق توم صيحة حادة، وعلى الفور تبع هذه اليد الجسد التي كانت تنتمي إليه، وهو جسد إنجون جو! شُل توم، ولم يستطع أن يتحرك. كان مسرورًا جدًّا

عندما رأى أن «الإسباني» قد أطلق ساقيه للريح وابتعد عن مرمى البصر. تعجب توم من أن جو لم يتعرف على صوته، وجاء يقتله لأنه شهد في المحكمة. إلَّا أن الصدى على الأغلب قد موه الصوت. كان هذا هو السبب دون شك، حسب تفسيره. جعل الخوف كل عضلة في جسد توم واهنة، وقال لنفسه إنه إذا كانت لديه قوة كافية لأن يعود إلى الينبوع فسيمكث هناك، ولن يغريه شيء أن يخاطر بلقاء إنجون جو مجددًا، وقد كان حريصًا على أن يخفي عن بيكي ما رآه، وأخبرها فقط أنه صاح «من أجل الحظ».

ولأن الجوع والبؤس يفوقان المخاوف على المدى الطويل، فقد أحدث انتظار مرهق آخر عند الينبوع ونوم طويل آخر تغيرات.

استيقظ الطفلان والجوع الغاضب يعذبهما، شعر توم بأن اليوم كان حتمًا الأربعاء أو الخميس أو حتى الجمعة أو السبت، وأن البحث قد توقف الآن، فاقترح أن يستكشفا ممرًا آخر، وشعر أنه على استعداد بأن يخاطر بملاقاة إنجون جو وبكافة المخاوف الأخرى. إلَّا أن بيكي كانت واهنة جدًّا، وغرقت في لا مبالاة كئيبة ولم تكن لتنهض، وقالت إنها ستنتظر في مكانها وتموت -إذ إن الأمر لن يطول، وأخبرت توم بأن يذهب ومعه خيط الطائرة الورقية ويستشكف إن أراد، لكنها استحلفته أن يعود كل حين ويتحدث إليها، وجعلته يتعهد بأن يجلس إلى جانبها عندما تحين الساعة الأليمة، ويمسك بيدها حتى ينتهي كل شيء.

قبَّلها توم وهو يشعر باختناق في حلقه، وأظهر لها أنه واثق من

أنه سيعثر على الباحثين أو عن مهرب من الكهف، ثم أخذ خيط الطائرة الورقية في يده ومضى في أحد الممرات على يديه وركبتيه، مكروبًا من الجوع وسئمًا من شؤم أنه هالك.

# ٣٢

بحلول عصر الثلاثاء، الذي امتقع لونه متحولًا إلى شفق، كانت قرية سانت بطرسبرج لا تزال في حداد، إذ لم يتم العثور على الطفلين المفقودين بعد، وكانت صلوات الجماعة قد أقيمت من أجلهما، والعديد والعديد من الصلوات الفردية التي خشع فيها الدعاة من قلوبهم، ومع ذلك لم تأت أخبار سعيدة من الكهف. توقف أغلب الباحثين عن البحث، وعادوا إلى أشغالهم اليومية، قائلين إنه كان من الواضح أن الطفلين لا يمكن العثور عليهما أبدًا. كانت السيدة ثاتشر مريضة جدًّا، وكانت تهذي معظم الوقت. كان الناس يقولون إنه لأمر يفطر القلب أن تسمعها تنادي على طفلتها، وترفع رأسها وتُطرق دقيقة كاملة في كل مرة، ثم تستلقي مجددًا في تعب، وهي تتأوه، أما الخالة بولي فقد غرقت في حزن راسخ، وصار شعرها الرمادي أبيض تقريبًا. خلدت القرية إلى نومها ليلة الثلاثاء، في حزن ووحشة.

بعيدًا في منتصف الليل، قرعت أجراس القرية بعنف، وفي لحظة كانت الشوارع قد اكتظت بأشخاص محمومين ونصف

مكسوين يصيحون: «هلموا! هلموا! لقد عُثِر عليهما! لقد عُثِر عليهما! لقد عُثِر عليهما!» انضمت آنية قصدير وأبواق إلى الجلبة، وحشد المواطنون أنفسهم وتحركوا ناحية النهر، وشاهدوا الطفلين وهما قادمان في عربة مفتوحة يجرها مواطنون يصيحون، وتجمعوا حولها، وانضموا إلى مسيرة العودة إلى المنزل، وخرجوا إلى الشارع الرئيسي وهم يطلقون صيحة ابتهاج بعد أخرى، في مشهد عظيم!

كانت القرية مضاءة، ولم يعد أحد إلى مضجعه مجددًا، وكانت أعظم ليلة تشهدها البلدة الصغيرة. خلال النصف ساعة الأولى، وصل موكب من الفلاحين إلى منزل القاضي ثاتشر، أمسكوا بالناجيين وقبلوهما، وضغطوا على يد السيدة ثاتشر، وحاولوا التحدث لكنهم لم يستطيعوا، وانهمرت منهم في كل مكان دموع كالمطر.

اكتملت سعادة الخالة بولي، وكذلك سعادة السيدة ثاتشر بنفس الدرجة تقريبًا. كانت ستكتمل بمجرد أن يبلغ الرسول الموفد إلى الكهف، زوجها بالأخبار الرائعة. استلقى توم على أريكة وحوله مستمعون متلهفون، وسرد تاريخ المغامرة الرائعة، مضيفًا إليها العديد من الإضافات المدهشة ليزخرفها بها، وختمها بوصف لكيف ترك بيكي ومضى في رحلته الاستكشافية، وكيف جرب طريقين بقدر ما سمح له خيط الطائرة الورقية، وكيف جرب الثالث ومد خيط الطائرة الورقية إلى أقصى حد وكان على وشك أن يعود أدراجه لولا أن لمح نقطة بعيدة بدت كضوء النهار، فألقى الخيط

وسار نحو تلك النقطة، ودفع رأسه وأكتافه عبر فتحة صغيرة، ورأى المسيسيبي الواسع يجري!

ولو كان قد تصادف وأن حدث ذلك ليلًا، ما كان ليرى تلك النقطة من ضوء النهار وما كان ليستكشف ذلك الممر مجددًا! وحكى كيف عاد إلى بيكي وبشرها بالأخبار الجيدة وطلبت إليه ألا يوترها بمثل هذه الأمور، لأنها كانت متعبة وتظن أنها ستموت وتريد أن تموت. وصف كيف جاهد معها وأقنعها، وكيف كادت تموت من الفرح عندما مضت إلى حيث رأت بالفعل النقطة الزرقاء من ضوء النهار، وكيف دخل بنفسه إلى الفتحة ثم ساعدها لتخرج، كيف جلسا هناك وبكيا من الفرح، كيف أن بعض الرجال جاءوا في قارب وسلم عليهم وحكى لهم وضعيهما وحالة الجوع الشديد التي كانا فيها، وكيف أن الرجال لم يصدقوا الحكاية المروعة في البداية، معللين ذلك بقولهم: «لأنكم على بعد خمسة أميال من النهر أسفل الوادي الموجود به الكهف»، ومن ثم أخذوهما إلى الخارج، وجدفوا بهما إلى منزل، وقدموا لهما العشاء، وتركوهما يستريحان ساعتين أو ثلاث ساعات بعد أن حل الظلام ثم أحضروهما إلى المنزل.

قبل فجر اليوم التالي، بحثوا عن القاضي ثاتشر وحفنة الباحثين التي كانت معه في الكهف، عن طريق الخيوط التي تركوها وراءهم، وأعلموهم بالأخبار العظيمة.

ثلاثة أيام وليال من التعب والجوع في الكهف لم يكن أثرها ليذهب على الفور، حسبما اكتشف توم وبيكي سريعًا، إذ كانا

طريحي الفراش طوال يومي الأربعاء والخميس، وبدا أن التعب والإرهاق يزداد أكثر فأكثر مع مرور الوقت، إلَّا أن توم خرج قليلًا يوم الخميس، وذهب إلى وسط البلد يوم الجمعة، وظل بالخارج يوم السبت كله تقريبًا كسابق عهده، أما بيكي فلم تترك غرفتها حتى يوم الأحد، ثم بدت كما لو أنها كانت تعاني من مرض الهزال.

علم توم بمرض هاك، وذهب لرؤيته يوم الجمعة، ومع ذلك فلم يُسمح له بالدخول إلى غرفة النوم، لا السبت ولا الأحد، ثم سُمِح له بالدخول يوميًّا بعد ذلك، لكنهم شددوا على ضرورة ألا يحكي شيئًا عن مغامرته وألا يطرح موضوعًا مثيرًا، وجلست الأرملة دوجلاس إلى جانبه لتتأكد من أنه كان مطيعًا. علم توم بما حدث في تلة كارديف من المنزل، وعلم أيضًا أن جسد «الرجل الرث» تم العثور عليه أخيرًا في النهر بالقرب من مرسى السفينة، إذ إنه ربما قد غرق في أثناء محاولته الهرب.

بعد أسبوعين تقريبًا من إنقاذ توم من الكهف، ذهب ليزور هاك، الذي كان قد أصبح أقوى كثيرًا بما يكفي الآن لأن يسمع حديثًا مثيرًا، وفكر توم في أنه كان لديه بعض مما يثيره. كان منزل القاضي ثاتشر في طريق توم، فتوقف ليزور بيكي. تحدث القاضي وبعض الأصدقاء إلى توم، وسأله أحدهم بشكل ساخر إذا لم يرد أن يذهب إلى الكهف مجددًا، فقال توم إنه يعتقد إنه لن يمانع الأمر، فقال القاضي:

«حسنًا، هناك آخرون مثلك بالضبط يا توم، ليس لدي أدنى

شك. لكننا تدبرنا هذا الأمر، ولن يضل أي أحد طريقه في ذلك الكهف بعد الآن».

«لماذا؟».

«لأنني جعلت الباب يُغلق بحديد مغلي منذ أسبوعين وقفل من ثلاث مراحل، ومعي المفاتيح».

أبيض وجه توم حتى أصبح كالملاءة.

«ما الأمر يا فتى! فليركض أحدكم! أحضروا قدحًا من الماء!».

أحضر الماء وألقي في وجه توم.

«آه، الآن أنت على ما يرام. ما كان خطبك يا توم؟».

«أوه، أيها القاضي، إن إنجون جو في الكهف!».

# ٣٣

خلال دقائق قليلة، انتشر الخبر، وكانت عشرات القوارب المحملة بالرجال قد أصبحت في طريقها إلى كهف ماكدوجال، وسرعان ما تبعتهم السفينة التي حُملت بكثير من الركاب، وكان توم سوير في القارب الذي حمل القاضي ثاتشر.

عندما فُتِح باب الكهف، كان المنظر موحشًا وسط العتمة الكئيبة للمكان، إذ كان إنجون جو ممددًا على الأرض، وقد مات، وكان وجهه قريبًا من شق الباب، كما لو أن عينيه المشتاقتين كانتا قد تعلقتا، حتى آخر لحظة، بضوء وبهجة العالم الخارجي الحر. تأثر توم، لأنه عرف من تجربته كيف عانى هذا البائس، شعر بالشفقة لكنه شعر رغم ذلك بإحساس غامر من الراحة والأمان، الأمر الذي كشف له كم كان حمل الخوف كبيرًا بدرجة لم يكن يعرف قدرها كليًّا من قبل، ذلك أنه كان يثقله منذ اليوم الذي رفع فيه صوته ضد ذلك المنبوذ ذي العقل الدموي.

كان السكين الباوي الخاص بإنجون جو ملقى بالقرب منه،

وقد انكسر نصله إلى نصفين. وكانت دعامة الباب الأساسية الضخمة، قد كُسرت وثقبت، بعد مجهود مضن وغير مجد في الوقت نفسه، لأن صخرة صلبة تواجدت خارجه وكانت بمثابة عتبة، ولم يحدث السكين أثرًا في تلك المادة العنيدة، إذ إن الضرر الوحيد الذي حدث كان للسكين نفسه. ومع ذلك، لو لم يكن هناك عائق صخري، كان العمل سيظل غير مجد، لأنه إذا كانت الدعامة قد تم قطعها تمامًا، ما كان إنجون جو ليتمكن من أن يحشر جسده تحت الباب، وكان يعرف ذلك. ومن ثم، فقد ثقب ذلك الجزء فقط، من أجل أن يفعل شيئًا، ومن أجل أن يمرر الوقت الشاق، ومن أجل أن يشغل جسده المعذب. بشكل عام، كان المرء ليجد نصف دستة من بواقي الشموع، التي تركها السائحون، ملقاة في الممرات المتفرعة عن ذلك المدخل، إلَّا أنه لم يكن هناك أي شيء، إذ إن الأسير قد بحث عنهم وأكلهم، وقد دبر أيضًا لصيد بضعة خفافيش وأكلهم أيضًا دون أن يترك منهم شيئًا سوى مخالبهم. لقد مات التعس المسكين جوعًا. في مكان قريب، كان أحد الأعمدة ينمو ببطء من الأرض، عبر العصور، وقد نشأ عن تقطر الماء من أحد الأعمدة المتدلية فوقه. وقد كسر الأسير هذا العمود الذي ينمو، ووضع حجرًا فوق طرفه، وحفر فيه حفرة سطحية من أجل أن تتجمع فيها القطرة الثمينة التي تسقط كل ثلاث دقائق بصورة منتظمة مخيفة أشبه بدقات ساعة. كان ملء ملعقة حلويات مرة واحدة، بهذا الماء، ليتم خلال أربع وعشرين ساعة. كانت تلك القطرة تتساقط عندما كانت الأهرامات لا تزال جديدة، وعند سقوط طروادة، وعندما

أرسيت قواعد روما، وعندما صُلب المسيح، وعندما أسس الغزاة الإمبراطورية البريطانية، وعندما أبحر كولومبوس، وعندما كانت مذبحة ليكسنجتون لا تزال خبرًا.

إنها تتساقط الآن، وستظل تتساقط عندما تصبح كل هذه الأشياء في «عصر» التاريخ، و«غسق» التقاليد، ويبتلعها «ليل النسيان» الكثيف. هل لكل شيء غرض ومهمة؟ هل ظلت هذه القطرة تتساقط بصبر طوال خمسة آلاف عام، لتكون هناك عند احتياج هذه الحشرة الإنسانية التي تتلفظ أنفاسها إليها؟ وهل لديها أمر مهم آخر تحققه بعد عشرة آلاف عام؟ لا يهم. مرت أعوام عديدة وعديدة منذ أن حفر الخلاسي البائس الحجر، من أجل أن تتجمع القطرات التي لا تقدر بثمن، لكن حتى هذا اليوم، فإن أطول شيء يحدق إليه السائح، عندما يأتي لرؤية معالم كهف ماكدوجال، هو ذلك الحجر المثير للشفقة وذلك الماء الذي يتساقط ببطء. ويقف كأس إنجون جو في أول قائمة عجائب الكهف، حتى أن «قصر علاء الدين» لا يستطيع أن ينافسه.

دُفِن إنجون جو بالقرب من مدخل الكهف، وتدفق الناس إلى هناك في قوارب وعربات من البلدان ومن كل المزارع والقرى الصغيرة، من على بعد سبعة أميال، وأحضروا أطفالهم، وجلبوا كافة أنواع المؤن، واعترفوا بأنهم حظوا بوقت مرض في الجنازة بنفس القدر الذي كانوا سيحظون به لو شُنق.

أوقفت الجنازة النمو الزائد لشيء واحد، وهو الالتماس إلى

الحاكم بأن يعفو عن إنجون جو، إذ تم التوقيع على الالتماس على نطاق عريض، وعُقِدت العديد من الاجتماعات الباكية والبليغة، وتم تشكيل لجنة من النساء الحمقاوات من أجل أن يدخلن في حزن عميق وينتحبن حول الحاكم، ويتوسلن إليه أن يكون رحيمًا أبله ويسحق واجبه تحت قدمه. كان يُعتقد بأن إنجون جو قتل خمسة مواطنين من القرية، لكن ماذا في ذلك؟ لو كان الشيطان نفسه، سيكون هناك العديد من الضعفاء المستعدين لأن يوقعوا أسماءهم على التماس من أجل العفو، ويذرفون عليه دمعة من صنابيرهم المثقوبة والتالفة للأبد.

في الصباح الذي تلا الجنازة، أخذ توم، هاك، إلى مكان سري ليجري معه حديثًا هامًا. كان هاك، بحلول ذلك الوقت، قد عرف كل شيء عن مغامرة توم من الويلزي والأرملة دوجلاس، إلَّا أن توم قال إن هناك شيئًا واحدًا يعتقد أنهما لم يخبراه به، وكان هذا الشيء هو ما يريد التحدث معه بشأنه. بدا الحزن على وجه هاك، وقال:

«أنا أعرف ما هو الأمر. لقد دخلت في رقم ٢ ولم تجد شيئًا سوى الويسكي. لم يخبرني أحد أنك من فعل ذلك، ولكنني عرفت أنه كان حتمًا أنت فور أن سمعت بأمر الويسكي، وفهمت أيضًا أنك لم تحصل على المال لأنك كنت ستأتي إليَّ بطريقة أو بأخرى وتخبرني حتى لو لم تخبر أي شخص آخر. توم، لقد كان شيئًا ما يحدثني دائمًا بأننا لن نحصل على تلك الغنيمة».

«هاك، أنا لم أشي أبدًا بحارس الفندق ذلك. أنت تعرف أن

فندقه كان على ما يرام يوم السبت الذي ذهبت فيه إلى الرحلة. ألا تتذكر أنه كان من المفترض أن تقوم بالحراسة تلك الليلة؟».

«أوه، نعم! يبدو الأمر وكأنه منذ عام مضى. كانت تلك هي الليلة نفسها التي تتبعت فيها إنجون جو إلى منزل الأرملة».

«تتبعته؟».

«نعم، لكن لا تقل لأحد. أعتقد أن إنجون جو ترك أتباعًا وراءه، ولا أريدهم أن يضروني ويفعلون بي أمورًا سيئة. لولاي، لكان في تكساس الآن».

ثم سرد هاك مغامرته كلها بثقة إلى توم، الذي كان قد سمع منها الجزء المتعلق بالويلزي فقط.

حينئذ، قال هاك عائدًا إلى السؤال الرئيسي: «حسنًا، أيًّا كان الذي سرق الويسكي من رقم ٢، فقد سرق المال أيضًا، حسبما أعتقد، على أي حال لن نرى ذلك المال ثانية يا توم».

«هاك، ذلك المال لم يكن أبدًا في رقم ٢!».

تفحص هاك وجه رفيقه بحماس: «ماذا! توم، هل عرفت طريق المال مجددًا؟».

«هاك، إنه في الكهف!».

توهجت عينا هاك.

«قل لي مجددًا يا توم».

«المال في الكهف!».

«توم، بروح إنجون، هل تمزح أم تتحدث بجدية؟».

«أتحدث بجدية يا هاك، بنفس القدر من الجدية الذي كنت عليه طوال حياتي. هل ستذهب معي إلى هناك وتساعدني في إخراجه؟».

«بالطبع سأفعل ذلك! سأفعل ذلك إذا كان بإمكاننا معرفة الطريق دون أن نضل».

«هاك، يمكننا القيام بذلك دون أن نواجه أقل قدر من المشاكل في العالم».

«جيد جدًّا! ما الذي يجعلك تعتقد أن المال...».

«هاك، انتظر فقط حتى نصل إلى هناك. إذا لم نجده، سأوافق على أن أعطيك طبلتي وكل شيء أمتلكه في العالم. أقسم أنني سأفعل ذلك».

«حسنًا، هذا رائع. متى نذهب برأيك؟».

«الآن، إذا وافقت. هل أنت قوي بما فيه الكفاية؟».

«هل هو في مكان عميق داخل الكهف يا توم؟ أنا أعرج على أطرافي قليلًا منذ ثلاثة أو أربعة أيام، ولا أستطيع السير أكثر من ميل، على الأقل لا أظن أنني أستطيع».

«إنه على بعد خمسة أميال إذا سلكت الطريق الذي سيسلكه أي شخص غيري يا هاك، لكن هناك طريق مختصر جيد لا يعرفه أي أحد غيري يا هاك، سآخذك إليه في قارب. سأتولى أمر إبحار القارب وإعادته مرة أخرى بنفسي، لن تكون بحاجة إلى أن تضع يدك في شيء على الإطلاق».

«دعنا نبدأ على الفور يا توم».

«حسنًا. نحن بحاجة إلى بعض الخبز واللحم، وغليونينا، وحقيبة صغيرة أو اثنتين، وخيطين أو ثلاثة من خيوط الطائرات الورقية، وبعض من تلك الأشياء المبتكرة حديثًا التي يطلقون عليها ثقاب إبليس، كم من مرة تمنيت لو كان لدي بعض منها عندما كنت هناك من قبل».

بعد الظهر بوقت قليل، اقترض الصبيان قاربًا صغيرًا من مواطن لم يكن موجودًا، ومضيا في طريقهما على الفور، وعندما كانا على بعد عدة أميال أسفل «تجويف الكهف»، قال توم:

«الآن انظر إلى هذا الجرف هنا، يبدو كله متشابهًا بطول الطريق تجاه تجويف الكهف، لا توجد منازل، ولا مخازن خشب، كل الأجمة تبدو متشابهة. لكن هل ترى ذلك المكان الأبيض هناك بالأعلى مكان الانحدار الأرضي؟ حسنًا، هذه إحدى علاماتي. سنرسو الآن».

رسيا.

«والآن يا هاك، يمكنك أن تجد ذلك التجويف الذي خرجت منه، عند نفس البعد الذي تصل إليه سنارة صيد من مكان وقوفنا. انظر إذا كان بإمكانك العثور عليه».

بحث هاك في كل مكان، ولم يجد شيئًا. سار توم بفخر إلى أجمة كثيفة من السماق وقال:

«ها هو! انظر إليه يا هاك، إنه أكثر تجويف يبعث على الراحة في البلد. لا تخبر أحدًا بهذا الشأن. أردت طوال حياتي أن أصبح قاطع طريق، كنت أعلم أنني سيُقدر إليَّ شيء كهذا، وكانت المعضلة هو كيف أصل إليه، وقد حدث الان، سنبقي الأمر سرًا، وسنسمح لجو هاربر وبن روجرز بأن ينضما إلينا، لأنه بالطبع يجب أن تكون هناك عصابة، وإلا فلن يكون الأمر مشوقًا. عصابة توم سوير، تبدو رائعة، أليس كذلك يا هاك؟».

«إنها حقًا كذلك يا توم. ومن سنسرق؟».

«أوه، غالبًا أي شخص. نترصد الأشخاص، غالبًا هذه هي الطريقة».

«ونقتلهم؟».

«لا، ليس دائمًا. نبقيهم في الكهف حتى نحصل على فدية».

«ما هي الفدية؟».

«نقود. تجعلهم يجمعون كل ما يستطيعون جمعه، غالبًا أصدقاءهم، وبعد أن تمهلهم عامًا، لو لم يجمعوه، عندئذ تقتلهم. هذه هي الطريقة بشكل عام. فقط لا تقتل النساء. أنت تغلق أفواههن، لكن لا تقتلهن، فهن دائمًا جميلات، وثريات، وخائفات بدرجة مرعبة. تأخذ ساعاتهن وأغراضهن، لكنك دائمًا ترفع قبعتك وتتحدث إليهن بأدب. لا يوجد من هم في مثل أدب اللصوص، ستجد ذلك في أي كتاب. حسنًا، تقع النساء في حبك، وبعد أن يبقين في الكهف أسبوعًا أو أسبوعين، يتوقفن عن البكاء، وبعد ذلك لا

يمكنك أن تجعلهن يرحلن. إذا قدتهن إلى الخارج، سيستدرن إلى الوراء ويعودن. وهذا أيضًا موجود في كل الكتب».

«هذه بلطجة حقيقية يا توم. أعتقد أن ذلك أفضل من أن تكون قرصانًا».

«نعم، إنه أفضل في بعض الحالات، لأنه قريب من المنزل والسيرك وكل هذا».

بحلول ذلك الوقت، كان كل شيء جاهزًا، ودخل الصبيان التجويف، يتقدمهما توم. شقا طريقهما تجاه الجانب البعيد من النفق، وربطا خيوط الطائرات الورقية سريعًا ومضيا، وبعد خطوات قليلة وصلا إلى الينبوع، وشعر توم برجفة تسري في جميع أوصاله، وجعل هاك يرى ما تبقى من فتيل الشمعة المثبتة فوق قطعة طين أمام الحائط، ووصف له كيف شاهد هو وبيكي اللهب وهو ينازع وينطفئ.

بدأ الصبيان يخفضان صوتيهما حتى أصبح همسًا، إذ إن سكون المكان وظلمته قد أثقلا روحيهما. استمرا، ثم دخلا وتتبعا ممر توم الآخر حتى وصلا إلى المزلق، وكشفت الشموع حقيقة أنه لم يكن حقًّا حافة الهاوية، وإنما فقط تل طيني منحدر ارتفاعه عشرين أو ثلاثين قدمًا، فهمس توم:

«الآن، سأريك شيئًا يا هاك».

رفع شمعته إلى أعلى وقال:

«انظر بعيدًا إلى الزاوية قدر استطاعتك، هل ترى ذلك؟ هناك، على الصخرة الكبيرة هناك، مصنوع من دخان الشمع».

«توم، إنه صليب!».

«والآن أين رقم ٢؟ «تحت الصليب»، أليس كذلك؟ بالضبط حيث رأيت إنجون جو وهو يمسك بشمعته يا هاك!».

حدق هاك إلى الرمز الديني قليلًا، ثم قال بصوت مرتجف:

«توم، دعنا نخرج من هنا!».

«ماذا! ونترك الكنز؟».

«نعم، نتركه. شبح إنجون جو بالقرب من هنا بالتأكيد».

«لا يا هاك، لا. إنه سيسكن المكان الذي مات فيه، بعيدًا عند مدخل الكهف، على بعد خمسة أميال من هنا».

«لا، يا توم، لن يسكن هناك. سيسكن بالقرب من المال. أنا أعرف أسلوب الأشباح، وكذلك أنت».

بدأ توم يخشى من أن يكون هاك على حق وملأت الهواجس عقله، لكن في الوقت الحالي خطرت له فكرة..

«انظر هنا يا هاك، أي حمقى نحن! شبح إنجون جو لن يقترب من مكان فيه صليب!».

كانت هذه نقطة سديدة، وأحدثت أثرها.

«توم، لم أفكر في ذلك، لكن هذا صحيح، نحن محظوظون لوجود ذلك الصليب، وأرى أن نقفز ونفتش عن ذلك الصندوق».

تقدم توم أولًا، وهو يغرز قدمه بعنف في تل الطين وهو ينزل، وهاك يتبعه. تفرعت المغارة الصغيرة، التي تواجدت بداخلها

صخرة كبيرة، عن أربعة ممرات. قام الصبيان بتفتيش ثلاثة منهم دون جدوى، ثم وجدا تجويفًا صغيرًا بالقرب من قاعدة الصخرة، وسريرًا صغيرًا فُرِشت عليه بطاطين، وكذلك حمالة بنطال، وشطيرة لحم مقدد، وعظام طيرين أو ثلاثة طيور ممضوغة جيدًا، لكن لم يكن هناك خزانة نقود. فتش الصبيان المكان مرارًا وتكرارًا، لكن دون جدوى، ثم قال توم:

«لقد قال إنه تحت الصليب، وهذا أقرب ما يكون تحت الصليب. لا يمكن أن يكون تحت الصخرة نفسها، لأنها ثابتة على الأرض».

بحثا من جديد في كل مكان، ثم جلسا في إحباط. لم يستطع هاك أن يقترح شيئًا، وبعد قليل قال توم:

«انظر هنا يا هاك، يوجد آثار أقدام وبعض شحم الشمع على الطين القريب من أحد جوانب هذه الصخرة، لكن لا يوجد على الجوانب الأخرى. ما سبب وجود هذه الآثار؟ أراهن أن النقود تحت الصخرة، سأحفر في الطين».

قال هاك في حماس: «إنها ليست فكرة سيئة يا توم!».

على الفور، أخرج توم مطواته البارلو الأصلية، ولم يحفر أكثر من أربع بوصات حتى ارتطمت المطواة بالخشب.

«هاك! هل تسمع ذلك؟».

ما لبث هاك أن بدأ يحفر ويخربش على الفور، وسرعان ما

كشف عن مجموعة ألواح تخلصا منها، إذ كانت تخفي تحتها حفرة طبيعية تؤدي إلى ما تحت الصخرة.

دخل توم فيها، ومد شمعته تحت الصخرة، بعيدًا قدر استطاعته، ثم قال إنه لا يستطيع أن يرى نهاية الشق، واقترح أن يستكشفاه. وعليه، انحنى بجسده وانزلق تحت الصخرة. كان الممر الضيق ينحدر إلى أسفل تدريجيًّا، وتتبع توم مساره المتعرج، بداية إلى اليمين، ثم إلى اليسار، وهاك في عقبيه. استدار توم عند منحنى صغير رويدًا رويدًا، ثم صاح:

«يا إلهي يا هاك، انظر هنا!».

كان صندوق الكنز، بالتأكيد، يشغل حيزًا صغيرًا وثيرًا ومعه برميل بارود فارغ وزوج بنادق في حافظات من الجلد وزوج أو ثلاثة أزواج من الأحذية القديمة وحزام جلدي وبعض القمامة الأخرى التي غرقت تمامًا في قطرات المياه.

قال هاك، وهو يقلب العملات التي فقدت بريقها: «أخيرًا حصلنا عليه! يا إلهي، أصبحنا أثرياء يا توم!».

«هاك، لقد شعرت دائمًا بأننا سنحصل عليه، إنه أمر جيد جدًّا بشكل يصعب تصديقه، لكننا حصلنا عليه بالطبع! دعنا لا نتسكع هنا، لنهربه إلى الخارج. دعني أرى إن كان بإمكاني حمل الصندوق».

كان وزنه حوالي خمسين باوندًا. رفعه توم بطريقة غريبة، لكنه لم يستطع أن يحمله على نحو مناسب.

قال: «هذا ما ظننته، لقد حملاه بطريقة تنم عن ثقله ذلك اليوم في البيت المسكون، لقد لاحظت ذلك. أعتقد أنني كنت محقًا عندما فكرت في إحضار الحقائب الصغيرة».

سرعان ما أصبح المال في الحقائب وأخذه الصبيان إلى أعلى عند صخرة الصليب.

قال هاك: «الآن دعنا نحضر البنادق والأغراض الأخرى».

«لا، يا هاك، اتركها هناك، لأنها تكون ضرورية فقط عندما نذهب للسرقة، سنبقيها هناك طوال الوقت، وسنقيم حفلات العربدة الخاصة بنا هناك أيضًا، إنه مكان مناسب جدًّا لحفلات العربدة».

«أي حفلات عربدة؟».

«لا أدري. لكن اللصوص دائمًا ما يكون عندهم حفلات عربدة، وبالطبع يجب أن يكون عندنا نحن أيضًا، هلم يا هاك، لقد مكثنا هنا فترة طويلة، وقد تأخر الوقت حسبما أعتقد، وقد جعتُ أيضًا، سنأكل وندخن عندما نصل إلى القارب».

خرجا عند أجمة شجر السماق، وتطلعا إلى الخارج في حذر، فوجدا الشاطئ خاليًا. سرعان ما كانا يتناولان غداءهما ويدخنان في القارب. وبينما كانت الشمس تغرب في الأفق، ابتعدا ومضيا في طريقهما. وصل توم الشاطئ بالقارب في خفة، وسط الشفق الطويل، وهو يتحدث بمرح مع هاك، وأرسى القارب بعد وقت قصير من حلول الظلام.

قال توم: «والآن يا هاك، سنخبئ النقود في غرفة الأرملة

العلوية، وسأصعد إلى هناك في الصباح وسنقوم بعده وتقسيمه، ثم سنبحث عن مكان في الخارج، وسط الغابات، من أجل أن نضعه فيه بحيث يكون في مأمن. ابق هنا في هدوء وراقب الأغراض حتى أركض وأحضر عربة «بيني تايلور» الصغيرة، لن أستغرق دقيقة».

اختفى توم ثم عاد على الفور ومعه العربة. وضع الحقيبتين الصغيرتين داخلها، وألقى بعض الأسمال القديمة فوقها، ومضى وهو يجر الحمولة وراءه. عندما وصل الصبية إلى منزل الويلزي، توقفا ليستريحا، وعندما كانا على وشك أن يتحركا، خرج الويلزي وقال:

«أهلًا، من هناك؟».

«هاك وتوم سوير».

«حسن! تعاليا معي يا فتيان، الجميع ينتظركما. هلما، أسرعا، أسرعا، سأسحب العربة لكما؛ إنها ليست خفيفة مثلما يمكن أن تكون. هل بها طوب؟ أم معادن قديمة؟».

قال توم: «معادن قديمة».

«خمنت ذلك، فتيان هذه البلدة على استعداد أن يبذلوا مجهودًا ووقتًا أكبر وهم يفتشون عن حديد قديم قيمته ٦ قطع معدنية من أثمان الدولارات لبيعه إلى المسابك، أكثر من ذلك الذي كانوا سيبذلونه من أجل ضعف المبلغ في وظيفة عادية، إلَّا أن هذه هي الطبيعة البشرية، أسرعا، أسرعا!».

أراد الصبيان أن يعرفا فيم العجلة.

«لا تقلقا، ستريان عندما نصل إلى الأرملة دوجلاس».

ولأنه اعتاد دائمًا على أن يُتهم زورًا، قال هاك ببعض التخوف:

«سيد جونز، لم نكن نفعل شيئًا».

ضحك الويلزي.

«حسنًا، لا أدري يا هاك يا فتاي، ليس لدي علم بهذا الأمر، ألست أنت والأرملة صديقين جيدين».

«نعم، حسنًا، لقد كانت صديقة جيدة لي على أي حال».

«حسنًا إذًا، لماذا أنت خائف؟».

لم يجد عقل هاك البطيء الإجابة المناسبة، قبل أن يجد نفسه مدفوعًا مع توم إلى غرفة معيشة السيدة دوجلاس.

ترك السيد جونز العربة بالقرب من الباب ولحق بهما.

كان المكان مضاءً على نحو رائع، وكان جميع من تصادف أن تواجدوا في القرية حاضرين، كان آل ثاتشر هناك، وآل هاربر، وآل روجرز، والخالة بولي، وسيد، وماري، والقس، والمحرر، وأكثر من هؤلاء بكثير، وكان الجميع مرتديًا أبهى حلهم. استقبلت الأرملة الصبيين بنفس القدر من المودة الذي يمكن لأي شخص أن يستقبل به مثل هذين الشخصين الوسيمين؛ كانا مكسوين بالطين وشحم الشمع، توردت الخالة بولي من الإحراج، وعبست وهزت رأسها لتوم. ومع ذلك، لم يكن أحد يعاني نصف ما يعانيه الصبيان في تلك اللحظة. قال السيد جونز:

«لم يكن توم في المنزل، وعليه فقدت الأمل من ناحيته، لكنني تعثرت به هو وهاك عند بابي مباشرة، وعليه أحضرتهما معي بسرعة».

قالت الأرملة: «وقد فعلت الصواب، تعاليا معي يا فتيان».

وأخذتهما إلى غرفة نوم وقالت:

«والآن اغتسلا وارتديا ملابسكما. إليكما بذلتين جديدتين، وقمصان، وجوارب، كل شيء موجود. إنهما لهاك، لا، لا شكر يا هاك، ابتاع السيد جونز واحدة وابتعتُ أنا الأخرى، لكنهما ستكونان مناسبتين لكليكما، ارتدوهما وسننتظركما، تعاليا عندما تصبحان نظيفين بما يكفي».

ثم رحلت.

# ٣٤

قال هاك: «توم، يمكننا أن نهرب إذا استطعنا العثور على حبل؛ النافذة ليست مرتفعة عن الأرض».

«يا إلهي! لماذا تريد أن تهرب؟».

«حسنًا، أنا لست معتادًا على هذا النوع من الزحام، لا يمكنني تحمله، لن أنزل إلى تحت يا توم».

«أوه، لا تقلق! إنه ليس بالأمر الخطير، أنا لست قلقًا؛ وسأساعدك».

جاء سيد.

وقال: «توم، ظلت خالتي تنتظرك العصر كله، وقامت ماري بتحضير ملابس يوم الأحد، وظل الجميع قلقًا عليك. قل لي، أليس ذلك شحمًا وطينًا على ملابسك؟».

«لا يا سِيْدي أفندي، اهتم بشؤونك وحسب؛ ما كل هذه الجلبة على أي حال؟».

«إنها واحدة من حفلات الأرملة التي دائمًا ما تقيمها، وهذه المرة الحفلة مقامة من أجل الويلزي وابنيه، وعلى شرف ذلك المأزق الذي ساعداها على أن تخرج منه في تلك الليلة، ويمكنني أن أفضي لك بأمر إن أردت أن تعرف».

«حسنًا، ما هو هذا الأمر؟».

«سيحاول السيد جونز العجوز أن يكشف للحضور عن شيء هذه الليلة، لكنني سمعته يحكي لخالتي عن الأمر باعتباره سرًا، إلَّا أنني أعتقد أنه ليس بالسر الكبير الآن، وأن الجميع يعرف، بما في ذلك الأرملة، ولكنها تتظاهر أمام الجميع بأنها لا تعرف. كان السيد جونز مصرًا على وجود هاك هنا، إذ لم يستطيع أن يتعايش مع سره الكبير بدون هاك، مثلما تعرف!».

«سر بشأن ماذا يا سِيْد؟».

«بشأن تتبع هاك للصوص إلى منزل الأرملة. أعتقد أن السيد جونز كان سيجعلهم يقضون وقتًا رائعًا بسبب مفاجأته، لكني أراهنك أنهم سيستقبلونها في لا مبالاة».

ضحك سيد بطريقة تنم عن ارتياح ورضا كبيرين.

«سيد، هل كنت أنت من وشى؟».

«أوه، لا يهم من وشى، أحد ما قد وشى، وهذا يكفي».

«سيد، يوجد شخص واحد فقط في هذه البلدة نذل بما يكفي لأن يفعل ذلك، وهو أنت. لو كنتَ في مكان هاك، لكنتَ تسللتَ إلى أسفل التل ولم تخبر أحدًا عن اللصوص أبدًا. أنت لا تستطيع أن

تفعل سوى الأشياء الوضيعة، ولا تستطيع تحمل رؤية أي شخص يتلقى ثناءً لقيامه بأمور جيدة. انظر، لا شكر مثلما تقول الأرملة»، ثم صفع توم أذني سيد وأوصله إلى الباب بعدة ضربات، وهو يقول: «الآن اذهب وأخبر خالتي إذا كنت تجرؤ، وغدًا سترى ماذا سيحدث!».

بعد بضع دقائق، كان ضيوف الأرملة على طاولة العشاء، فيما جلس الأطفال إلى طاولات جانبية صغيرة في نفس الغرفة، حسب عادات هذا البلد وذاك الزمن. وفي الوقت المناسب، ألقى السيد جونز خطابه الصغير، الذي شكر فيه الأرملة على هذا الشرف الذي منحته إياه هو وابنيه، مشيرًا إلى وجود شخص آخر جعله تواضعه.. وما إلى ذلك، ثم كشف عن سره المتعلق بنصيب هاك من المغامرة بأفضل طريقة درامية برع فيها، إلَّا أن المفاجأة التي نتجت عنها كانت زائفة بدرجة كبيرة، ولم تكن مبهرة وجياشة مثلما كان من الممكن أن تكون في ظروف أسعد. ومع ذلك، أظهرت الأرملة قدرًا كبيرًا من الدهشة، وانهالت بإطراء كثير وامتنان كبير على هاك، حتى كاد ينسى عدم الراحة غير المحتملة جزئيًّا، المتسببة فيها ملابسه الجديدة، وسط عدم الراحة غير المحتملة كليًّا لكونه قد أصبح وكأنه هدف لنظرات الجميع وثنائهم.

قالت الأرملة إنها تنوي أن تعطي هاك مكانًا يعيش فيه تحت سقفها وأن تُعلمه، وذلك عندما تستطيع تدبير المال الذي ستنفقه على هذه المسألة، بطريقة ملائمة، فكانت هذه فرصة توم لأن يقول:

«هاك ليس بحاجة إلى هذا المال، هاك ثري».

لم يمنع ضحكات المجاملة الملائمة والضرورية، على هذه المزحة السارة، سوى قيد سلوكيات الحضور الجيدة، ومع ذلك فقد كان الصمت غريبًا نوعًا ما، إلَّا أن توم كسره، قائلًا:

«هاك لديه مال، ربما لا تصدقوا الأمر، لكنه يمتلك الكثير من المال. أوه، لا حاجة للابتسام، أعتقد أن بإمكاني أن أريكم، انتظروا دقيقة فقط».

خرج توم من الباب، راكضًا، وتبادل الحضور نظرات تحمِل علامات استفهام لهاك، الذي انعقد لسانه، وتمتلئ باهتمام تشوبه الحيرة.

قالت الخالة بولي: «سيد، ما خطب توم؟ لا يمكن فهم هذا الصبي أبدًا، لن..».

دخل توم وهو يتصارع مع ثقل الحقائب، فلم تكمل الخالة بولي جملتها. ألقى توم بكل العملات الصفراء فوق الطاولة وقال:

«ماذا قلت لكم؟ نصفه لي ونصفه لهاك!».

قطعت الصدمة أنفاس الجميع. حدق جميعهم، ولم يتحدث أحدهم لوهلة، ومن ثم كان هناك مطلب جماعي بتفسير، وقال توم إن بإمكانه تقديم ذلك التفسير، وقدمه. كانت القصة طويلة، ولكن مفعمة بالتشويق. لم يقطعه أحد تقريبًا، حتى لا ينكسر سحر تدفقها. وعندما انتهى، قال السيد جونز:

«لقد ظننت أنني أعددت مفاجأة صغيرة من أجل هذه المناسبة،

لكنها لا تقارن بشيء الآن، فهذه المفاجأة تجعلها صغيرة جدًّا، أنا مستعد لأن أعترف بذلك».

أُحصيت النقود، ووصل مجموعها إلى ما يزيد عن اثنى عشر ألف دولار، بقليل، وقد كان ذلك المبلغ أكثر من أي مبلغ رآه أي من الحاضرين، في مرة واحدة من قبل، رغم أن العديد من الأشخاص الذين كانوا متواجدين هناك كان لديهم أكثر من ذلك بكثير بما عندهم من ممتلكات.

# ٣٥

من الممكن للقارئ أن ينام مطمئنًا إلى أن مفاجأة توم وهاك قد أحدثت بلبلة هائلة في قرية سانت بطرسبرج الصغيرة المسكينة، إذ كان هذا المبلغ الهائل، جميعه نقدًا فعليًّا، أمرًا لا يكاد يُصدق. تحدثوا به، حقدوا عليه، عظموه، حتى انهارت عقول العديد من المواطنين تحت وطأة الحماس غير الصحي. تم تفتيش كل منزل «مسكون» في سانت بطرسبرج وفي القرى المجاورة، خشبة بخشبة، وحُفِرَت أساساته وخُرِبَت بحثًا عن كنز مخبأ. ولم يكن ذلك على يد صبية، وإنما رجال؛ كان بعضهم واقعيًّا وجادًا جدًّا أيضًا.

أينما ظهر توم وهاك، كان يتم التودد إليهما واحترامهما والتحديق بهما. لم يستطع الصبيان أن يتذكرا إن كانت تعليقاتهما تحمل أهمية من قبل، أما الآن فكانت أقوالهما تُقَدر وتُرَدد، وبطريقة ما كان يبدو أن كل شيء يفعلانه يتم اعتباره رائعًا، وبدا جليًّا أنه لم يعد بإمكانهما القيام والتحدث بالأمور العادية، بل وأكثر من ذلك، فقد تم تنظيف تاريخهما السابق واكتشاف أنه يحمل لمسات إبداع لافت للنظر، ونشرت صحيفة القرية سيرًا تعريفية بالصبية.

وضعت الأرملة دوجلاس نقود هاك في المصرف، لتعود عليه بنسبة أرباح ستة بالمئة، وفعل القاضي ثاتشر الشيء نفسه مع توم، حسبما طلبت الخالة بولي. كان لكل فتى دخل الآن، وكان ذلك الدخل ببساطة ضخمًا، إذ إنه كان دولارًا يوميًّا ونصف دولار في أيام الآحاد. كان هذا ما يتقاضاه القس، لا، بل كان هذا ما أخذ وعدًا به دون أن يتمكن من تحقيقه بصفة عامة. كان دولار وربع أسبوعيًّا كافيًا لمواصلات وسكن وتعليم فتى، في تلك الأيام البسيطة المنقضية، وكسوته واغتساله أيضًا من أجل هذا الغرض.

كوَّن القاضي ثاتشر رأيًا عظيمًا عن توم، وقال إنه لم يكن لفتى عادي أن يُخرج ابنته من الكهف أبدًا، وعندما حكت بيكي لوالدها، بثقة شديدة، كيف تلقى توم الضرب مكانها، في المدرسة، ظهر على القاضي التأثر، وعندما طلبت إليه أن يصفح عن الكذبة الكبيرة التي قالها توم من أجل أن يتحمل ذلك الضرب عنها، قال القاضي بحماس كبير إن هذه كانت كذبة نبيلة وكريمة وشهمة؛ كذبة تستحق أن ترفع رأسها وتمشي عبر التاريخ كتفًا بكتف مع صدق جورج واشنطن الذي لا يكذب وقصة بلطته المشاد بها! خطر إلى بيكي أن والدها لم يبد طويلًا ورائعًا هكذا، أبدًا، بقدر ما كان وهو يسير على الأرض ويضغط بقدمه ويقول تلك الكلمات، وعليه ذهبت إلى الخارج على الفور وحكت لتوم عن الأمر.

كان القاضي ثاتشر يأمل أن يصبح توم محاميًا عظيمًا أو جنديًا عظيمًا يومًا ما، وقال إنه يعني بذلك أنه يرى أن توم ينبغي أن ينضم

إلى الأكاديمية العسكرية الوطنية، ثم يتدرب بعد ذلك في أفضل مدرسة حقوق في البلد، من أجل أن يكون مستعدًا لأي المهنتين أو كلتيهما.

ساهمت ثروة هاك فن وحقيقة أنه أصبح الآن تحت حماية الأرملة دوجلاس في تقديمه إلى المجتمع، لا، بل جرجرته إليه والإلقاء به فيه، وكانت معاناته تكاد تكون أكثر مما استطاع أن يتحمل. أبقاه خدم الأرملة نظيفًا ومهندمًا، ممشطًا ومغسولًا، وكانوا ينيمونه ليلًا على ملاءات ليس عندها تعاطف ولا توجد عليها بقعة أو لطخة واحدة صغيرة يستطيع أن يضمها إلى قلبه ويعتبرها صديقًا. كان عليه أن يأكل بالشوكة والسكينة، وكان عليه أن يستخدم المناديل والأكواب والأطباق، وكان عليه أن يدرس في كتابه، وكان عليه أن يذهب إلى الكنيسة، وكان عليه أن يتحدث بطريقة لائقة جدًّا حتى أصبح الحديث مبتذلًا في فمه، وكانت قضبان وقيود الحضارة تحبسه داخلها وتقيده من يده وقدمه، أينما التفت.

تحمل مآسيه بشجاعة لثلاثة أسابيع، ثم تبين ذات يوم أنه مفقود، ظلت الأرملة تبحث عنه في كل مكان، لمدة أربع وعشرين ساعة، بقلق بالغ. شعر العوام بقلق عميق، وبحثوا في كل مكان، وفتشوا النهر بحثًا عن الجثة. وفي باكر صباح اليوم الثالث، ذهب توم سوير بحكمة يبحث عنه في بعض البراميل الفارغة القديمة المتواجدة وراء محل الجزارة المهجور، فوجد اللاجئ في أحدها. كان هاك نائمًا هناك، وكان قد تناول إفطاره للتو من بقايا الطعام المسروق، وكان مستلقيًا الآن في راحة مع غليونه. كان أشعث وغير

ممشط ومكسوًّا بنفس الأسمال البالية القديمة التي كانت تجعل شكله رائعًا في تلك الأيام التي كان فيها حرًا وسعيدًا.

أخرجه توم وحكى له عن القلق الذي تسبب فيه، وحثه على العودة إلى المنزل، فذهب هدوء الرضا من على وجه هاك، وأخذ قالبًا حزينًا، ثم قال:

«لا تتحدث عن الأمر يا توم. لقد حاولت، ولم يفلح الأمر، لم يفلح يا توم. هذه الأمور لا تصلح لي، لست معتادًا عليها. الأرملة طيبة معي، وودودة، ولكنني لا أستطيع تحمل طريقة معيشتهم، إنها تجعلني أستيقظ في الوقت نفسه بالضبط كل صباح، وتجعلني أغتسل، ويمشطونني حتى أُجن، ولا تسمح لي بالنوم في مخزن الحطب، ويجب أن أرتدي ملابسهم اللعينة التي تخنقني يا توم، يبدو أن هذه الملابس لا تسمح لأي هواء بأن يتسلل داخلها بطريقة ما، إن هذه الملابس لطيفة بدرجة مقززة تجعلني لا أستطيع أن أجلس، أو أستلقي، أو حتى أتقلب في أي مكان، لم أتزلج على باب القبو منذ.. حسنًا، منذ أعوام على ما يبدو، ويجب أن أذهب إلى الكنيسة وأتصبب عرقًا وأتصبب عرقًا؛ وأنا أكره خطبهم العدوانية! لا يمكنني الإمساك ببعوضة هناك، لا يمكنني المضغ. ويجب أن أرتدي حذاءً طوال يوم الأحد. إن الأرملة تأكل بجرس، وتذهب إلى النوم بجرس، وتستيقظ بجرس، إن كل شيء منظم بشكل بشع جدًّا على أن يتحمله شخص».

«حسنًا، الجميع يفعل ذلك يا هاك».

«هذا لا يغير في الأمر شيئًا يا توم؛ أنا لست الجميع، ولا يمكنني تحمل الأمر. إنه لأمر فظيع أن تكون مقيدًا هكذا. إن الطعام يأتي سهلًا جدًّا، وأنا لا أحب الوجبات بهذه الطريقة، ويجب أن أستأذن من أجل أن أذهب للصيد، ويجب أن أستأذن من أجل أن أذهب للسباحة؛ ليس هناك شيء لا يجب أن أستأذن لأفعله. ويجب أن أتحدث بطريقة لطيفة جدًّا، ولم يكن الأمر مريحًا. كنت أضطر إلى أن أصعد إلى الغرفة العلوية، كل يوم، لأتكلم بطريقتي وأشعر بطعم فمي وإلا كنت سأموت يا توم. لم تكن الأرملة تسمح لي بالتدخين، لم تكن تسمح لي بالصياح، لم تكن تسمح لي بالتثاؤب أو التمدد أو الحك، أمام الناس» [ثم بسخط ينم عن استفزاز من نوع خاص وتضرر] «ويا إلهي، لقد كانت تصلي طوال الوقت! أنا لم أر أبدًا مثل هذه السيدة! كان عليَّ أن أهرب يا توم، كان عليَّ. فضلًا عن ذلك، فإن تلك المدرسة ستفتح، وسيتعين عليَّ أن أذهب، حسنًا، لن أتحمل ذلك يا توم. انظر هنا يا توم، لقد اتضح أن الثراء ليس مثلما يبدو، إنه فقط قلق وقلق وتعب وتعب وتمنيات بأن تكون ميتًا طوال الوقت. والآن؛ هذه الملابس تناسبني، وهذا البرميل يلائمني، ولن أتخلى عنهم بعد ذلك، يا توم، ما كنت لأتكبد كل هذا العناء، لولا سعيت وراء ذلك المال، والآن خذ حصتي منه مع حصتك، وأعطني عشرة سنتات من حين إلى آخر، ليس كثيرًا، لأنني لا أحب شيئًا لا يكون الحصول عليه صعبًا. اذهب أنت وتوسل الأرملة من أجلي».

«أوه، هاك، أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك. هذا

ليس عدلًا، إلى جانب أنك إذا جربت هذا الأمر لفترة أطول فقط، ستحبه».

«أحبه! نعم، على نفس النحو الذي كنت سأحب به موقدًا ساخنًا لو كان يتعين عليَّ الجلوس فوقه مدة طويلة. لا يا توم، لن أكون ثريًا، ولن أعيش في منازلهم الخانقة اللعينة. أنا أحب الغابات، والنهر، والبراميل، وسأتمسك بهم. اللعنة على ذلك كله! بمجرد أن أصبح لدينا بنادق وكهف، وكان كل شيء مهيئًا للسرقة، وقع هذا السخف اللعين وأفسد كل شيء!».

وجد توم فرصته..

«انظر هنا يا هاك، لن يمنعني الثراء من أن أصبح قاطع طريق».

«لا! أوه، يا إلهي، هل أنت جاد حقًّا يا توم؟».

«أنا جاد جدية جلوسي هنا. لكن يا هاك، لا يمكننا أن نضمك إلى العصابة ما لم تكن جديرًا بالاحترام، مثلما تعرف».

انطفأت فرحة هاك.

«لن تسمح لي بالانضمام يا توم؟ ألم تدعني لأصبح قرصانًا؟».

«نعم، لكن هذا أمر مختلف. قاطع الطريق أكثر رفعة من القرصان بصفة عامة، وفي أغلب البلدان يصل نبلهم إلى درجة عالية جدًّا، مثل أن يكون المرء دوقًا وما إلى ذلك».

«توم، ألم تكن دومًا صديقًا لي؟ لن تنبذني، أليس كذلك يا توم؟ لن تفعل ذلك الأن، أليس كذلك يا توم؟».

«هاك، أنا لن أرغب في ذلك ولا أريده، لكن ماذا سيقول الناس؟ سيقولون، هاه! عصابة توم سوير! أفرادها وضيعون جدًّا! وسيكون قصدهم بذلك أنت يا هاك، ولن يعجبك هذا الشيء، ولن يعجبني».

ظل هاك صامتًا لبعض الوقت، وقد غرق في صراع مع عقله، ثم قال أخيرًا:

«حسنًا، سأعود إلى الأرملة شهرًا وأتصدى لهذا الأمر وأرى إن كان بإمكاني تحمله، ذلك إذا سمحت لي بأن أنضم إلى العصابة يا توم».

«حسنًا يا هاك، هذا رائع! تعالى أيها الرفيق القديم، وسأطلب إلى الأرملة أن تخفف من قيودها عليك قليلًا يا هاك».

«هل ستفعل ذلك يا توم، هل ستفعل ذلك؟ هذا جيد. إذا تساهلت في بعض الأمور الأصعب، سأدخن سرًا وأسب سرًا، وإما أنسجم أو يفشل الأمر. متى ستبدأ العصابة ونصبح لصوصًا؟».

«أوه، على الفور. سنجتمع بالصبية ونؤدي الطقوس الليلة، ربما».

«نؤدي ماذا؟».

«نؤدي الطقوس».

«وماذا يعني هذا؟».

«يعني أن نُقسم بأن نقف إلى جانب بعضنا البعض، وألا نفشي

أسرار العصابة أبدًا، حتى لو تم تقطيعنا إربًا، وأن نقتل أي شخص يمس أي فرد في العصابة، هو وعائلته كلها».

«هذا رائع، هذا رائع جدًّا يا توم».

«أنا متأكد من ذلك، ويجب أن تنتهي مسألة تأدية القسم هذه كلها، بحلول منتصف الليل، في المكان الأكثر رعبًا وانعزالًا يتسنى لنا العثور عليه؛ بيت مسكون أفضل شيء، لكنهم جميعًا خربون الآن».

«حسنًا، منتصف الليل جيد على أي حال يا توم».

«نعم، إنه كذلك. ويجب أن تؤدي القسم على تابوت وتوقع عليه بالدم».

«هذا رائع! هذا أكثر بلطجة من القرصنة مليون مرة، وسأظل مع الأرملة حتى أتعفن يا توم، وأعتقد أنها ستكون فخورة بأنها آوتني من التشرد، إذا قُدر لي أن أصبح مجرمًا وسفاحًا وأن يتحدث الجميع عن ذلك».

# خاتمة

وهكذا انتهت أحداث هذه الرواية، ونظرًا إلى أنها محددة بتاريخ صبي، فيجب أن تتوقف عند هذا الحد، لأنها لا يمكن أن تمتد أكثر من ذلك دون أن تصبح سردًا لتاريخ رجل، وعندما يكتب المرء رواية عن بالغين، فإنه يكون على علم تام متى يُنهي روايته؛ وذلك بالزواج. لكن عندما يكتب عن أطفال، فيجب أن يُنهيها عندما يكون بإمكانه أن يفعل ذلك على أفضل نحو.

لا تزال أغلب الشخصيات الواردة في هذا الكتاب على قيد الحياة، وينعمون بالرخاء والسعادة. يومًا ما، من الممكن أن يتولد شعور بأن قصة الصغار تستحق التناول من جديد، ونرى أي نوع من الرجال والنساء قد أصبحوا، وعليه فسيكون عدم الكشف عن أي شيء متعلق بذلك الجزء من حياتهم في الوقت الحاضر، أكثر حكمة.

كانت تلك القطرة تتساقط عندما كانت الأهرامات لا تزال جديدة، وعند سقوط طروادة، وعندما أرسيت قواعد روما، وعندما صُلب المسيح، وعندما أسس الغزاة الإمبراطورية البريطانية، وعندما أبحر كولومبوس، وعندما كانت مذبحة ليكسنجتون لا تزال خبرًا. إنها تتساقط الآن، وستظل تتساقط عندما تصبح كل هذه الأشياء في "عصر" التاريخ، و"غسق" التقاليد، ويبتلعها "ليل النسيان" الكثيف. هل لكل شيء غرض ومهمة؟ هل ظلت هذه القطرة تتساقط بصبر طوال خمسة آلاف عام، لتكون هناك عند احتياج هذه الحشرة الإنسانية التي تتلفظ أنفاسها إليها؟ وهل لديها أمر مهم آخر تحققه بعد عشرة آلاف عام؟ لا يهم. مرت أعوام عديدة وعديدة منذ أن حفر الخلاسي البائس الحجر، من أجل أن تتجمع القطرات التي لا تقدر بثمن، لكن حتى هذا اليوم، فإن أطول شيء يحدق إليه السائح، عندما يأتي لرؤية معالم كهف ماكدوجال، هو ذلك الحجر المثير للشفقة وذلك الماء الذي يتساقط ببطء. ويقف كأس إنجون جو في أول قائمة عجائب الكهف، حتى أن "قصر علاء الدين" لا يستطيع أن ينافسه.

"قرأت توم سوير للمرة الأولى عندما كنت في الصف الثامن. كان عمري ثلاثة عشر عامًا، وأدركت حينها أن مارك توين قد عبأ شعور أن تكون طفلًا في زجاجة".

**جيف نيكولاس - مخرج أمريكي**

"لقد أحببت أعمال مارك توين منذ البداية، وكل مرة كنت أقرأ فيها توم سوير، كنت أخرج وأفعل مثله بالضبط؛ شيئًا شقيًا دون المستوى".

**جون غريشام - روائي أمريكي**

مارك توين

**مغامرات توم سوير**

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

9 789921 723090

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com